قِصَصُ

السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

١٥

مُصارحة القوم

قُلوبٌ مُتَفاوِتَةٌ

عَرِفْنا يا أحِبّائي أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ نَجَحَ أَوَّلَ الأَمرِ في إدْخالِ الإسلامِ إلى قُلوبِ بعضِ أقْربائِه وأصدقائِه ، وعَلى رأْسِ هٰؤلاءِ : زَوجتُه خديجةُ وابْنُ عمِّهِ عليٌّ وخادِمُه زَيدٌ وصاحِبُه أبو بكرٍ . وحقّاً إنَّ قلوبَهمْ ليِّنةٌ طيِّبةٌ اسْتساغَتْ رِسالةَ محمَّدٍ، وقَبِلَتْها دونَ جِدالٍ ولا خِصامٍ .. وحقّاً إنّهُ لَنجاحٌ لرسولِ اللهِ وكَسْبٌ طيِّبٌ مِنْ ذَوي القلوبِ الطَّيِّبةِ ، ولٰكنَّ نجاحاً أكبرَ سيتحقَّقُ إنْ آمَنَ ذَوُو القُلوبِ القاسِيةِ .. إنَّهُ لَمْ يُؤمِنْ حتى الآنَ إلا عَددٌ قليلٌ ، وبقِيَ الكثيرُ الصَّعبُ .

والصُّعوبةُ لا بُدَّ مِنها على دَربِ الدّاعيةِ الجديدِ ، والإسلامُ بِحاجةٍ إلى إيمانِ قُريشٍ على الأَقلِّ ، حتّى تَدينَ لَها العَربُ ، ويَدخُلوا فيما دخَلَتْ فيه سيِّدةُ القَبائلِ العربيَّةِ ، ولكنْ هَيهاتَ .. فأيُّ بابٍ سوف يُفتَحُ في هذهِ القُلوبِ لِيَدخلَ الإيمانُ إليها .. ؟

عَلَيْنا دَعْوَةُ الجميعِ

وتتالَت الآراءُ على ذِهنِ محمّدٍ ﷺ ، ففكَّرَ في الأمرِ مِنْ جديدٍ ، وتَردَّدَتْ على لسانِهِ آياتٌ نَزلَ بها جبريلُ في مرّاتِه الأُولى عندما أمَرَ النَّبيَّ قائلاً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ . إنَّه إنذارٌ يا أحبّتي لَمْ

تتخصَّصْ فيه دَعوةُ قَريبٍ أو حبيبٍ ، إنَّه إنذارٌ عامٌّ، يَدْعو الجميعَ إلى ما يفيدُ الجميعَ ، دونَ أَنْ يخصَّ محمّدٌ في دعوتِهِ مَنْ يعرفُهم مِنَ الأَصدقاءِ والأَقاربِ . لا تَمييزَ ولا تَفريقَ ، ولا بُدَّ لمحمّدٍ ﷺ الآنَ أَنْ يَستعدَّ لِدعوةِ السّادةِ المُستكبرينَ مِنْ مُجتمعِهِ ، ودعوةِ العبيدِ المُستضعَفينَ أيضاً ، ولا بُدَّ لمحمّدٍ ﷺ أيضاً أَنْ يَعرِضَ رسالتَهُ على الأَغنياءِ والفقراءِ ، والكبارِ والصِّغارِ ، والرِّجالِ والنِّساءِ ، والأقاربِ ومَنْ سِواهُم دُونَ اسْتثناءٍ في مُجتمعِ مكَّةَ ، وكَمْ هو أَمرٌ جميلٌ على نَفْسِ النَّبيِّ الكريمِ أَنْ يَرى الإِيمانَ يَزدادُ ، وَعددَ المؤمنينَ يزيدُ ، فيدخُلَ في الإِسلامِ أمثالُ خديجةَ وأبي بكرٍ وعليٍّ وزيدِ بنِ حارثةَ .

مَبادئُ سامِيَةٌ

لَقدْ جاءَ الوَحيُ مِنَ السَّماءِ ، ونَزَلَ في حِراءٍ على محمَّدٍ لِكَيْ يَغرِسَ محمّدٌ في نفوسِ الآخرينَ ما تحبُّونَه يا أَحبَّتي مِنَ المبادئِ السّاميةِ ، ولَوْ سَأَلْتُكم: ما مَعنى كلمةِ (سامِيَة) ؟ لَعَرفتُم دُونَ شَكٍّ أَنَّها تعني العلوَّ في القيمةِ والجودَةَ في القَدْرِ . وكَيْفَ لا تكونُ المبادئُ الإِسلاميَّةُ ساميةً وهيَ مِنْ عِندِ اللهِ ؟ وهلْ هُناكَ أَسْمى مِنْ دَعوةٍ يحبُّها اللهُ وَيرْضاها لعبادِهِ أجمعينَ !؟ طبعاً .. لا .. فاللهُ يَتَّصفُ بالسُّموِّ، وقرآنُهُ ممجّدٌ بسموِّهِ مِنْ فوقِ سَبعِ سماواتٍ ، وقدْ تَطلبونَ منّي أَنْ أَعرِضَ لكم أُنموذجاً مِنْ هذهِ المبادئِ السّاميةِ الَّتي فهمْتُمْ مَعناها الجميلَ، ولَنْ

أتركَكم دونَ مِثالٍ ، بَلْ سأجيبُكمْ إلى طلبِكمْ بعدَ أَنْ تُعاهِدوني على أَنَّكمْ ستُؤْمنون عَنْ فَهمٍ بهذهِ المبادِئِ السّاميةِ (أَيْ بالقرآنِ ، وأَركانِ الإِسلامِ ، ورسالةِ محمَّدٍ ﷺ) ، وأَنَّكمْ ستقبَلونَ هذا الشَّرطَ عَنْ رَحابةِ صَدرٍ ، أَليسَ كذٰلكَ ؟.

أكرَمُكُمْ أَتْقاكُمْ

إنَّ رسالةَ محمَّدٍ يا إخْوتي ، لَتدلُّنا على مبدأ هامٍّ جدّاً هو مبْدأُ المساواةِ. هذا المثالُ الجميلُ يَطلبُ منّا أَنْ نَنظُرَ إلى أَفرادِ البشريَّةِ والإنسانيَّةِ دونَ تفريقٍ بينَ طَبقةٍ وطَبقةٍ، فلا يَصحُّ مَثلاً أَنْ نُفضِّلَ السيِّدَ على العَبدِ ، أوِ الغنيَّ على الفقيرِ .. فالكُلُّ سَواسيةٌ يتساوونَ ، ولا يُفضَّلُ أحدُهم على الآخرِ إلا بالتَّقوى ، يَجمعُ بينهم فكرُهم ، فإنْ آمنوا فهُم إخوةٌ كما يقولُ ربُّنا : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وإنْ فَعلَ أحدُهم شيئاً حسَناً فهو الكريمُ المكرَّمُ ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .

أرجُو أَنْ يُعجبَكمُ المثالُ ، ولكنِ اعلَموا أيُّها الأحبَّةُ أَنَّ هذا المبدأَ سيكونُ بلا شكٍّ ضربةً كبيرةً وصدمةً عنيفةً لكُلِّ السّادةِ مِنْ قُريشٍ ، حَيثُ سَيبدأُ محمَّدٌ دَعوتَهم قبْلَ غيرِهم مِنَ العربِ في الجزيرةِ الواسعةِ المترامِيةِ الأطرافِ .

الطِّيبُ يَنْتَشِرُ

وَلا أكتمكُمْ سِرّاً، فَليسَ هذا المبدأُ وَحدَهُ هو الّذي سيَصدِمُ الكفّارَ، بَلْ إنَّ جميعَ مبادئِ الإسلام ستَصدِمُ كلَّ كافرٍ ومُشركٍ لا يَستعملُ عَقلَه، ولا يَستَخدمُ فِكرَه، إنَّ ما تخافُ منهُ قُريشٌ أيُّها الأعزّاءُ أنْ يُفاتِحَها محمّدٌ ﷺ بِهذِه الأُمورِ ..

وَكانَ محمّدٌ يُحذِّرُ أصحابَهُ مِنَ العَجلَةِ في غيْرِ محلِّها، مخافَةَ أنْ تَتسرَّبَ الأنباءُ في زيادةِ عددِ المؤمنينَ إلى قُريشٍ، فَتقضيَ على العددِ القليلِ مِنْ أنصارِ الدّعوةِ. لكنَّ أنباءَ الدَّعوةِ مَعَ ذلكَ قدْ تسرَّبَتْ إلى قريشٍ، وبَدأتِ المراقبَةُ على الرّسولِ وأتباعِه، وكانَ مَثلُهُمْ كمَثلِ العِطرِ والطِّيبِ، لا بُدَّ وأنْ تَنتشرَ رائحتُهُ هنا وهناكَ، وكالكلمةِ الطَّيِّبةِ ذاتِ الأصلِ الثّابتِ في الأرضِ لا بُدَّ وأنْ تَنتشرَ فُروعُها إلى السَّماءِ.

نَدْوةُ الأرْقَمِ

وقَدْ حَرصَ الرّسولُ الكريمُ ﷺ على أنْ يتجنَّبَ مواقفَ الصِّراعِ العنيفِ مَع قُريشٍ، وأنْ يجمعَ شَملَ مَنْ آمنَ بهِ، فَها هُو ذا يَجمعُهُمْ في دارِ الأرقَمِ بْنِ الأرْقَمِ، وَصاحِبُها الأرقمُ رَجلٌ آمنَ مُحْدثاً، وفَتحَ بيتَه للدَّعوةِ يَقرأُ الرّسولُ فيها القرآنَ، ويعلِّمُ تَعاليمَ الدِّينِ، وبِذلكَ كانَتْ هذِه الدّارُ أوّلَ مَدرسةٍ للتّعليمِ والتّهذيبِ، ونَدوةً للتّعارُفِ والتّفاهمِ والشُّورى، ومكاناً للّقاءِ والمحبّةِ والإخاءِ، ومَسجِداً للعبادةِ والصَّلاحِ،

وَلهذهِ الدّارِ فَضلٌ كبيرٌ في زيادةِ عَددِ المُسلمينَ شَيْئاً فَشيئاً، حتّى بَلَغَ الأرْبعينَ تقريباً، وفيهم الفقراءُ والمستضعفونَ، كما نجدُ العديدَ مِنَ الأشرافِ والسّادةِ، لكنَّهم كُلُّهم كانوا بُناةً وَدعائمَ في الصَّرحِ الشّامخِ بقيادَةِ المعلِّمِ العظيمِ محمَّدٍ الأمينِ رَسولِ ربِّ العالمينَ. صلىٰ اللهُ عليه وعلى آلِه وصحبِه أجمعينَ. اللّهمَّ ارضَ عَنْ كُلِّ مَنْ تَبعَه مِنَ المؤمنينَ ..

دَعْوَةُ العَشيرَةِ

وتَعلمونَ الآنَ يا أحبّائي أنَّ مِنْ قريشٍ مَنْ هُمْ أقرباءُ لمحمَّدٍ ﷺ، وَهٰؤلاءِ مِنَ الواجبِ دَعوتُهم قَبْلَ غيرِهم، لأنَّ على الإنسانِ أنْ يُصلحَ نَفسَه ثُمَّ أَهلَه وأقاربَه، وأخيراً ينتقِلُ إلى القوْمِ بأجمعهم، واللهُ سُبحانَه وتَعالى قَدْ عَلَّمَ الرَّسولَ هذا الأمرَ، فها هو ذا جبريلُ ينزلُ ليقولَ لمحمّدٍ ﷺ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ أي: لا تنسَ يا رسولَ اللهِ أنْ تُبلِّغَ رسالَتكَ إلى أقربائِكَ، فإنّهم قدْ سرى فيهمُ الكُفرُ مِثلَ بقيّةِ أفرادِ قُريشٍ، وبينَهمُ السّادةُ والأشرافُ أمثالُ أبي طالبٍ العمِّ الحنونِ..

ولَنْ يَتوانى محمّدٌ ﷺ عَنِ التّنفيذِ الفوريِّ. وسَننظُرُ الآنَ ماذا سيفعلُه القائدُ العظيمُ خاتَمُ الأنبياءِ والمرسلينَ لكيْ يجلبَ أهلَه وعَشيرتَه وأقاربَه .. وسنَرى فيما إذا أرادَ القومُ أنْ يَستجيبوا لهُ، أوْ يَصدُّوه عَنْ دَعوتِه؟.

طَعامٌ وكَلامٌ

صَنَعَ لَهُمُ الرسولُ ﷺ طَعاماً ، ودَعـاهُمْ إليهِ فَحضروا ، فرأَوْا مِنْ كَرم الرَّسولِ الكثيرَ ، وهٰذا العملُ لا بُدَّ وأنَّه جميلٌ لجَلْبِ الآخـرينَ ، وإنَّ محمّداً ﷺ يَعلمُ أنَّ في أقربائِه مَنْ هُمْ ذَوُو قلوبٍ طَيِّبَةٍ ، ومَنْ هم أشَدُّ عَداوةً مِـنَ الشّيطانِ لِما سيَعرضُه عليهم . والطَّعـامُ قَدْ يُسهِّـلُ انفتاحَ الحديثِ ، وبـالتّالي انفتـاحَ القُلوبِ .. وبَعـدَ الانتهاءِ مِـنَ الطّعام حَمدَ محمّدٌ اللهَ ، ثـم قـالَ لهمُ : (أَدْعـو إلى كلمتيْنِ خَفيفَتَيْنِ على اللِّسـانِ : شهـادَةَ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ ، وأنّي رَسولُ اللهِ . إنّي جِئتُكـم بِخيرِ الـدُّنيا والآخِرةِ، فَمَنْ يُجيبُني إلى هٰذا الأمرِ ؟) .

وسـادَ الجوَّ صَمتٌ ، ثـم تحدَّثَ أبـو طالـبٍ قائلاً لِيَحسِمَ الأمرَ : (امضِ لما أُمِرتَ به ، فَـو اللهِ لا أزالُ أحوطُكَ وأحميكَ ، غيرَ أنَّ نفسيْ لا تطاوِعُني على فِراقِ دينِ عبدِ المُطَّلبِ) إنَّه اعتذارٌ ليِّنٌ ، ولم يُرِدْ محمّدٌ هٰذا منهُ .

العَمُّ أبو لَهَبٍ

وأمّا قريبٌ آخَرُ ، وعَمٌّ ثانٍ لمحمّدٍ ﷺ، اسمُه عبدُ العزّىٰ (أبو لهبٍ)، فَقد ثارتْ ثائرَتُه ، وانتَفخَت رِئتُه ، وأظْهرَ حُمقَه وجهلَهُ ، فَصاحَ كالثَّورِ الهائجِ : (لا .. لا .. إنَّ هـذا لهُوَ العـارُ ، امنعـوا محمّـداً مِـنْ أمـرِهِ ودعوتِهِ). فَقامَتِ العمَّةُ (صفيَّـةُ) ، وحاولَتْ تَهدئتَه قائلةً : (ألا يَسرُّكَ

أنْ يَخرجَ مِنْ أصلِ عبدِ المطّلبِ نبيٌّ ؟) فصاحَ بها ثائراً : (هٰـذا واللهِ الباطِـلُ والخيالُ ، ومـا نحنُ بِقادريـنَ على مَنْعِ قـريشٍ والعـربِ ضِدَّ محمّـدٍ..) فردَّ عليـهِ أبـو طالـبٍ بهدوءٍ وَحَزمٍ : (لا يا أبـا لهبٍ ، واللهِ لَنَمْنَعنَّهُ ما بَقينا أحياءً ، فهو منّا .. ودعوتُهُ حقٌّ) . ونظرَ أبو لهبٍ إلى أبي طالبٍ ، وعُيونُ مَنْ بَقيَ مِنَ الأهـلِ تنظرُ أيضاً إلى أبي طالبٍ ، وكأنَّهم يُوافقون مُعجَبينَ وهـم يقولونَ : (لَنْ نَسمعَ كلامَكَ يا أبـا لهبٍ ، ولنْ نَتخلّىٰ عنْ محمّدٍ) . وانقسمَ الأهلُ قسمينِ ... فخـرجَ أبو لهبٍ خَزيانَ مَخْذولاً .

عَداوةٌ لاهِبَةٌ

وبدأَ أبـو لهبٍ يخطِّطُ في عداوتِـه لأعلى الحدودِ وأحطِّها ، لا يُـراعي قرابتَـهُ من محمَّدٍ ولا مـن غيرِهِ ، إنَّهُ عادَى الرَّسولَ الجديدَ محمّـداً ابْنَ أخيهِ وصهـرَهُ وجارَهُ الأَدْنـى القريـبَ ، كلُّ ذلـكَ كانَ نتيجَـةَ الغضبِ والجهلِ والطَّيشِ ، والْتهبَتِ العداوةُ ، وزادَ سعيرُهـا .. في كلِّ يوم يفكِّرُ أبو لهبٍ بأذىً جديدٍ ضدَّ محمّدٍ الـرّسولِ ﷺ . وكلُّ ذلكَ أيْضاً لأنَّ أبا لهبٍ سيِّدٌ مـنْ ساداتِ قـريشٍ ، كثيرُ المالِ ، مسموعُ الكلمةِ ، شـديدُ التّعصُّبِ لدينِ قريشٍ وتقاليدِها ، لا يُحبُّ أنْ يُسيءَ إلى الأصنامِ أحدٌ.. ويَرْمي أبـو لهبٍ ابْنَ أخيهِ بالتُّهمِ والسَّفاهةِ والشَّتائمِ ، ويـدْعُو الأهْلَ منْ جـديدٍ إلى تأْديبِـه وحَبْسِه ، ويُلْقي بكـلامِهِ في عُنفٍ وشـدَّةٍ ، كأنَّما

يُلقي بالقذائفِ والحممِ ، ويشيرُ بيديهِ مُهدِّداً متوعِّداً ، فإذا سكَتَ فمُهُ تفجَّرَ وجهُهُ بالدَّمِ ، وجحظَتْ عيناهُ مرسلتيْنِ شرراً مُحرِقاً كاللَّهبِ ..

حَمالَةُ الحَطَبِ

ويا ليتَ الأمرَ وقفَ عندَ هٰذا الحدِّ ، فقدْ برزَتْ إلى السّاحةِ زوجَةُ أبي لهبٍ ، واسْمُها أمُّ جميلٍ ، تكيدُ للرّسولِ ﷺ ، وتحملُ في صَدْرِها عليه من الضَّغنِ الكثيرَ الكثيرَ .. تسيرُ بيْنَ أفرادِ قريشٍ ، تنمُّ في كلامِها سُوءاً فلا تتحدَّثُ إلا بسوءٍ عَنْ محمّدٍ ﷺ ، ولا تنسى أنْ تضعَ في رقبتِها حَبْلاً لتحتطِبَ البغضاءَ فتُشعلَ بها ناراً تحرقُ المحبَّةَ والمودَّةَ بينَ الأحْبابِ .. إذا رأتِ الرّسُولَ راجعاً مِنْ بعيدٍ وضعَتْ لهُ الشّوكَ والقذَرَ في طريقِهِ ، ليتأذّى ويتعثَّرَ ،لقد نسيَتْ أنَّ ولدَيْها قدْ تزوَّجا ابنتَي رسولِ اللهِ ﷺ ، ونسيَتْ مع زوجِها أنَّ رسولَ اللهِ هُوَ ابنٌ لعبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ، لذٰلكَ نَسِيَهُما اللهُ مِنْ رحمتهِ ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ يا لَهُ مِنْ إنذارٍ حادٍّ عنيفٍ لهما .

القَوْمُ .. كُلُّ القَوْمِ

وبما أنَّ الأمْرَ قدْ سرى ، وأخذَ ينتشرُ عَنْ طريقِ عداوةِ العمِّ وامرأتِهِ ، فلا مَخرَجَ أمامَ محمّدٍ ﷺ الآنَ أنْ يعرضَ دينَهُ بوضوحٍ ليَمسَحَ ما صوَّرتْهُ أمُّ جميلٍ وزوجُها مِنْ تشويهاتِ رسالةِ الإسْلامِ ..

لَقدْ تأكَّدَ محمّدٌ ﷺ أنَّ الجهرَ أمامَ الجميعِ مطلوبٌ الآنَ ، فقَدْ نضجَتِ الفكرَةُ في قلبِهِ ورأسِهِ وعلى لسانِهِ .. وآنَ لأمْرِ اللهِ أنْ ينزلَ : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) ﴾ . فلَمْ يلبثْ أنْ تهيَّأَ ، وذهَبَ إلى جبلِ الصَّفا القريبِ مِنْ بيتِهِ ، وصَعدَ عليهِ ، وجَعَلَ يصيحُ بالقَوْمِ يدْعُوهم إليْهِ ، وكرَّرَ الصِّياحَ والنِّداءَ مرّاتٍ مرّاتٍ ، حتّى تدفَّقَ أفْرادُ قريْشٍ وأهلُ مكَّةَ من حَوْلِ الجبلِ ، واقتربوا مِنْ مصدرِ الصَّوتِ واجتمعوا حولَ محمّدٍ ﷺ ، ليعْلموا ما الخبرُ وما الأمْرُ ؟ فلقدْ أدهشَهُم محمّدٌ بندائِهِ ، فلم يتعوَّدوا مِنْهُ هٰذا النِّداءَ مِنْ قبلُ .

لا إلٰهَ إلا اللهُ

قالَ لهمُ الرّسولُ وكلُّهُ شوْقٌ لإيمانِهم : (أرأيتُم لوْ أخبرتُكم أنَّ خيْلاً وراءَ هٰذا الجبلِ تُريدُ أنْ تُغيرَ عليكم ، أكُنتُم مصدِّقِيَّ ؟) قالوا : نعمْ ما عرفناكَ إلا صادِقاً أميناً .

قالَ : (فإنِّي نذيرٌ لكُم بَيْنَ يدَيْ عَذابٍ شَديدٍ ، يا بني عَبدِ منافٍ ، يا بَني زهرةَ ، يا بني تَيْم ، يا بَني مخزوم ، يا بني أَسدٍ .. إنَّ اللهَ أمرَني أنْ أنذرَ عشيرتي الأقربينَ وإنِّي لا أملِكُ لكُمْ مِنَ الدُّنيا منفعَةً ، ولا مِنَ الآخِرةِ نَصيباً إلاّ أنْ تقُولوا : ﴿ لا إلٰهَ إلاّ اللهُ ﴾ .

يا معْشرَ قُريْشٍ أنقذوا أنفسكُمْ منَ النّارِ ، فإنّي لا أغْني عنكُمْ منَ اللهِ شيْئاً ..) .

وسَمِعَ القومُ مقالَتَه ، وكأنَّ كلماتِهِ قد انحصرتْ في قولِهِ « لا إلهَ إلاّ الله » ، وفَهِمَ القوْمُ منْهُ أنّهُ يدعوهُم إلى توحيدِ اللهِ ، وعدمِ الإشراكِ باللهِ.. فإذا ما حققوا لا إلهَ إلاّ الله ، أنْقَذوا أنفُسَهم مِنَ العَذاب .

مَوْقِفٌ صَحيحٌ

وكأنَّ محمَّداً ﷺ لم يوجِّهِ الكلامَ إلاّ لأبي لهبٍ الّذي ارْتجَفَ وصاحَ هائجاً : (تبّاً لكَ ، ألِهذا جمعْتَنا ؟) . . ولكنَّ قوْلَ محمّدٍ ﷺ في القومِ لم يَذْهَبْ سُدى . . فكلامُهُ صَحيحٌ ، وموقفُهُ صحيحٌ ، وشاعَ حديثُ الدَّعوةِ في مكَّةَ بشكلٍ واضحٍ ، فلَمْ يبْقَ مجالٌ لتشويهاتِ أُمِّ جميلٍ وأبي لهبٍ ، وبَدَأَ النّاسُ يتحدَّثونَ عَنْ صيْحةِ محمّدٍ في جبَلِ الصَّفا ، وأَخذوا يَتساءلون فيما بَيْنَهم : ما هٰذا الّذي يَدْعو إليه محمّدٌ ؟ إنّهُ صادقٌ . . إنّه أمينٌ . . ما عَهِدْنا عليهِ كَذِباً أوْ خيانَةً . .

وأمامَ موقِفِ محمّدٍ الصَّحيحِ ، وقَفَ النّاسُ في مكَّةَ ثلاثةَ مواقِفَ :

١ ـ فَريقٌ عادى محمّداً ، والإسلامَ . . ! !

٢ ـ وفريقٌ أحبَّ الدَّعوةَ وسالَمها ، ولكنه بقيَ على دينِه .

٣ ـ وفريقٌ ثالثٌ : شَرَحَ اللهُ صدرَهُ للإسلامِ ، فأسْلَمَ ودخَلَ في السَّعادةِ العظيمةِ . .

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّة
١٦

لا تساهُلَ في الحقّ

صَيْحَةُ الصَّفا

حدَّثْتُكُمْ يا أحبّائي في الصَّفحاتِ السّابقةِ عَنْ صَيْحَةِ الصَّفا ، أتذكُرونَ مَنْ قامَ بها ؟ إنَّهُ محمَّدٌ ﷺ الَّذي أمَرَهُ اللهُ بالصَّدْعِ في الحقِّ ، ودعوَةِ المُشْركينَ كافَّةً دونَ استثناءٍ، فَقامَ بِما قامَ بِهِ منْ جَمْعٍ لقريْشٍ كُلِّها على صَعيدٍ واحدٍ ، حيثُ خطَبَ بِهِمْ طالباً منهُمُ الشَّهادَةَ بوحْدانيَّةِ اللهِ وصِدْقِ نُبوَّتِهِ . والآنَ ، أُريدُ أنْ أزيدَكُم عَنْ هٰذِهِ الصَّيْحَةِ معرِفَةً ، فقدْ كانَ لهذا النِّداءِ مِنَ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ أثرٌ كبيرٌ في الجهرِ بالدَّعوةِ ، حَيْثُ علَّمَ النّاسَ ، كَيْفَ تكونُ الدَّعوَةُ حقّاً ، فَلا جَهْرَ بالتَّهامُسِ ، ولا عُلُوَّ لِصَوْتِ الإسلامِ إنْ بَقيَ مَحْصوراً في عددٍ قليلٍ ضِمْنَ جدرانِ دارِ الأرْقَمِ . .

إنَّ الصَّيْحَةَ يا أحِبَّتي قدْ فَسَحَتِ المجالَ واسعاً لِكَيْ يَفهمَ الجميعُ بصفاءٍ دَعْوَةَ الصَّفاءِ ، بَعدَ أنْ كادَتْ تَشوبُها الشَّوائبُ مِنَ الحاسِدينَ الحانِقينَ أمثالِ أبي لَهَبٍ وامرأتِهِ حمّالةِ الحطَبِ .

فَرْقٌ كبيرٌ

إذاً لقدْ عَرفَ الجميعُ ما يُريدُهُ محمَّدٌ ﷺ ، وأخَذَ كُلُّ واحدٍ يَسأَلُ الآخَرَ أكثرَ وأكثرَ .. عَنْ هٰذهِ الدَّعوةِ ، وَعنِ النَّبأِ العظيمِ الَّذي جاءَ بهِ محمَّدٌ ، وتأكَّدَ الكُلُّ أنَّ الفرقَ واضِحٌ وكبيرٌ بيْنَ حَياةِ الفهمِ والتَّعقُّلِ

وحياةِ الجهلِ والعماوَةِ .

إنَّ الإسلامَ لَهُوَ بابٌ جديدٌ . . ونظْرةٌ جَديدةٌ ، ومستوىً جديدٌ مِنَ الفَهْمِ لِلكوْنِ والحياةِ ، وَالحكمةِ يُريدُها اللهُ ، صارَ حديثُ النبأِ العظيمِ حديثَ الغادي والرّائحِ . . في مكَّةَ ، فَترى الجميعَ في المجالسِ الخاصَّةِ والعامَّةِ يَستفْسِرُ عَنْهُ يوماً بَعدَ يومٍ . .

ولهذا كلِّهِ ، أفاقَ أهلُ مكَّةَ كلُّهمْ على أنَّ الفرقَ حقاً كبيرٌ وكبيرٌ ، فأينَ حياتُهُمْ مِنْ مَبادئِ الإسلامِ القويمةِ وتَعاليمهِ العظيمةِ ؟ وأينَ ما يَعيشونَ بِهِ مِنْ يأسٍ قاتِلٍ أمامَ ذٰلكَ النُّورِ مِنَ الأمَلِ الَّذي يَشعُّ مِنْ فمِ الرَّسولِ محمَّدٍ ابْنِ قريشٍ وابْنِ مكَّةَ ﷺ ؟

أمَلٌ وإقبالٌ

ولقَدْ فَهِمَ الرَّسولُ ﷺ أنَّ أكثرَهُمْ لَنْ يَقبَلوا بما أرادَهُ مِنْهُم ، فَقليلٌ هُمُ الَّذينَ يَنظرونَ لِصَلاحِ المجتمعِ دونَ أنْ يُفضِّلوا مَصالحَهُمُ الخاصَّةَ على نُموِّ مُجتمعِهِمْ وتطوُّرِهِ . وَها هُمْ أولاءِ المستضعَفونَ مِنْ عَبيدِ وإماءِ مكَّةَ وَمِنْ فُقَرائِها ومَساكينِها وأتْباعِ السّادةِ ومَواليهِم ، يستمعونَ بأذُنٍ واعيةٍ إلى أنْباءِ الدَّعْوةِ ، فيَرَوْنَ ما لَمْ يَرَهُ غيرُهُمْ ، أوْ ما تَعامى الآخَرونَ عَنْ رُؤيتِهِ . إنَّهُمْ يأتونَ إلى محمّدٍ ﷺ فيلْمحونَ عِنْدَهُ رُوحَ الأمَلِ تَهبُّ عليهِم ، ويَتَسابقونَ أمامَهُ إلى حياةٍ أفضَلَ تُخرجُهمْ مِنَ الظُّلماتِ إلى

النُّورِ . . ومِنَ الإهمالِ إلى الرِّعايةِ . . ومِنْ دَرْكٍ مَهينٍ كانوا يَعيشونَهُ تَحْتَ أَقدامِ أَسيادِهِم . . إلى عيشةِ العِزِّ والكرامةِ الغاليةِ ولو مَعَ الفَقْرِ والمَسكنةِ . لقَدْ كانُوا يا أَحِبَّتي يَلمسُونَ بحقٍّ أَنَّ الإسْلامَ دِينُ عدالةٍ . . فيُقبلونَ عليهِ فاهمِينَ طائعِينَ مُسلمِينَ ، ونِعْمَ ما فَعَلوهُ .

استِهانَةُ قُرَيْشٍ

وأمّا القِسمُ الأكبرُ ، فَهوَ قُرَيشٌ في عُنفِ كِبريائِها ، وعِظَمِ ظُلمِها ، واجْتنابِها لِلحقِّ . ذٰلكَ القِسْمُ أيُّها الإخوةُ النّاشئونَ لَمْ يُعطِ بادئَ الأمْرِ أَهميَّةً كُبرى لِدعوةِ محمّدٍ مُتَظاهِراً أَنَّ الأَمْرَ لا يَستحِقُّ أَنْ يُؤبَهَ لهُ ، فليسَ في دَعوةِ رسولٍ كمحمّدٍ خطرٌ على سِيادَةِ قُريشٍ وعقيدتِها حَسَبَ زعْمِهِمْ . . ويَقولونَ فيما بَينَهم : (لا علاقةَ لنا برجلٍ يُريدُ أن يَختارَ لِنفسِهِ خطَّةً في الحياةِ مع نفرٍ من النّاسِ قليلٍ) .

هذا هوَ ظَنُّهم ، وهذا ما أَخذوا حقّاً يُجْبِرونَ عُقولَهُمْ على فَهمِهِ ويُقْنِعونَ ضمائرَهُمْ على قَبولِه . ولٰكنْ هَيْهاتَ . . فرسالةُ الإسْلامِ ستُجبِرُهُمْ على إدْراكِ خَطرِها عليهِمْ ، بَلْ ستُجبِرُهم على أنْ يَتركوا تظاهُرَهم بالاستهانةِ ، وكلُّ الذين لا يريدون الحقَّ سَينقلِبونَ إلى أَلَدِّ أعداءِ الحقِّ ، يَتصدُّونَ بالبَغيِ والعُدوانِ لكلِّ كَلِمةٍ تصدرُ عنْ محمّدٍ وأتباعِه القَليلين . .

واحِدٌ مِنْ ثَلاثةٍ

وها هُمْ أولاءِ فِعلاً لا يَتحمَّلونَ ما أَخَذَ يَسْري حولَهُم مِنْ نورٍ وشُعاعٍ . . كيفَ سَيبدَؤونَ حَربَهم ؟ هل يُسمُّونَ هذا خَطَراً الآنَ ؟ ماذا يَقولونَ إذا حَدَّثتهم أنفسُهُمْ بِذٰلكَ ؟ ألا يَكفيهم كَذِباً ونفاقاً فيما بَيْنَهُم ؟ .

حَسَناً . . سيُجرِّبونَ قَبْلَ الإحْساسِ بالخطرِ أَنْ يَتَّهموا محمَّداً بأَنَّهُ واحدٌ مِنْ ثَلاثةٍ . . فهوَ إمّا كاهِنٌ كالكهّانِ الّذينَ عَرفوهم في جاهليَّتِهم ، يَتوهَّمُ الحقَّ توهُّماً كما يُصوِّرُهُ لهُ الجِنُّ ، ثم يَصوغُهُ كلاماً أجوفَ مُسجَّعاً لهُ رَنينٌ وطَنينٌ . . وإمّا شاعرٌ يَسمحُ لخيالِه أَنْ يَهيمَ ويَضلَّ فيَسحرَ النّاسَ بحلْوِ لِسانِه . . وإمّا مجنونٌ يَضطربُ عقلُهُ ويَعيشُ في وَحشةٍ حتّى يأْتيَهُ الموتُ . أرأيتُم يا أحبّتي ، يتّهمونَهُ بكلِّ هٰذا بَعدَ أَنْ عَرفوهُ في شَبابِه عاقلاً أميناً مُتَّزِناً صَحيحَ العقلِ والجِسْمِ ، فهلْ بَعدَ هذا يا تُرى سيَكتفُونَ ؟ أَمْ أَنَّ هناكَ الكثيرَ مِنَ العداوةِ بَعْدُ ؟ .

إِحْساسٌ بالخَطَرِ

وزادَ مِنَ الأَمْرِ أَنَّهُمْ بكلامِهم عن محمَّدٍ ﷺ قدْ جعلُوا النّاسَ تزدادُ استِفساراً عنِ الدَّعوةِ فَدَخَلَ بعضُ السّادةِ في الدِّينِ الجديدِ . وبهذا فَتحَتْ قُرَيشٌ على نَفسِها باباً لَنْ يُغْلَقَ ، فاحْتارَتْ في أَمرِها ، وفكَّرَتْ في أَذىً جديدٍ ضِدَّ محمّدٍ فقدْ أحسُّوا بالخطرِ حقيقةً ، أَيْ إنَّهم تَركُوا

التَّظاهُرَ السّابقَ وبَدؤُوا يُعطُونَ الدَّعوةَ أهميَّةً ومكانَةً ، وازدادَ إحساسُهمْ يوماً بَعْدَ يومٍ ، فمحمَّدٌ لَمْ يتركْهُم وشأْنَهم ، بَلْ أَخَذَ معَ مَنْ حولَهُ مِنَ النَّفرِ المُتزايدِ يَعيبُ على قريْشٍ عبادَتَهُم للأصنامِ ، ويُسفِّهُ أحلامَهمْ ، وما خلَّفَهُ لَهم آباؤُهُم مِنَ الأفكارِ والعقائِدِ ، ويتوعَّدُهم بالعذابِ في الدُّنيا والآخرةِ . . وبهذا اضطَرمتْ نارُ العداوةِ ، وتَفاقَمَ الخطَرُ ، وتعاظَمَ الضَّررُ ، وازْدادَ عَددُ المؤمنينَ ، وأَصبحَ الكُفّارُ في قُريشٍ يُردِّدون سُؤالاً واحداً : (الخَطرُ هوَ محمَّدٌ فكيفَ نَقْضي عَليْه ؟) .

حَماسةٌ وحِكْمةٌ

وانقسَمَ الرَّأيُ بينَ مَعشرِ قُريشٍ ، بَينَ الشَّبابِ والشُّيوخِ ، فأمّا الشَّبابُ والفِتيانُ فَحَماستُهم قدْ حتَّمَتْ عليهم أسلوبَ العُنفِ ، فرأوا أنْ يَقطعُوا الدَّعوةَ مِنْ أساسِها ، ويقتلُوا محمداً ، فيتخلَّصُوا مِنَ الخَطرِ وتعاظُمِ ضَررِه ، وأمّا الشُّيوخُ والسّادةُ الكبارُ ، فقدْ قضتْ عليهم حِكمتُهم أنْ يُجرِّبوا بابَ الأناةِ والحِلمِ ، وألّا يتعرَّضُوا لمحمّدٍ وأصْحابِه بِسُوءٍ قَبلَ أنْ يَطلبُوا مِنهُ المفاوَضةَ ويُشاوِروهُ في أمرِه فقدْ يَرجِعُ إلى رُشدِه حسْبَ زَعمِهم ، ويَتركُ دينَ الإسلامِ . .

وأوشَكَ الفريقانِ من الشَّبابِ والشُّيوخِ أنْ يتخاصَما ، وتغلَّبَتْ في النِّهايةِ حِكمةُ الشُّيوخِ على حَماسةِ الشَّبابِ ، ووافَقَ الجميعُ على أنْ يُقنِعوا محمّداً بالحُسنى ، وها هُمْ أولاءِ يَنتخِبونَ نَفراً مِنْ بَينِهمْ يُوفِدونَهم

للاجتماعِ بمحمَّدٍ حتّى يَسمعَ مِنهُم ويَسْمعوا مِنْه ، ويحاوِرَهُمْ ويُحاوِروهُ . .

لا أَعبُدُ ما تَعْبُدُونَ

ودَخلَ الوفْدُ على محمَّدٍ ﷺ فاسْتقبلَهم الرَّسولُ بِبشاشَةٍ ، وفَرِحَ بِقدومِهم ظانّاً أنَّهم سيُؤمِنون بِرسالتِه ، وبَدأَ النِّقاشُ ، وعَرضُوا على محمَّدٍ حَلاً يَروْنَه وَسَطاً : (أنْ يَعبُدَ آلهتَهم سَنةً ، ويَعْبدوا إلٰهَهُ سَنةً ، ثمَّ يَعودونَ لِعبادةِ الأصنامِ معاً ، وهٰكذا . . سَنةٌ مع الأصنامِ ، وسَنةٌ مع الله . .) ! ! ؟ إنَّهُ حَلٌّ لا يقبلُه ذو عَقلٍ سليمٍ ، فكيفَ يَعبدُ العاقلُ ربَّه اليومَ ، ثمَّ يَكفرُ بِهِ غداً ؟ ويَحمرُّ وجْهُ الرَّسولِ ﷺ ، ويَغضبُ مِنْ هذا الرَّأيِ الّذي لا يُسمَعُ ولا يُهضَمُ ، ويَنزِلُ جبريلُ على الفورِ لِكي يؤيِّدَ موقفَ الرَّسولِ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ (١) لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٣) وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ (٦) ﴾

ألا تَروْن يا أحبَّتي أنَّهُ موقِفٌ صحيحٌ ؟ . . ونحنُ أيضاً لا نَقبلُ أن نُغيِّرَ دِينَنا ، وسَنبْقى عَبيداً للهِ وَحْدَهُ . .

إلى أَبي طالِبٍ

وحاولَ الوفدُ أنْ يَطرحوا الأَمرَ بصورةٍ أُخرى ، لٰكنَّها أشدُّ حُمقاً مِنَ الأُولى ، يُريدونَ الآنَ أنْ يأخُذوا محمَّداً بِعاطفَةِ الآباءِ والتَّقاليدِ ، وبدؤوا

يُذكِّرونَه بأنَّ دِينَ الأجدادِ والقُدماءِ لا يَترُكُهُ عاقلٌ مثلُ محمَّدٍ، ولٰكنْ أنَّى للرّسولِ أنْ يَستجيبَ لهُم، لقدْ بقيَ مُصمِّماً على مَوقفِهِ الصّلبِ ما دامَ يؤمِنُ أنَّهُ الحقُّ ولا بَديلَ عَنْ (لا إلهَ إلاّ الله) . ولمّا رأى الوَفدُ أنَّ محمّداً لا يَلينُ، ولا يُرضِيهم في شيءٍ ممّا قالَهُ عنْ آلهتِهم وآبائِهم، لمْ يَجِدُوا بُدّاً مِنْ أنْ يَعرضوا الأمرَ على عمِّهِ أبي طالبٍ . فإلى أبي طالبٍ .. هٰكذا قرّروا .. حتّى يَجِدُوا مِنْ أمرِهِمْ مَخرَجاً، ويَضعُوا حدّاً بَينَهم وبيْنَ هٰذا الرّسولِ .

مَنْ سَيَذهبُ إلى العمِّ ؟ إنَّهمْ عددٌ مِنْ أشرافِ قُريشٍ : (عُتبةُ وشَيْبَةُ، وأبو سُفيانَ، وأبو جهلِ بنُ هشام، والوليدُ بنُ المغيرَةِ) ، فهلْ سَينجَحونَ يا تُرى في مَهمَّتِهم، ويَصِلُونَ إلى غايتِهم ؟

لَنْ نَصْبِرَ أكثَرَ ! !

ووَصلَ أشرافُ القَومِ إلى أبي طالبٍ، وهُمْ غاضِبونَ ثائرونَ هائجونَ، وقالُوا دونَ تأخُرٍ : (يا أبا طالبٍ، إنَّ ابنَ أخيكَ قدْ سَبَّ آلهتَنا، وعابَ دينَنا، وسفَّهَ أحلامنا، وضلَّلَ آباءَنا وأبناءَنا، فخَلِّصْنا مِنْ أمرِه، أو اترُكْه لنا، نَتصرَّفْ وشأْننا معهُ) ، ثُمَّ أضافوا :

(وإنَّكَ يا أبا طالبٍ، لَتعرِفُ خِلافَنا معهُ، وإنّكَ ما زلتَ على دينِنا، ولَنْ نَصبِرَ على ابنِ أخيكَ بعدَ هٰذا، فقدْ طفَحَ الكَيلُ) .

ولمَسَ أبو طالبٍ نيّةَ الشّرِّ في ألسنتِهم ونظراتِهم، فاستَجلَبَهم بِقولٍ

جميلٍ ولَطيفٍ، خَفّفَ بهِ مِنْ حِدّةِ ثَورتِهم، وهوَّنَ عليهمُ الأمرَ، ممّا جعلَهُم يَنصرِفونَ عنهُ دونَ أنْ يَحسِموا القضيّةَ بَينَهُم وبيْنَ محمّدٍ ... وأبو طالبٍ لا يَدْري كيفَ سَينتهي المَطافُ بِهِ وَبِهِم معَ ابْنِ أخيهِ ؟ ! .

ما تَرى يا بْنَ أَخي ؟

وبَعدَها تكاثَرتِ العُروضُ على أبي طالبٍ، واشْتدَّ الجَدلُ بينَه وبين رِجالاتِ قُريشٍ، وتَذمَّرَ القَومُ، واجْتَمعوا على كَراهةِ أبي طالبٍ وبُغْضِهِ، وحَضَّ بعضُهم بعْضاً عليهِ، ومَشَوا إليهِ مرّاتٍ ومرّاتٍ يَطلبونَ مِنْهُ الخَلاصَ مِنْ محمّدٍ، وعَظُمَ عليهِ الأمرُ، وتذكَّرَ وصيّةَ عبد المطَّلبِ بِشأْنِ ابنِ أخيهِ، وقالَ في نَفسِه : أأُفارِقُ دِينَ القومِ، أمْ أُعادِي ابْنَ أخي ؟ وبعَثَ إلى رسولِ الله يَطلُبُه، فَحَضرَ محمدٌ ﷺ، وأخذَ يَستمعُ إلى عَمِّهِ الّذي قالَ : (يا بْنَ أخي : إنَّ قومَكَ قدْ جاؤوني فقالُوا لِي كَذا وكذا، فأبْقِ عَليَّ وعلى نفسِكَ، ولا تُحمِّلْني مِنَ الأمرِ ما لا أُطيقُ) . وصمتَ أبو طالبٍ وفي عَيْنيهِ دَمْعتانِ ساخنتانِ، وفَهِمَ الرسولُ ما يريدُهُ عمُّهُ، وأنَّ عمَّهُ رجلٌ تَصعبُ عليهِ عَداوةُ القومِ وابْنِ أخيهِ معاً فما العملُ يا تُرى ؟ .

لا تَراجُعَ يا عَمُّ

وبَكى قلبُ محمّدٍ ﷺ حُزناً على عمِّهِ المُبعِدِ عنِ الحَقِّ، واقْتربَ مِنَ القلبِ الحنونِ، وأسْمَعَه نغمةً جريئةً فيها مُواساةٌ لِعمِّهِ، وبيانٌ واضحٌ

أَنَّ أمثالَ محمّدٍ لا يُسلِّمُ إلى قريشٍ ، وأَنَّ أمثالَ أبي طالبٍ لَنْ يَتخاذَلَ عَنْ نُصرةِ ابنِ أخيهِ . .

(.. واللهِ ما أَنا بـأَقدَرَ أَنْ أَدَعَ ما بُعثْتُ بـهِ مِنْ أَنْ يُشْعِلَ أَحدُكـمْ مِنْ هٰذهِ الشَّمْسِ شُعلَةً مِنْ نارٍ) .

وهٰذا أيُّها الأحبَّةُ يعني أَنَّ رسولَ اللهِ لَنْ يَتراجعَ حتّى لَوْ ملَّكوهُ الدُّنيا والكوْنَ كُلَّه ، ثُمَّ بكى الرّسولُ ، وذَرفَ الدَّمعَ مِنْ عينيهِ ، وقامَ يُريدُ العوْدةَ ، فَناداهُ أبو طالبٍ قائلاً : (أَقبِلْ يا بنَ أَخي ، قُلْ ما أَحببتَ . فَواللهِ لَنْ أُسْلِمَكَ لِشيءٍ أَبداً) . وعندَها خَرجَ الرّسولُ مُطمئناً ، مُقتنعاً أَنَّ كلامَهَ قَدْ تَركَ في نفْسِ عمِّهِ أَثراً ، وأَيَّ أَثرٍ ! .

مُبادَلَةٌ سَخيفةٌ

وسرعانَ ما انْتَشرَ رأْيُ أبي طالبٍ في قُريْشٍ فجاءَهُ الكبارُ على عَجَلٍ ، ومعهمْ شابٌّ جميلٌ قويٌّ هو (عُمارَةُ بْنُ الوليدِ) أخو خالدِ بنِ الوليدِ وقالُوا لأبي طالبٍ :

(يا أبا طالبٍ ، هٰذا عمارَةُ بْنُ الوليدِ ، أَنْهَدُ فتىً في قريشٍ وأجمله ، فخُذْهُ وَلَداً لكَ ، وأَسْلِمْ لنا ابْنَ أخيكَ فنقتُلُه ، وإنَّما هو رجلٌ برجلٍ) ! فقالَ أبو طالبٍ غاضِباً : (واللهِ لَبِئْسَ ما تَسُومونَني ! . أَتُعطونَني ابْنكم ليَحْيى ، وأُعطيكُم ابني تَقْتُلونَه ؟ هذا واللهِ لنْ يكونَ أَبداً . .) وخرجَ

السّادةُ مَخذولينَ خائبينَ يحملونَ في أنفسِهم الحِقدَ والعداوَةَ والبَغضاءَ . . لِكلِّ بني هاشمٍ الَّذينَ ما لبِثُوا أنْ تكاتَفوا معَ المُربِّي أبي طالبٍ لحمايةِ محمَّدٍ ﷺ ، واتَّفقَ رأْيُهُمْ أنْ يَبذُلوا كلَّ غالٍ ونَفيسٍ في سبيلِ الحفاظِ على الرَّسولِ الكريمِ ، فالمسأَلةُ أَصبحَتْ عندَهُم كرامةً لبني هاشمٍ ، ولا بُدَّ أنْ تُصانَ هٰذِهِ الكرامةُ ، وتُحْمى .

إلاّ أَبا لَهَبٍ

وسَتقولونَ أيُّها الأحِبَّةُ : إنَّ أُسرَةَ محمدٍ . . فيها مَنْ آمَنَ بهِ ، ومَنْ لا يَزالُ على كُفرِهِ ، وَ حتّى الّذينَ كفروا قد وافقوا على حمايةِ محمّدٍ مِنَ الموتِ إلا واحداً يَعْرفُ أنَّ محمَّداً طاهِرٌ وصادقٌ وأَمينٌ ، ولكنْ لا يَرضى أنْ يُوافِقَه ! ! إنَّهُ ذو اللَّهَبِ أبو لهبٍ الذي خرجَ بمفردِهِ على إجماعِ الأُسرةِ والعَشيرةِ وآثَرَ أَنْ يَنحازَ إلى جانبِ العدوِّ . . عدوِّ اللهِ وعدوِّ محمَّدٍ ﷺ . . . وهٰكذا أَصبحَتْ قريْشٌ وفي جانِبِها أبو لهبٍ تكنُّ العداوَةَ ضدَّ محمّدٍ ، وفي جانبِه بنو هاشمٍ . . وأخذَتِ العداوَةُ تعملُ عملَها ، وصمَدَ الفريقُ الهاشميُّ صُمودَ الأبطالِ ، دون أنْ تَسمَحَ لَهُ كَرامَتُهُ بالتَّخلي عنْ رسولِ اللهِ مَعَ أنَّ الأقرباءَ قدْ احْتَملوا بسببِ محمّدٍ أذىً كثيراً مِنْ قريشٍ ومَنْ والاهم . . محمَّدٌ ﷺ بطلٌ . . وآلُ هاشم أبطالٌ . . ولا مُساوَمةَ معَ الأبطالِ . . .

قَصَصُ

السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

١٧

أوّل الصّابرين



لَنْ تأْخُذُوهُ

أراكُمْ يا أحبّتي الصّغارُ في هٰذِه الحلقَةِ الجديدَةِ ، لم تَنْسوا ما قالَهُ أبو طالبٍ لرسولِنا الكريم بعدَ مُفاوضةِ قريشٍ لهُ : (قُلْ ما أَحبَبْتَ ، فَواللهِ لا أُسلِمُكَ لشيءٍ أبَداً) . . وإنكُمْ لتتصوّرون كيفَ أغْرَت قريشٌ أبا طالبٍ لكيْ تُبادِلَهُ أَحَدَ شبابِ مكّةَ بابنِ أخيهِ محمّدٍ ﷺ ، فأَبى ورفَضَ، وبقِيَ عَلى عَهدِهِ لابْنِ أخيهِ رسولِنا العظيمِ ، وكلّما أتاهُ وفْدٌ منْ رِجالاتِ قُريشٍ وأشرافِها ، صدَّهمْ ، وامتَنعَ عنِ الاستجابَةِ لَهُمْ قائلاً : (لَنْ تَظْفَروا منّي بطائِلٍ ، وسأَقِفُ دُونَ ابنِ أخي كالطَّوْدِ أَحْميهِ ، وأَحوطُهُ، ولَنْ يمكنكمْ أَنْ تأخذوهُ ما دُمتُ حيّاً ، إنّنا بَنُو هاشمٍ مِنْ وَرائِه ، ننصرُهُ ونشدُّ أَزْرَه ، ونمنعُهُ منكُمْ ومنْ أذاكم) .

إنّهُ كَما أَدْرَكتم لموقفٌ صلبٌ ثابتٌ مِن رجلٍ يعرفُ أيْنَ هُوَ الحقُّ ، فيَنْصرُه ولَوْ لَمْ يُؤْمنْ بِهِ ، ومِثْلُه قليلٌ . .

شَطَطٌ مَعَ الجنونِ

وموقفُ أبي طالبٍ قَدْ أَثار ثائرةَ السّادةِ منْ قريشٍ ، فأبْعدَ عنهمُ التعقُّلَ والتفكيرَ، ودفعَهُم إلى جنونٍ يغمُرُه الشَّططُ والهوسُ في العملِ ،

يغضبونَ لأصْغَرِ آيةٍ تنزلُ على محمّدٍ ﷺ، أَوْ لأيَّةِ بادِرةِ أَملٍ في نفسِ عَبْدٍ منْ عبيدِهم تجاهَ الدّينِ الجديدِ.

كُلُّ السّادةِ الآن يفكّرون في ثَأْرٍ لردِّ أبي طالبٍ، فلَمْ يجدوا إلا بابَ الثَّورةِ والانتقامِ، إنْ لم يكُنْ مِنْ محمّدٍ، فمنْ أَتْباعِهِ الذين لا سَنَدَ لَهمْ ولا حَوْلَ . . ويشتدُّ الغيظُ يوماً بعْدَ يومٍ، بَلْ ساعةً بعْدَ ساعةٍ . .

كُلُّهمْ يعرفونَ أَنَّ رسولَ اللهِ هُوَ رَسولٌ حقّاً، ولٰكنَّ سُلْطانَهم وكبرياءَهم واقتصادَهم كُلُّ ذٰلكَ سَيَذهَبُ إنْ هُمْ تساوَوْا في العبوديّةِ لله مَعَ العبيدِ والمَوالي أَوْ مَعَ الفقراءِ والمساكينِ . .

سَنُعَذِّبُ الضُّعَفاءَ

واستقرَّ الرَّأْيُ أخيراً على أَنْ يَقومَ المستكبِرونَ الظّالمونَ في تعذيبِ الضُّعفاء الذين آمَنُوا بمحمّدٍ ﷺ مِنْ كُلِّ بيوتاتِ قريشٍ، ووافَقَتْ كلُّ عشيرةٍ على التَّخصُّصِ في المؤمنينَ مِنْها، تُعذِّبُهم تعذيباً لَيْسَ فيهِ رحمةٌ أَو هوادةٌ أَوْ تهاونٌ أَوْ شَفَقَةٌ، إنَّهُ عذابٌ يفتِنُ المؤمنَ عَنْ دينِهِ . . أَلوانٌ وأَلوانٌ مِنْ هٰذا العذابِ اخْترَعَها السّادَةُ مِنَ الكفّارِ، تدلُّ على وحْشيَّتِهم ووحشيّةِ أساليبِهِمْ وقسوتِهم بكلِّ ما كانَتْ تَغْلي بِهِ صُدورُهم مِنَ الغيْظِ والحقْدِ الشّنيعِ على الدَّعوةِ وأَتْباعِها، لقدْ جَعَلوا دَأْبَهم هُوَ مُحارَبةُ هٰؤلاءِ المساكينِ المُسْتضعفين، يضربُونَهم ويُذيقونَهم الجوعَ والعطَشَ والبأْساءَ والضَّرّاء، كُلُّ هٰذا ليخرجوهُم عَنْ دينِهم الإسلاميِّ

وعقيدةِ التَّوحيدِ، وشهادةِ أَن لا إله إلا اللهُ وأَنَّ محمّداً رسولُ اللهِ . .

بِلالٌ الحبشيُّ

وأَرْوعُ الأمثلةِ وأَوَّلُها نجدُها في عبدٍ مِنْ عبيدِ الحبَشةِ اسمُهُ بلالُ بْنُ رَباحٍ، واسْمُه يذكِّرُنا دَوْماً بنشيدِ المسلِمِ الذي يهتفُ بِهِ على المآذنِ كلَّ يومٍ خَمْسَ مرّاتٍ، فبلالُ يا أحبّتي قَدْ كانَ مُؤذِّنَ الرَّسولِ، آمَنَ في مكّةَ وهُوَ مِنْ أَوائلِ مَنْ أَحَبَّ محمّداً . . والطُّغيانُ أَبى إلا يذيقَهُ أَشَدَّ العذابِ، فها هُوَ ذا سيِّدُهُ يُلْقي بِهِ وقتَ الظَّهيرةِ على وجْهِهِ وظَهْرِهِ، ثُمَّ يأمرُ بالصَّخرةِ العظيمةِ، فتُلقى على صَدْرِهِ الشَّريفِ قائلاً: (لا تَزالُ هٰكَذا حتى تموتَ، أَو تكفُرَ بمحمّدٍ وتعبُدَ اللاتَ والعزّى)، فيصمُدُ البَطَلُ الأسودُ، ويشعُّ النورُ مِنْ لونِهِ وهُوَ يقولُ: (أَحَدٌ أَحدٌ، لَنْ أَكْفُرَ بربِّي . . لا إلٰهَ إلا اللهُ محمّدٌ رسولُ اللهِ)، ويمرُّ أبو بكرٍ مِنْ أمامِهِ ويرى السِّياطَ تلهبُ الجَسَدَ، فيقتربُ مِنْ أميّةَ بْنِ خلَفٍ (سيّدِ بلالٍ) يحاورُهُ، ثُمَّ يشتري بلالاً ويَعتقُه لوجهِ اللهِ حُرّاً . .

أَوَّلُ شَهيدٍ

ومثالٌ آخرُ . . أُسْرةُ الشُّهداءِ الثّلاثةِ، أَبٌ وأُمٌّ وابْنُهما نالُوا الشَّهادةَ في سَبيلِ اللهِ . . أحدِّثكم أَوّلاً عَنِ الأبِ (ياسِر)، اسمُهُ جميلٌ، أَلا تَرَوْنَ ذلك ؟ لقدْ آمَنَ ياسرٌ مِنَ الأيّامِ الأُولى للدّعوةِ، وآمنَتْ معَهُ زوجتُهُ على

يدِ ابْنِهما ، وكانَ ياسرٌ هٰذا مِنْ حُلَفاءِ بني مخزومٍ الذين لَمْ يَرْحَموهُ أَو يرفقوا بِـهِ ، بَلْ أَخرجوهُ إلى بطاحِ مكَّةَ حيثُ الرَّملُ والحصى والشَّمسُ اللّاهبةُ.. إنَّ عُمْرَ ياسرٍ لا يسمَحُ له بالصُّمودِ أَكْثرَ ممَّا صَمَدَ في بطولةٍ وعزمٍ وإيمانٍ ، فيقَعُ في النّهايةِ شهيداً ، ويكتُبُ بذٰلِكَ اسْمَ أَوّلِ شهيدٍ في سبيلِ هٰذا الدِّينِ . . إنَّهُ لقبٌ يَسْتحقُّـهُ ، فقد شهِدَ الإيمانَ وشَهِدَ العَذابَ ، وشَهِدَ الموْتَ ، فهُوَ أَوّلُ الشُّهداءِ ، وسنحفظُ اسمَهُ لأن اللهَ قَدْ أحبَّهُ ، وسنصْمدُ مثلَهُ لأنَّ الرّسولَ ﷺ قَدْ حثَّنا على الصَّبرِ والصُّمودِ بجرأةٍ وإيمانٍ . . رحمَكَ اللهُ يا ياسرُ ، يا سيِّدَ آلِ ياسرٍ إلى الجنَّةِ .

وأَوَّلُ شهيدةٍ

وكأنَّنا نراهُ قد فتَحَ البابَ أمامَ المسلمينَ للتَّضحيةِ والفداءِ ، فبَذْلُ النَّفسِ سيصبحُ بعدَهُ سَهْلاً على المؤمنينَ ، فياسرُ لَمْ يتراجَعْ مَعَ كبرِ سنِّهِ، وكذٰلكَ زَوْجتُه المؤمنةُ العظيمةُ (سميَّةُ) . . أحبَّتْ أن تكونَ في مرتبةِ زوْجِها ، ومِنَ الأَوائلِ ، ليستْ شهيدةً فحسبُ ، بَلِ الأُولى بينَ الشَّهيداتِ ، وإنَّها لمرتبةٌ عظيمةٌ ، فإنَّ زَوْجها قَدْ أَعْطَى للرِّجالِ مثلاً عالياً ، فهيَ لَنْ تَبخلَ في إعطاءِ هذا الدرسِ الرائعِ للنِّساءِ . .

تصوَّرُوها يا أحبَّتي ، وهي تَلْقى أشدَّ العذابِ مِنْ أَبي جهلٍ عليه لعْنَةُ اللهِ ، يطلبُ منها شَتْمَ محمّدٍ فتأبى، ويضربُها لتكفُرَ باللهِ ، فتَصْمد

صُمودَ زَوْجِها وَأَكْثَر.. وتكيلُ لأبي جهلٍ كلاماً أَغاظهُ ، فيهجُمُ أَبو جهلٍ على سُمَيَّةَ وقَد اشْتَدَّ حقدُهُ ، وطفحَ غَيْظُه ، ويطعنُها بحربةٍ في جَسَدِها ، فينزفُ الدَّمُ أَحمَرَ طاهِراً يُسطِّرُ شهادةً زكيَّةً ، لأوَّلِ شهيدةٍ في الإِسلامِ . .

وابْنُهما عمّارٌ

والابنُ أيضاً يا أحبابي شدَّدُوا عليه العذابَ ، باللَّهبِ تارَةً ، وبوضعِ الجمرِ الأحمرِ على صَدْرِهِ تارَةً ، وبالإغراقِ في الماءِ تارةً ثالثةً ، وهُمْ يقولونَ لَـهُ : (لَنْ نتركَكَ تحيا . . حتّى تسبَّ محمّداً وتَشتمَ أَصْحابَه ، وتؤمنَ باللّاتِ والعزّى . . فإنْ فعلْتَ تركناكَ) . ورفضَ أوّلَ الأمرِ ، وصمدَ للتّعذيبِ المتزايدِ ، واشتدَّ عليه الاضطهادُ ، ونالَ أضْعافَ ما نالَـهُ أبوهُ وأُمُّهُ مجتمعيْنِ ، وفي النّهايةِ اضطرَّ عمّارٌ مِنْ شدّةِ الآلامِ أَنْ يذكُرَ محمّداً بسوءٍ ، فتركوهُ ، لكنَّ قلْبَه بقيَ مُؤْمناً ومطمئناً بالإيمانِ . . وهٰذا مسْموحٌ بِهِ يا أحبّائي ، أي يجوزُ أَنْ يَفعلَ الإنسانُ المسلمُ ما فعلَهُ عمّارُ بْنُ ياسرٍ ، بعدَ أنْ يصلَ إلى درجةٍ لا يَحْتملُ فيها العذابَ ، وإنْ أرَدْنا الأَفْضلَ فهو عَدَمُ التَّراجُعِ ولا شكَّ كما فعلَ ياسرٌ وسميَّةُ ، وعلى كلِّ حالٍ فقد تمنّى عمّارٌ الشّهادةَ ونالَها في إحدى المعاركِ الإسلاميّةِ مُكمِلاً شهادةَ أسرتِهِ . .

خَبّابُ بْنُ الأرتِّ

وجاءَ دوْرُ إنسانٍ خامسٍ ، أحدِّثُكم عنه الآن ، اقرؤوا اسمَهُ من العنوانِ مرّةً أُخرى ، إنّهُ رَجلٌ مُستضعَفٌ أَسْلَمَ مع الصَّحْبِ الأوائِلِ ، فكرِهَ منْهُ الكفّارُ ذٰلِكَ ، وتَفنَّنوا في تعْذيبِهِ حيْثُ كانوا يحْمُون الحجارةَ بالنّارِ ، ثم يأْمُرونَه أنْ يلصقَ ظهرَهُ عارياً على هٰذِهِ الحجارةِ المحمّاةِ .

وتحمَّلَ خبّابُ الكثيرَ الكثيرَ ، ويشهَدُ لَهُ التّاريخُ أنّهُ قدْ صَبَرَ على أذىً ، قَلَّ أنْ يحتملَهُ غيرُهُ ، فقد لَوى الكفّارُ لَهُ رأْسَه ، ووضعوهُ تحتَ الشَّمسِ اللّاهبةِ ، فوقَ الحصى وعلى الرَّمضاءِ ، وتعجَّبَ الظّالمونَ مِنْ صُمُودِه ، فلا تراجُعَ عنده . . ولا استهانَةَ بإيمانِه ، ممّا اضطرَّهم أخيراً أنْ يتركوهُ بعد أن ملُّوا منه ، ويئسوا مِنَ استجابتِهِ لهم ، وهٰكذا نجا خبّابُ مِنَ الموْتِ بفضْلِ ثباتِه ، بعْدَ أنْ تكرَّرتْ صُورُ الموْتِ أمامَه دُونَ أنْ يجيبَهم إلى شيءٍ ممّا أرادوه .

وصُهَيْبُ الرُّوميُّ

وصحابيٌّ آخرُ ، هَرَبَ مِنْ أَسْرِ الرُّومِ إلى مكّةَ ، اسمُهُ صُهَيْبٌ ، وكنّاهُ الرّسولُ (أبا يحيى) ، وحقّاً لقدْ أحيا صهيبٌ الإسلامَ في شبابِهِ وأعمالِهِ وسلوكِهِ ، أحبَّهُ محمّدٌ ، وأحبَّ محمّداً ﷺ ، فكرهَهُ الكفّارُ ، واغتاظُوا مِنْ إيمانِه ، فراحُوا يذيقونَهُ ألْواناً مضنيةً مِنَ الإرهاقِ والعذابِ ، لا

يحتَمِلُها إلا أصحابُ النُّفوسِ المؤمنةِ والقُلوبِ الموحِّدةِ للهِ . .

وكانَ صهيبٌ يملكُ بعضَ المالِ ، فعرضَه على الكفّارِ شريطةَ أن يَتركوهُ مؤمناً مُهاجراً إلى اللهِ ويكفُّوا عَنْ تعذيبِهِ المتواصِلِ ، وبعدَ أخذٍ وردٍّ ، طَمعَ الكفّارُ في مالِ صُهَيبٍ كلِّهِ ، ووافقوا على أخذِهِ وابتلاعِهِ ، وهٰكذا افْتَدى صهيبٌ نفسَهُ منهم بمالِهِ أجمعَ ، وإنّها لتَضْحيةٌ قيِّمةٌ أَنْ يبْذُلَ الإنسانُ ما يملكُهُ وما جمعَهُ مِنْ مالٍ في حياته ، لكيْ يبقى مؤمناً باللهِ ، وبمحمّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ

عامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ

ومِنَ المُسْتضعَفينَ أيضاً صحابيٌّ يَعمرُ قلبَهُ الإيمانُ ، اسمُهُ عامرٌ ، أَسْلَمَ مبكّراً ، وكانَ مِنَ الموالي ، لا يَستطيعُ أنْ يجدَ سنداً ونصيراً لهُ مِنْ قريْشٍ ، فصَبَرَ على العذابِ الشّديدِ الّذي لاقاهُ مِنَ الكفّارِ الظّالمينَ ، وذنبُهُ لا تُسمّونَه أنتُم ذنباً ، ولٰكنَّ الكفّارَ يغتاظون مِنْ هٰذا ، ويصرُّون على أنْ يُعذِّبوا كُلَّ مَنْ يُسلمُ ، وإنّهم لَنْ يَسْمحوا لعامرِ بنِ فُهيرةَ أَنْ يَستمرَّ في إعلانِ دينِهِ وإسلامِهِ ، ولذٰلكَ زادُوا لَهُ في التَّعذيبِ والاضْطهادِ ويمرُّ أبو بكرٍ من أمامِهِ ، ويحزَنُ قلبُهُ لما يُلاقيه عامرٌ مِنْ ألوانٍ الوحشيّةِ المصْبوبةِ على جسمِهِ ، وينتهي المَشْهدُ بِشراءِ أبي بكرٍ لعامِرٍ من سيِّدِهِ، ثم يعتِقُهُ كما فعلَ مِنْ قَبْلُ ببلالٍ الحبشيِّ ، وكما سيَفْعلُ

بكثيرينَ غيرهما في سبيلِ أَنْ يخفِّفَ عنهم ما وَقَعوا فيه مِنَ العذابِ .

أَبُو فكيهَةَ

ونوعٌ جديدٌ مِنَ القساوَةِ والتَّعذيبِ لقيهُ أَبُو فكيهةَ المؤمنُ الذي أَسْلَمَ مع بلالٍ ، لقد أخذَهُ سيِّدُهُ إلى ساحاتِ مكَّةَ ، وربطَهُ مِنْ رجلِهِ بحبلٍ ، وأَمَرَ أَنْ يُجَرَّ على الأرضِ . . وتَصوَّروا يا إخوتي الأحبَّةَ ما سَيُلاقيهِ أبو فكيهَةَ مِنَ الألَمِ والإهانَةِ ، وسَيَلانَ الدِّماءِ مِنْ أنحاءِ جسمِهِ، ولم يقفِ الأمْرُ عنْدَ هذا الحَدِّ بَلْ كُلَّما مَرَّ به طائرٌ وحيوانٌ صغيرٌ قالوا لَهُ : أليسَ هٰذا ربَّكَ ؟ فيقولُ المؤمنُ بجرأةٍ وقوَّةٍ : (لا . . اللهُ هُوَ ربِّي وربُّكم وربُّ هٰذا) . فيغتاظُ الظّالمونَ أكثرَ وأكثرَ ، ويكادُونَ يخنقون الصحابيَّ الجليلَ ، حتّى يظنُّوا أنَّهُ قَدْ ماتَ ، ثم يفيقُ ليَرى أبا بكرٍ يشتريه مِنْ سيِّدِه ، ويَعتقُهُ بَعْدَ أنِ اشتدَّ تعذيبُهُ فيخرجُ مِنْ تحتِ صخرَةٍ وضَعوها على صَدْرِهِ إلى الحرِّيَّةِ ، وأخوَّةِ أبي بكرٍ ، وحُبِّ محمَّدٍ ﷺ . .

لِكلٍّ عَذابُهُ

وتوسَّعَتْ دائرةُ العذاب على أكثرِ مَنْ آمَنَ وأَسْلَمَ ، واخترعَ المشركونَ ألواناً جديدةً مِنَ الاضطهادِ والقَسْوةِ ضدَّ المسلمينَ ولا سيَّما الفقراءُ والمَساكينُ والموالي والمُسْتَضْعَفون ، وكما رأينا فكلُّ مؤمنٍ مسلمٍ قَدْ لاقى

نوعاً مِنْ هٰذا العذابِ أو نوعينِ ، فبلالٌ وُضِعَتِ الصَّخرةُ على صدرِهِ ، وألهبَتِ السِّياطُ جِلْدَهُ ، وآلُ ياسرٍ وقعوا تحتَ الحرابِ والجمرِ الأَحْمرِ والإغراقِ في الماءِ ، وخبّابُ بْنُ الأرتِّ عرفَتْهُ الحجارَةُ المحمّاةُ بالنّارِ ، والتوى رَأْسُه ، وصهيبٌ الروميُّ طَمِعوا في مالِهِ وأملاكِهِ ، وأبو فكيهةَ عانَقَ الحبْلُ رقبَتَه ورجليهِ ، وذاقَ الجرَّ على الأرْضِ ، وكاد أنْ يموتَ بِثقْلِ الصَّخْرةِ .

ولا نَنْسى ما كان لأبي بكرٍ مِنْ فَضْلٍ كبيرٍ في تخليصِ أكثرِهم مِنَ التَّعذيبِ ، حَيثُ كانَ أبو بكرٍ غنيّاً يملكُ مالاً ليشتريَ به المعذَّبين المظلومينَ ، ويعتقُهُمْ أحراراً لوجْهِ اللهِ . .

صَبْراً وَثَباتاً

وقَدْ تَسْألونَني يا أحبّاتي عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ : ألَمْ يَكُنْ يدري بما يحدُثُ لأصحابِهِ؟ والجوابُ : بلى ، وكيفَ لا يَدري بهِمْ ، ويتألَّمُ لَهُمْ أشَدَّ الألمِ وَهُوَ صاحِبُ القلْبِ الحنونِ ، والإحساسِ المرْهفِ ؟ كانَ يمرُّ مِنْ أمامِهِم أثناءَ تعذيبِهِم ، فينطِقُ بعباراتِ التَّثبيتِ ، ويسألُ اللهَ لهم العوْنَ والصَّبْرَ على الشَّدائِدِ ، فها هو ذا عندما رأى آلَ ياسرٍ في العذاب الشَّديدِ ، قالَ لهم : صَبْراً يا آلَ ياسرٍ فإنَّ موعدَكُمُ الجنَّةُ . ويأتيهِ خبّابُ ابْنُ الأرتِّ وهو متألِّمٌ مِنْ تعذيبِ المشركينَ لهُ فيقولُ : يا رسولَ اللهِ . . ألا تدعو لنا ؟ ألا تستنصرُ لنا ؟ فيردُّ عليه الرّسولُ مواسياً ومبيِّناً أنَّ

المؤمنينَ في عهـودٍ سابقـةٍ قدْ لاقَـوْا أكثـرَ وأكثرَ مِـنَ العذابِ ، فكـانَ الواحـدُ منهم يمشَّـطُ بأمشـاطِ الحديدِ ، فيفـرقُ لحمُه عـنْ عظمهِ ولا يتراجَعُ ، وإنَّ اللهَ لناصرُ هذا الدّيـنِ فلا تستعجلوا واثبُتُوا واصبِروا على الحقِّ . .

وَأَنا مِثْلُكُمْ أيْضاً

وقـدْ لاقـى المسلمـونَ الأغنيـاءُ والأشرافُ عـذابـاً أيضـاً كغيرِهـم ، وامتدَّتْ يدُ البغيِ عليهم ، فعثمانُ بْنُ عفَّانَ قد ضربوهُ الضَّربَ المبرّحَ ، والـزّبيرُ بنُ العـوّامِ لفُّوه في حصيرٍ ، وتـركوه فترةً يستنشـقُ الدُّخـانَ . . وفاطمةُ بنتُ الخطاب يضربُها أخوها ويسيلُ الدّمُ منْ وجهِها ، وكذٰلكَ فقدْ أُغشيَ على أبي بكرٍ بعدَ أن شُجَّ رأسُهُ وسالَ الدَّمُ منهُ . .

وفوقَ كـلِّ هٰذا وهٰـذا فلمْ يسلمِ الـرّسولُ مـنَ الأذى على الرّغـمِ من حمايةِ بنـي هاشـمٍ له ، فـأَراذِلُ الكفّارُ يضعون لهُ الشّـوكَ والقذرَ في طريقِه، ويلقونَ التُّرابَ على رأسِهِ وهو سائرٌ ، ويكاد عقبةُ بن أبي معيطٍ أنْ يخنقهُ لولا أنّ أبا بكرٍ مرَّ قائلاً ومدافعاً :

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾

لقد صبرَ ﷺ ولسانُ حالهِ يقولُ : وأنـا مثلُكم يا أصحابي ، أُلاقي ما تلاقونَهُ . . فَعَدوُّنا عجزَ في إقناعِنا بجهلِهِ وضلالِهِ .

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
١٨

أرض الصّدق

خوفٌ مِنَ الفتْنَةِ

تَبيَّنَ لكُمْ يا أعزّائي أنَّ المؤمنَ مُعرَّضٌ للتَّعذيبِ مِنَ الكفّارِ ، وأنَّ الكفّارَ لَنْ يَتركُوهُ دُونَ أذىً ، ولَقد تألَّمَ الرّسولُ ﷺ لما لاقاهُ صحابتُهُ الكرامُ وما واجهَهُ المُستَضْعفُونَ منهمْ أمْثالُ بلالٍ الحبشيِّ وصُهيبٍ الروميِّ وآلِ ياسِرٍ وغيرِهم مِن أوائلِ الصّابرينَ المجاهدينَ .

ونَظراً لأنَّ كفّارَ قريشٍ مُمْعنون في تعذيبِ الصَّحابةِ بوحشيَّةٍ قاسيةٍ انتقاماً لآلهَتِهِمْ ، وإبقاءً على مكانتِهِمْ ، فقد خَشِيَ رسولُ اللهِ أنْ يَطُولَ العذابُ ، فيفْتِنَ بعضَ المؤمنينَ عَنْ دينِهِمْ ، لذلكَ رأى أنَّ التَّدبُّرَ لهذا الأمْرِ أصبحَ مِنَ الواجبِ دراستُهُ ، فالقائدُ مسؤولٌ عَنْ أتباعِهِ ، وعليهِ أنْ يبحثَ عَنِ السُّبُلِ الصَّحيحةِ التي تبعدُهُم عَنْ ترْكِ الصَّوابِ والعقيدةِ الصّحيحةِ . . فماذا سيفعلُ قائدٌ حكيمٌ مثلُ محمّدٍ ﷺ بشأْنِ صَحابتِه ؟ .

أَرْضُ الصِّدْقِ

لقد فكَّرَ مليّاً ووجدَ أنَّ الأنسبَ هُو اختيارُ مكانٍ آخرَ غيرِ مكَّةَ ، يرتاحُ فيه المؤمنونَ قليلاً مِنْ عذابِ الظالمينَ المُستكبرينَ . . وسَرى بينَ الصالحينَ المُسْلمين أنَّ الرَّسولَ الكريمَ ﷺ قدِ اختارَ لَهُمْ أرْضَ الحبشةِ

حيثُ قالَ مخاطباً إيّاهم : (لَوْ خَرَجْتُمْ إلى أَرْضِ الحبشةِ ، فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أحَدٌ ، وهيَ أَرْضُ صِدْقٍ ، حتّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجاً وَمَخْرَجاً ممّا أَنْتُمْ فيهِ . .) .

وأراكُمْ يا أحبَّتي قَدْ فهمْتُم لماذا اخْتارَ الرّسولُ أرْضَ الحبشةِ مَهْجَراً للمُسْلمينَ مِنْ أصْحابِهِ ، وأذَكِّرُكم الآنَ بأنَّ الحبَشَةَ في ذلكَ الوقتِ كانَتْ تدينُ بالنَّصرانيَّةِ ، وفيها الكثيرُ مِنَ الشَّوائبِ على هذا الدِّينِ ، إلا أنَّ ملكَها كانَ أقربَ إلى الحقِّ وأكثرَ فهْماً لدينِ النَّصرانيَّةِ الصَّحيحِ الذي كانَ عليهِ المسيحُ عليه السَّلامُ .

١١ + ٤ = ١٥

واقتنَعَ المؤمنونَ بكلامِ رسولِ اللهِ ﷺ ، واستبْشَروا خيراً مِنْ قائِدِهم حينَ قالَ لَهُمْ عَنِ النَّجاشيِّ بأنَّهُ (لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ) ، وعَنِ الحبشةِ بأنَّها (أرْضُ صِدْقٍ) ، وسُرعانَ ما نَفَذَ الرَّأيَ مِنْهُمْ أَحَدَ عشَرَ رَجُلاً وأَرْبَعُ نساءٍ ، ومجموعُهم خَمْسَةَ عَشَرَ مُهاجراً ، فيهم عُثْمانُ بْنُ عَفّانَ وزوجتُهُ (رُقَيَّةُ بنتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ) ، ومِنْ بينِهم (الزُّبَيْرُ بْنُ العوّامِ) ابْنُ عمَّةِ الرَّسولِ ، وقريبُ خديجَةَ . ومِنْ عادةِ الرّسولِ أنْ يأمُرَ كُلَّ جَمْعٍ بتأْميرِ أَحَدِهِم عليهم (أيْ جَعلِ أَحَدِهم أميراً عليهِم) ، أوْ يقُوم بتأْميرِهِ بنفسِهِ ﷺ ، وبما أنَّ هؤلاءِ الخمسةَ عشَرَ ذاهبُون إلى أرْضٍ بعيدةٍ ، فمنَ الجميلِ أنْ يكونَ لهم أميرٌ يرعاهم ، وقدْ كانَ الأميرُ (عثمانَ

ابنَ مظعونٍ) الذي سارَ في أَوَّلِ فوجٍ مِنَ المهاجرينَ ، وذلكَ في شهرِ رجبٍ منَ السَّنةِ الخامسةِ للرِّسالةِ .

رِسالَةُ بُشْرى

ولمَّا وَصلَ الفوْجُ برعايةِ اللهِ إلى أَرْضِ الحبشَةِ ، وجَدُوا صِدْقَ كلامِ رسولِهِمْ ممّا زادَهُم حُبّاً بدينِهِ ورسالتِهِ ، فها هُمْ أُولاءِ يروْنَ النَّجاشيَّ يَحْمدُهُ الصَّغيرُ والكبيرُ مِنْ شَعْبِهِ ، لِما اتَّصفَ بهِ مِنْ عَدْلٍ ورحمةٍ وحِكْمةٍ ، وها هوَذا النَّجاشيُّ نفسُهُ قدْ أكرمَ مثواهُمْ وأحْسنَ استقبالَهُم وأَسْعدَهم في أَرْضِهِ وفَرشَ لَهُمْ بساطَ الطمأنينةِ والأَمْنِ وكأنَّهم في أَهْلِهم وأَرْضِهم بَلْ وأَعزَّ ، فمكَّةُ أَرْضُهم قدْ كثُرَ فيها الكفرُ والطُّغيانُ ، ولَمْ يَعُدِ العيْشُ فيها مَقْبولاً ، وهذا يا أَحبَّتي قدْ شجَّعَ المهاجرينَ على أنْ يستَبْشروا خيْراً إنْ قَدِمَ غيرُهم إلى هذهِ البلادِ الحلوةِ الجميلةِ لينعَمَ الآخرونَ بعدْلِ ملكِها ، ويتخلَّصوا مِنْ ظُلْمِ سادةِ قريْشٍ ، فبعثُوا للرسولِ يُخْبرونَه بما هُمْ فيهِ مِنَ العيْشِ الطيّبِ ، وطلبُوا منهُ أنْ يحُثَّ إخوانَهم في مكَّة على الإسراعِ والهجرةِ إلى الحبشةِ ، فسُرَّ الرسولُ بذلكَ وحَمدَ اللهَ . .

ثمانُونَ رَجُلاً

وأَخذَ مَنْ بقيَ مِنَ المؤمنينَ في مكَّةَ (وقَدِ ازْدادَ عَددُهم والحمدُ للهِ) ، يتصوَّرونَ أَنفسَهم في الحبشَةِ وقَدِ اسْتَراحَ جَسَدُهم مِنَ التَّعذيبِ ،

وسَرَتِ الابتسامَةُ على وجوهِهِمْ مَعَ أَنَّ البعدَ عَنِ الدِّيارِ أَمْرٌ شاقٌّ ومحزنٌ، إلا أنَّ النجاةَ بالدينِ الصَّحيحِ، والتفكيرِ القَويم . . أَمْرٌ يُعَوِّض مَشقَّةَ الغربَةِ وحزْنَ الفراقِ والحنينَ إلى الوطَنِ . . وحقّاً يا أحبَّتي فقد انضمَّ عددٌ جديدٌ منَ المهاجرينَ ، جعلَ عَدَدَهم في الحبشةِ يصلُ إلى الثمانينَ مِنَ الرِّجالِ عدا مَنْ كانَ مَعَهم مِنَ النِّساءِ والأَطْفالِ ، وعاشُوا هناكَ مَعَ الفَوْجِ الأول في أَحْسنِ مَقام ، وأَرْغَدِ حياةٍ ، ويا لها مِنْ نجاةٍ حُلْوةٍ رابحةٍ بدينِ اللهِ مِنْ أَيْدي المستبدِّين الظَّالمينَ . .

وبقيَ الرَّسولُ وبَعْضُ الصَّحابةِ في مكَّةَ ، يستمرُّون في الدَّعوةِ إلى اللهِ على الجبْهة الأُولى ، بحمايَةِ ربِّ العالمينَ . . ربِّ المهاجرينَ والمؤمنينَ والمناصِرين .

هُجُومٌ مُضادٌّ

وعَلمتْ قريْشٌ ولا بدَّ بأمرِ الهجرتيْنِ ، وزادَها غيْظاً أَنَّ عددَ المسلمينَ قدْ زادَ كثيراً ، وأَنَّ أكثرهم قدْ نجا مِنْ بينِ أيديهم فارّاً إلى الحَبشة ، وقَدْ وَصلَتِ الأخبارُ إلى الرُّؤساءِ مِنَ الكُفّار أَنَّ المهاجرينَ قد اطْمأنُّوا بالحبشَةِ ، ووجدُوا فيها السَّعادَةَ وحُسْنَ الصُّحبةِ مِنَ الملكِ النجاشيِّ .

كُلُّ هَذا جعَلَ الكافرينَ يأتمرونَ في مكَّةَ ليعْلنُوا عَنْ هجومٍ مضادٍّ ،

نعم يـا أحبَّتي . . لقدِ اتَّفقوا على أَنْ يُـرْسلوا إلى النَّجاشي وَفْـداً منهم ، ومعَهُ هـدايا ثمينةٌ لَـه . . ولمنْ حَوْلَهُ مِن الأعيـان ، هَذا الوَفْـدُ المضادُّ ، يتألَّفُ مِنْ رجلين اشْتَهَرا بالحنْكَـةِ والدَّهاءِ ، وهُما (عَمْرُو بْنُ العاصِ ، وعَبْدُالله بنُ أبي ربيعةَ) . ووظيفَتُهما أَنْ يقدِّما للنجاشيِّ الهدايا ، ويطْلبا منْهُ طَردَ المسلمينَ مِنَ الحبشةِ ، وغـايةُ الكفَّارِ مِنْ هَذا أَنْ يُعيـدُوا مَنْ هاجَرَ إلى مكَّةَ ليُذيقُوهم العذابَ والوحشيَّةَ .

لا تَقْبَلْهُمْ أَيُّها الملِكُ

وسَارَ الـدَّاهِيتانِ إلى الحبشـةِ ، فوصَلاهـا بعدَ مدَّةٍ ، وهُمَا لا يكادَانِ يطمئنَّانِ إلى نجاحِ مَهمَّتهما ، فهُمَا يعلمانِ بحقٍّ أنَّ الرَّسولَ محمداً صادقٌ في رسالَتـهِ ، وأَنَّ غايَةَ دهائهما الشرُّ والطُّغيـانُ والوقوفُ في وجْـهِ ازديادِ المسلمينَ وصحَّةِ براهينِ نبيِّهم .. وفي الحبشةِ اجتمعَ الاثنانِ بأصحابِ النَّجاشي وقدَّمـوا لهمُ الهدايا ، وحكيا مُرادَهُما ، فوعدوهما بـا لمساعدة ، ومِنْ ثَمَّ دَخَـلا على الملكِ العادلِ ، فقالا : (إنَّ نـاساً مِنْ سفهائِنَـا قَدْ فارقوا دينَ قـومهم ولمْ يرضوا بالرُّجُوعِ إلى عبادَتنـا ، وقَدْ جئناكَ طَـالبين تسليمَهـم إليْنَا) ، فغَضِـبَ الملِكُ مِـنْ قولهما ومِنْ محاولاتِ أعيانـهِ في مُسَاعـدتهما ، وقـالَ : (لا واللهِ لا أُسْلِمُهُمْ ، وكَيْـفَ أفعلُ هَـذا وقَـدْ جَـاوروني ونزلُـوا بلادي ، واخْتـاروني على مَنْ سِـوَاي ؟ انْتظروا حتَّـى أَدْعُوَهم ، فأسأَلَهم عَنْ رأيهم أَمَامكم) .

المُتَكَلِّمُ الوَاعِي

وَإِنَّهُ لكلامٌ جميلٌ ، وكأَنَّ النجاشيَّ يريدُ أَنْ يُبرهنَ أمامهم ظُلْم قريشٍ للمهاجريـنَ ، ولكنْ في صورة محكمةٍ جهريةٍ عَلَنيـةٍ ، ودخَلَ المسلمونَ على الملكِ ، فسأَلَهُمُ النجـاشيُّ : (مَا هَذَا الذي فارقْتُمْ فيه قَوْمَكُمْ) ؟ فقالَ أَحدُهُـمْ وَهُوَ جعفرُ بْنُ أبي طالبٍ (ابْنُ عَمِّ رسولِ الله) : [أَيُّها الملِـكُ ، كُنَّـا أَهْـلَ جـاهِليّـةٍ ، نعبدُ الأَصْنـامَ ، ونـأْكـلُ الميتـةَ ، ونـأْتي الفَـواحـشَ ، ونقطَـعُ الأرحـامَ ، ونُسِيءُ الجوارَ ، ويَظْلِمُ القـويُّ منَّـا الضَّعيـفَ ، حتَّى بعثَ اللهُ إلينا رَسُولاً منَّا ، نعرفُه في نسبهِ وصِدْقِهِ وأمانتِه وعفَافِهِ ، فدعانا لتوحيدِ الله ، وألا نُشْرِكَ به ، ونَخْلَعَ ما كنَّا نعبدُ مِنَ الأصنَـام ، وأَمَرَنـا بصدْقِ الحديـثِ وأداءِ الأمَـانـةِ ، ونَهانـا عَـنِ الفواحِشِ ، ونَحْـنُ معـهُ اليومَ نُصَلِّي ونصومُ ونفعلُ المعروفَ ، لَقَدْ آمنَّا بـهِ ، وصدَّقْناه فعـذَّبَنا قَوْمُنا ، وزادوا في الظُّلمِ بِنا ، فخـرجْنا إلى بلادِكَ واخْترناكَ على مَنْ سوَاكَ ، رَاجِينَ ألا نُظْلَم عندَكَ أيُّها الملِكُ] .

بُرْهَانٌ سَاطِعٌ

فقالَ لَهُ النَّجاشيُّ : (وهَلْ معكَ ممَّا جاءَ بِهِ رسُولُكُم عَنِ اللهِ شيْءٌ ؟) قالَ : نعَمْ ، وتَلا عليهِ أوَّلَ سورةِ مريَـمَ التي تتحدَّثُ في بدايتِها عَنْ آلِ عمرانَ ومـريمَ أمِّ عيسى عليهِ السَّلام ورسالتِهِ ، فبكَى النَّجاشيُّ لدي سماعِها وبكَى مَعَهُ الأساقِفَةُ والأعيانُ ، ثمَّ قالَ : (إنَّ هَذَا والذي جاءَ

بِهِ عيسى ليَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ واحدةٍ) ، والتَفَتَ إلى وفدِ قريشٍ آمِراً : (انْطَلقا فواللهِ لَنْ أُسْلِمَهم إليْكُما أبداً) ، وَرَفَضَ هداياهما ، فرجاهُ عَمْرُو بْنُ العاصِ أَنْ يُدْرِك مَطْلبهما ، وَيَتَحقَّقَ مِنْ رسالةِ المهاجرينَ ورسولهم ، إلا أَنَّ النجاشيَّ ازْدَادَ إيماناً وَوَعياً ، وأَبى مِنْ جديدٍ أَنْ يُذْعِن لأَمْرِ قريْشٍ ، وتأكَّدَ مِنْ آياتٍ أُخْرى تلاها عليهِ جَعْفَرٌ أَنَّ محمداً رسولٌ حقّاً مِنْ عِنْدِ اللهِ ، كَما كانَ المسيحُ عيسى بْنُ مريمَ ، وبَدَأَ الإيمانُ الصَّحيحُ يَسْري في قلبِ هذا الملك ، وهُوَ يَبْكي ويذرفُ الدُّموعَ على الأَرْضِ .

إِنَّكُمْ آمِنونَ

ولَمَسَ المؤمنونَ صِدْقَ المعشرِ الطيِّبِ ، والحنانَ الفائضَ عنْدَ الملِكِ ، الذي رفَعَ رأْسَهُ نحوهُمْ قائلاً ، وهُوَ يجفّفُ دموعَهُ : (كلامُكُم حَقٌّ . . اذْهَبوا ، الحقُّ هُوَ ما قُلْتُمْ . . اذْهبوا فأَنْتُم آمِنونَ في بلادي ، لا يستطيعُ أَحَدٌ أَنْ يُؤْذيكم هُنَا ، وما أُحِبُّ أَنَّ لي جَبَلاً مِنْ ذَهَب مقابِلَ أَنْ أُؤْذِي أَحداً منكُمْ) . وفَرِحَ جعفرٌ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ المهاجرينَ ، وخرجوا مَسْرورينَ شاكرينَ اللهَ أَنْ هَيَّأَ لهمْ مِلكاً ذَا مَعْروفٍ كبيرٍ وفضلٍ عميمٍ على أَصْحابِ الحقِّ .

وأَمَّا عَنْ عَمْرو بن العاصِ وعبْدِالله بْنِ ربيعَةَ ، فَقَدْ رَدَّ لهُما النجاشيُّ هَدَايا قريْشٍ ، وطَلَبَ منهُما أَنْ لا يَسْأَلاهُ مَرَّةً أُخْرى مِثْلَ ما سَأَلاهُ ، فعادَ

الرَّجُلانِ بهداياهما خائبينِ إلى مكّة ، بينما أَقَامَ المسلمونَ في الحَبَشَةِ بخيرِ دارٍ ، حامدين اللهَ على نعمةِ الجوارِ الحَسن .

مُشارَكَةٌ وَدَعْوَةٌ

وطابت الإقامَةُ للمسلمينَ بأَرْضِ الحبشةِ ، ونَعِمُوا برعايةِ النَّجاشيِّ وعنايتِهِ ، وأَحبُّوا أَنْ يتقرَّبوا مِنْ أَهْلِ الحبشةِ ، فأَخَذُوا في مشاركتهمْ . .

. . هَلْ تدرونَ فيمَ كانتِ المشاركةُ ؟ لقَدْ شاركوهم في عواطِفِهم ومشاعِرِهم ، إذا فرِحَ الأحباشُ فرِحَ المسلمونَ ، وإنْ حزِنوا حزنوا لحزْنِهمْ ، وبَذَلوا لهمْ عواطِفَ الودِّ والمجامَلَةِ ، ولقَدْ رأى الأحباشُ مِنَ المُسلمينَ طيبَ معاملةٍ ، فأَحَبُّوا دينَهم ، فاستفادَ المسلمونَ مِنْ هذِهِ المحبَّةِ في الدعوةِ إلى اللهِ ، وكأَنَّهُمْ يُنادُونَ رسولَ اللهِ في مكَّةَ أَنْ : (يا رسولَنا العظيمَ . . لَقَدْ علَّمتنا أَنْ نعيشَ الدَّعوةَ إلى اللهِ ، فنحنُ هُنَا كما تحبُّ مِنَّا ، دعاةٌ إلى اللهِ مَعَكَ ، نذكُر للنَّاسِ رسالتَكَ ونزيدُ للدِّين عددَ أتباعِهِ ، فلا تحزَنْ على فراقِنا ، وسنَلْقَاكَ عمَّا قريبٍ وكلٌّ منّا أُمَّةٌ إنْ شاءَ اللهُ ربُّنا وربُّ العالمينَ . .) .

مُراسلاتٌ وُدِّيَّةٌ

وكانَتِ الأَخْبارُ تصِلُ للرسولِ ﷺ تباعاً عَنْ أحوالهم هناكَ ، فيحمدُ اللهَ ، ويشكُرُهُ على فضلِهِ في تهيئةِ الجوِّ الملائِمِ مِنْ أَرضٍ خيِّرةٍ تحبُّ

أَصحَابَ الحقِّ والصِّدقِ . ولم يَنْسَ الرسولُ ﷺ أَنْ يراسِلَ النجاشيَّ شاكراً لَهُ عواطفه ومشَاعره، حاملاً إليه كُلَّ الوُدِّ والصِّدقِ والإخلاصِ..
لقدْ كانَتْ بينَهما إذاً مُراسلات محبَّةٍ ومودَّةٍ ، وكَانَ لهذهِ المراسلات أَثَرٌ كبيرٌ جداً في حمايةِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ ، وازْديادِ إدْراكِ المِلِكِ لواقِعِ الدَّعوةِ في مكَّةَ بالذَّاتِ ، لذلكَ كَانَ لا يجدُ حَرَجاً في بقَاء مَنْ أرادَ بَلْ كُلَّ مَنْ هاجَر إلى أَرْضِهِ عندَهُ ، وإنَّهُ لشيْءٌ عظيمٌ ، ولكنْ ما رأيكُمْ يا إخوتي أَنْ تحاولوا معي الآنَ استخلاصَ أهمِّ ما اتَّصفَ بهِ النجاشيّ في رأيكُمْ ؟ هَلْ أنتُمْ موافِقُون ؟ .

مَلِكٌ لا كالمُلوكِ

أَراكم تقُولونَ لي : (إنَّهُ مَلِكٌ لا كالمُلوكِ) ، وهذا صحيحٌ .. وإذا طلبْتُ منكُم التَّوضيحَ أكثرَ ، سمعتكُمْ تُشيرون إلى أنَّ النجاشيَّ لَنْ يدَّخرَ وُسْعاً في قبولِ الإسلامِ إذا ما عرضَهُ عليْهِ الرسولُ الكريمُ ﷺ ، وهذا صحيحٌ أيضاً . . وإنَّهُ لاستنتاجٌ جيِّدٌ مِنكم يا أحبَّتي أَنْ تقبلُوا ديناً جديداً هُوَ دينُ الإسلامِ ، فإنَّكُمْ ستعرضُون هذا الأمرَ على وجوهِهِ، وتقلِّبونَه ، ومِنْ ثَمَّ تقبلونَهُ في نهايةِ الأمْرِ ؛ فعقلُكُمْ وتفكيرُكُمْ عاملانِ هامَّانِ في فَهمِ هَذا الدِّينِ والرِّضا بِهِ . .

قولُوا معي الآنَ : (سلامٌ عليكَ أيُّها المِلِكُ . . لقدْ قَبِلَ الله إسْلامَكَ ،

وسَنكونُ مِنَ الشَّاهدين عَلى إيمانِكَ ، فأنتَ حقّاً قدْ آمَنْتَ عِندما طلبَ رسولُنا الكريمُ ذلك منك ، بَلْ كنْتَ أوَّلَ مَلِكٍ يُسْلِمُ في ذَاكَ الزَّمانِ) .

نَتائِجُ الهجْرَةِ

وإليكُمْ في نهايةِ القصَّةِ نَتائِجَ هذهِ الهجرةِ الكريمةِ على قريشٍ :

١ ـ تأكَّدتْ قريْشٌ وزادَ يقينُها أَنَّ الملوكَ العادِلين لَنْ يَقبَلوا كَلامَ زُورٍ وبُهْتانٍ مِنَ الكفَّارِ والمُستكبرينَ .

٢ ـ شاعَ في مكَّةَ جَوٌّ مِنَ الخوْفِ ، فالرجالُ الكِبارُ والأشرافُ قَدْ بقوا حيَارى لا يَدْرون ماذَا يَفْعلون ؟ !

٣ ـ خَشِي الكفَّارُ أَنْ تقومَ للمسْلمين دولةٌ في الحبشَةِ ، نظَراً للدعايةِ الواسِعَةِ التي فعَلَها المؤمنون هناك .

٤ ـ تأثَّرتْ بضاعَةُ قريشٍ وتجارتُها أمامَ الأحباشِ الذينَ عرفُوا الحقيقةَ .

٥ ـ وأخيراً ، تَصَدَّعَتْ صفُوفُ السَّادةِ والكبارِ ممَّا جعلَ بعضَهم يدخُلُ في الدِّينِ الجديدِ ، تاركاً دينَ الآباءِ والأجدادِ إلى الدَّمارِ .

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
١٩



سُؤالٌ ؟ وَجَوَابٌ

في بدَايةِ هـذِه القصَّةِ يا إِخْوتي ، سأَعْرِض عليكُـمْ سُؤَالاً صَغيراً عن الحلقَةِ السّابقة ، هَلْ تذكَّرْتم مَـوْضوعها ؟ إذاً تعالَوْا لِنَقْرأَ السُّؤَال مَعاً :

(مَنِ الذي سيقـعُ في الحَيْرةِ ؟ قريشٌ التي فشلَتْ في هجـومِها المضادِّ ضِدَّ المهـاجرين إلى الحبشةِ ؟ أَمِ الملـكُ النجاشيُّ الذي رحَّبَ بـازديادٍ بكلِّ مؤمنٍ دَخَـل أَرضَهُ ؟ أَمِ الرَّسـولُ وصحبُهُ الـذينَ فـازَتْ دَعْوتُهمْ بمأْوى وملجَأ وأَرْضِ صِدْقٍ ومَلِكٍ عادِلٍ ؟) .

أَجيبوني أَيُّها القرّاءُ الأعزّاءُ . . إنّي أَسمَعُ أَصواتَكُم الحلوةَ تقولُ لي : (سَتكُونُ الحَيْرةُ مِـنْ نَصيبِ الخاسِرِ دوماً ، وإنَّ الخاسِرَ في هَـذِهِ الجولةِ هُمْ كفَّارُ قريْشٍ) .

شُكْراً لكم أَيُّها المجتهدونَ ، وبارَكَ اللهُ في قراءَتِكُمْ وهِمَّتِكُم العاليَةِ .

الحِقْدُ الأَكْبَرُ

جوابُكُـمْ صحيحٌ . . أَيُّها الأحبَّةُ أشكُـركُمْ مرَّةً ثـانيةً مِنْ كُـلِّ قَلْبي ، وأَزيدُكم علماً أَنَّ الحَيْرةَ سَتـأْكُلُ الفئةَ الخاسِرةَ أَكْلاً ، وستزيـدُ مِنْ حقدِ قريشٍ على المؤمنينَ ، ولكنْ لا تَنْسَوْا أَنَّ أَكبرَ الحقْدِ كانَ يقَعُ على رسولِ اللهِ . . أَيْ : إنَّ الكُفَّـارَ كانـوا يحقدُونَ على هـذا النبيِّ حِقْـداً ما بعـدَهُ

حقدٌ، وهُمْ يرونَ أتْباعه يحبُّونه حُبّاً ما بعدهُ حبٌّ . . وإن أيَّ كافرٍ يعلَمُ أنَّنا نحْنُ الصِّغارَ وجميعَ المؤمنينَ نحبُّ محُمَّداً ﷺ .

ورسولُ اللهِ يـا أحبَّتي كانَ يتحمَّلُ أذى الكُفَّـارِ النَّاتِجَ عَنْ حِقْـدِهِمْ عليْهِ ، وبَنُو هاشِمٍ كانُوا يروْنَ النبـيَّ الكريمَ صابراً محُتَسِباً ، لا يمدُّ يَدَهُ بسوءٍ . . وَلقدْ عَلِمُـوا مرَّةً أنَّ أبَا جهلٍ — أخزاهُ اللهُ — قَـدْ لقيَ محمداً عِنْدَ جبـلِ الصَّفا ، فجعلَ يَسُبُّهُ بفـاحِشِ القولِ حتَّى شفَـى غليلَهُ كَمَا يزعُمُ . .

إسْلامُ حَمْزَةَ

وأَمامَ ما قامَ بِهِ أبو جهلٍ صمتَ الرَّسولُ ﷺ ولَمْ يردَّ الشَّتيمةَ ، ولكنْ قَدْ حصَلَ رَدٌّ منْ أَسَدِ قريْشٍ ، هَلْ تعْرِفُونَ مَنْ هُوَ ؟ إنَّهُ حَمْزَةُ عَمُّ رسولِ اللهِ ﷺ ، الملقَّبُ بـذلكَ لِقُوَّتِـهِ . . عَلِمَ بِأمْرِ أبي جهلٍ في شَتْمِـهِ لابْنِ أخيهِ محمدٍ ، وكـانَ ما يَزالُ كافِـراً ، فذهَبَ مِنْ فَوْرِهِ إلى نادِي القومِ ، فوجَدَ أبا جـهلٍ هناكَ ، وسَرْعانَ مـا شَجَّهُ بقوْسٍ كانَتْ في يدِهِ قائلاً : (أَتشْتُمُه وأَنـا على دِينِهِ ؟ رُدَّ عَليَّ ذلكَ إنِ اسْتَطَعْـتَ ! !) . ولَمْ يتمكَّنْ كُلُ مَنْ في النَّادي أَنْ يَصُدَّ الشَّجَّةَ المنكرَة ، وسالَ الدَّمُ قبيحاً مِنْ رأسِ الكافِـرِ ، يدلُّ على أنَّ حَمْزَةَ ما زالَ على بطولَتِـهِ ، فبقِيَتْ قريْـشٌ تحْسُبُ حِسابَهُ وتخْشَى بأْسَهُ ، وكانَتْ غضبتُهُ هَذِهِ خيراً وبَركةً على الإسْلامِ ، إذْ ذَهَـبَ بَعْدَهـا إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ ليُعْلِـنَ إسلامَـهُ . . ويفرَحُ المسلمـونَ

بذلكَ ، وتقْـوَى شوكتُهُم ، ويُلَقِّبهُ الـرَّسولُ الحبيبُ : (بأَسَـدِ اللهِ وأَسَدِ رسولِهِ) .

والفَتىٰ الأَرْوَعُ عُمَرُ

وبطلٌ آخَرُ مِنَ الصَّناديدِ في قريْشٍ ، كـانَ كافِراً ، ومَلأَ قلبَهُ جَوٌّ مِنَ الوحشَـةِ والكآبـةِ (بَعْدَ أَنْ فـرغَتْ مكَّةُ مِـنَ المُسْلمينَ الذيـنَ تركُـوها مهاجـرينَ إلى الحبشَةِ) . . هَذَا البطَـلُ هُوَ (عُمَرُ بْنُ الخطَّـابِ) الفتى الأَرْوعُ ، أَيْ الرّائعُ في شجـاعته ، وحُسْنِه وجَهارَةِ مظْهرِه ، لكنَّهُ كـانَ يحملُ مَعَ ذلـكَ قَلْباً رَحيماً ، ونَفْساً رقيقةً وعَاطِفَةً فَـوَّارة ، وقَدْ رَقَّ فؤادُهُ لآياتٍ سَمِعَها مِنَ القرآنِ وقرأَها ، فلَـمْ يملكْ لِسانَهُ مِنْ أَنْ يَشْهدَ أَمامَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بـأَنَّ اللهَ واحدٌ لا شريكَ لَهُ ، وأنَّ محمداً رسولُ حَقّـاً مِنْ عِندِ اللهِ ، وإنَّـهُ لَشيْءٌ مُفْرِحٌ أَيْضـاً يا أَحبَّـاتي أَنْ يزدادَ عـدَدُ المسلمينَ واحداً كـأنَّهُ الألْـفُ تخافُهُ قـريْشٌ ، وتحسِبُ لهُ حساباً مثلَ حسابِ أَسدِها وأَسدِ اللهِ ورسولِهِ : حمزةَ بْنِ عبدِ المطَّلِبِ . .

سَدّانِ منيعانِ

ولا تَسْأَلوا عَنِ المُصيبَةِ . . إنَّها قَدْ نـزلَتْ على قريْشٍ ، فإسلامُ حمزةَ لم يُهَدِّئْ مِـنْ صعُوبـةِ الأمرِ على الكفَّـارِ ، بـلِ ازْدادَ بِهِمُ الغَليانُ والحقْدُ والفورانُ ، ونَزلَ عليهِم إسلامُ عُمَرَ كالصَّاعقَةِ ، حيثُ أبَى إلا أَنْ يُعلِنَ إِسْلامَهُ جَهْراً أَمامَ حلقَاتِ قـريْشٍ ونواديها واجتماعاتِها . . وحقّاً ، فقَدْ

أَلَّفَ حمزةُ وعمرُ في إسلامِهما سدَّينِ منيعَينِ في وَجْه مَنْ أرادَ القَضاءَ على محمدٍ أو النَّيلَ منهُ . .

وأيُّ بطلَيْنِ ! ! بلْ أيُّ عظيمينِ ! ! وأيُّ خبرٍ يَسْري الآنَ في قريشٍ ! ! كيفَ سيتلقَّى المُسْتكبرونَ جهارَةَ عُمرَ الأروعِ ؟ تابعوا القراءةَ يا أحبَّائي لتعْلَموا أثَرَ ما فعلَهُ عُمَرُ . . ونتائجَ جهرِهِ بدعوتِهِ ، واسْألوا اللهَ أنْ يَعْمُرَ قَلْبَنا بالإيمانِ ، بَلْ بإيمانٍ مثل إيمانِ ابْنِ الخطَّابِ . .

يا لَلْمُفاجَأَة ! ! ؟

لقدْ أُصيبتْ قريشٌ بالذُّهولِ بعْدَ أنْ جهرَ عُمَرُ بإسلامِهِ ، حتَّى خرجَ رجالُها دونَ وعْيٍ مجتمعينَ حَوْلَ عُمَرَ يقاتلونَهُ ، ويَشْتمونَهُ ، وهُمْ لا يَدْرونَ فيمَ يُقاتلونَهُ ، حتَّى تعبَ البطلُ قليلاً ، وقعَدَ على الأرضِ ، بعد أنْ أشْبَعَهُمْ غيظاً وحُرْقَةً في صُدُورِهِمْ ، والأكثرُ مِنْ هَذا أنَّ عُمَرَ يذهبُ بعدَ ذلكَ إلى خالِهِ أبي جهلٍ ألدِّ أعداءِ الرسولِ ﷺ ، فيطرقُ عليْهِ بابَهُ ويقولُ : (إنِّي أسْلمْتُ ، وآمَنْتُ بمحمدٍ) ! ! وينزلُ الذُّهولُ مُضاعَفاً على عَقلِ أبي جهلٍ ، وهُوَ لا يكادُ يصدِّقُ ما يسمَعُ . وممَّا زادَ الأمرَ على الظَّالمينَ إذْهالاً أنَّ عمرَ بدأَ يُصلِّي ومَعَهُ المسلمونَ جَهْراً أمامَ الكعبةِ ، وهَذا نَصْرٌ طالما حَنَّ المؤمنونَ إلى تحقيقِهِ شَوْقاً بالعبادةِ الحقيقيَّةِ دونَ خوْفٍ . وكَمْ هي جميلةٌ تلكَ الصَّلاةُ في صفٍّ واحدٍ متراصٍّ تحتَ سَمْعِ القَوْمِ وبَصَرِهِمْ ! ! .

تَدَرُّجٌ في العَداوَةِ

وتطيرُ العقولُ مِنَ الرُّؤوسِ ، ويطيرُ معَها صَبْرُ قريشٍ ، ويعْصفُ بتفْكيرِها عصفٌ شديدٌ مِنَ الجنُونِ . . إنَّهُمْ لَمْ يكونوا في أوَّلِ الدَّعْوةِ يحسبُونَ لها الحِسابَ الكبيرَ ، وكثيراً ما تَظاهروا أنَّ أمْرَ الدَّعوةِ لا يشكِّلُ خطَراً عليهِم ، لكنَّهمْ بَعْدَ أنْ رَأَوُا النَّاسَ تلتفتُ حوْلَ رسولِ اللهِ ﷺ شَيْئاً فشَيْئاً ، بدَؤُوا حرْبَهم بالاستهزاءِ والضَّحكِ ، ثُمَّ بالتَّهديدِ والثَّورةِ ، وبعدَها صبُّوا نارَ غَضَبِهم على المؤمنينَ حيْثُ أذاقوهُمْ ألْوانَ العذابِ ما اسْتطاعوا ، ووصلَتْ عداوتُهُم الأوجَ ، حيثُ أخذوا يُؤذُونَ رسولَ اللهِ ﷺ ، وأخيراً . . وقَعوا في أشدِّ حَيْرتِهم وقَلَقِهِم إذْ آمَنَ أسدُ اللهِ حَمْزةُ ، والفتى الأرْوعُ عمَرُ ! ! فما العملُ الآنَ ؟ وهَلْ يُغيِّرونَ مِنْ خِطَّتِهِمْ وطَريقةِ عداوَتِهِمْ ؟ .

مُساوِمٌ كَبيرٌ

وانْتهى بهِمُ التَّفكيرُ إلى أنْ يُرسِلوا إلى محمدٍ ﷺ سَيِّداً مِنْ ساداتِهِم هُوَ : (عُتْبَةُ بْنُ ربيعَةَ) يفاوضُهُ ، ويجرِّبُ معَهُ الطَّريقَةَ السِّلميَّةَ مِنْ جديدٍ ، ولكنْ أنَّى لَهمْ أنْ يَفْهَموا السِّلْمَ والسَّلامَ بعد الذي صَنَعوهُ مِنَ التَّعذيبِ والاضطهادِ ضِدَّ المؤمنينَ الصَّابرينَ ؟ .

ويصِلُ عتبةُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، ويقولُ لَهُ ناصِحاً حسَبَ زعْمِهِ : (يا بْنَ أخي . إنَّكَ منَّا حيثُ عَلِمْتَ مِنَ المكانَةِ في العَشيرةِ ، وإنَّكَ قدْ أتَيْتَ قَوْمَكَ بأمْرٍ عظيمٍ ، فرَّقْتَ بِهِ جماعتَهُمْ ، وعِبْتَ بهِ آلهتَهُمْ

ودينَهُمْ ، فإنْ كُنْتَ تُريدُ مالاً جمَعْنا لَكَ ، أَوْ شَرَفاً ومُلْكاً مَلَّكْناكَ علينا ، وإنْ كنْتَ متبُوعاً مِنَ الجِنِّ طَلَبْنا لَكَ الطِبَّ لِتَشْفى) . ومَضَى لسانُ عُتْبَةَ يتكلَّمُ ويحكي ، ويَنصحُ ! . ورسولُ اللهِ ﷺ يسمعُهُ ، وينصتُ لَهُ حتَّى انْتَهى . .

اسْمَعْ يا أَبا الوَليدِ

فقالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : أَوَقَدْ فَرَغْتَ يا أَبا الوَليدِ ؟ قالَ : نَعَمْ . قالَ : فاسْمَعْ مِنِّي . وتَلا عليْهِ الرَّسُولُ ﷺ مقطَعاً مِنْ سُورَةِ (فُصِّلَتْ) . . التي تحْكي عَنْ إعْراضِ المُشْرِكينَ وبُعْدِهِم عَنِ الحَقِّ ، ونتيجةِ إعراضِهِم هَذا ، وتَعْرِضُ إنذاراً لمنْ لا يريدُ اتِّباعَ الصَّوابِ ، وتَنديداً بالذينَ لا يُريدونَ أَنْ يَفْهموا كتابَ اللهِ ، ولا يسمعونَ آياتِهِ ، ولا يستجيبونَ لِدَعْوتِهِ ، ومِنْ بينِهِمْ (أبو الوليد عتبةُ بْنُ ربيعةَ) ، هٰذا المساوِمُ الكبيرُ الذي ظنَّ أنَّ رسولَ اللهِ طامعٌ يَسْتَهْويهِ المالُ والملكُ والجاهُ ، أَوْ مريضٌ يتطَلَّبُ الشِّفاءَ .

وعندما انتَهى الرسولُ ﷺ مِنْ تلاوةِ القرآنِ قالَ متابعاً : (قَدْ سَمِعْتَ يا أبا الوليدِ فأنْتَ وذاكَ) . أَيْ ها أَنْتَ ذا قدْ وَعَيْتَ جَوابي ، فأتْرُكُكَ تختارُ لِنَفْسِكَ ما تشاءُ .

أَطيعُوني وَاتْرُكوهُ

ويقومُ عُتْبَةُ عائِداً إلى كُفَّارِ قريشٍ ، وعلى وَجْهِهِ علاماتٌ جديدةٌ لَمْ يذهَبْ بها ، فقالَ بعْضُ مَنْ رآهُ : نَحْلِفُ باللهِ لَقَدْ جاءَكُمْ أبو الوليدِ

بغيرِ الوَجْهِ الذي ذَهَبَ بِهِ ، فَلَمَّا جَلَسَ إليهم قالُوا : ما وراءَكَ يا أبا الوليدِ ؟ قالَ : وَرائي أَنِّي سمعْتُ قَوْلاً ما سمِعْتُ مثْلَهُ قطُّ ، لا هُوَ بالشِّعْرِ ولا بالسِّحْرِ ولا بالكَهانةِ ، يا مَعْشَرَ قريْشٍ أَطيعوني واتْرُكوا هٰذا الرَّجُلَ ، فإنْ كفَاهُ غَيرُكُمْ مِنَ العربِ قبلتُمْ ، وإنْ انتصَرَ أمرُهُ فنصرُهُ نصرٌ لَكُمْ ، وعِزُّهُ عِزُّكم ، وكنتُمْ أسعَدَ النَّاسِ بِهِ . قالوا لَهُ : لَقَدْ سَحَرَكَ واللهِ يا أبا الوليدِ ، لقَدْ سحَرَكَ بلسانِهِ ! ! قالَ : هَذا رَأْيي فيهِ ، وقَدْ سمعْتُ وأجبتُكُمْ ، فاصْنَعوا ما بَدَا لَكُمْ وافْعَلوا ما تُريدونَ ! ! .

دِراسَةٌ خَفِيَّةٌ

وأَيقنَ الجميعُ في نفوسِهم أَنَّ محمّداً رسولُ اللهِ حقاً وصِدْقاً ، لا يطلبُ المالَ والجاهَ ولا الملْكَ والسُّلْطانَ ، وكُلُّهم عَرفَ محمداً في صِغَرِهِ وشبابِهِ أَنَّهُ أَصْدَقُهم حَديثاً ، وأَعظَمُهم أَمانةً ، واليومَ حاوَلوا معهُ بشتى الأساليبِ أَنْ يَطْمسوا مِنْ دَعْوتِهِ وإيمانِهِ .

لقَدْ فَهِموا أَنَّ رَجُلاً مثلَ محمّدٍ لا تُغْريهِ الدُّنْيا ؛ ولا بدَّ وأَنْ يكونَ رسولَ حقٍّ ، وأتباعُهُ أَتْباعَ حقٍّ ، وقَدْ دخَلَ فيهم أَبو بكر وعثمانُ وتبعَهُمْ عُمَرُ وحَمْزَةُ ، وكُلُّهُمْ عاقِلونَ مُدْركون مِنْ سادةِ القومِ ، ووجدَ زُعَماءُ قريشٍ أنفسَهُم بعد هذا التَّحليلِ مُفْلِسين تماماً في جَلْبِ محمدٍ نَحْوَهم ، بَلْ إنَّ أجسامَهمْ لَتَنْساقُ إلى بيتِ رسولِ اللهِ يستمعونَ للقرآنِ خِفْيَةً ، فيتقابلونَ أمامَ البيْتِ مصادفةً عدَّةَ مرَّاتٍ ، ومنهُمْ أبو جهلٍ وأبو

سفيانَ، وعيونُهم لا تكادُ تُصَدّقُ انسياقَهم واجتماعَهم .

بَيْنَ اثْنَتَيْنِ

وغَدتْ قريشٌ بينَ اثنتَينِ : إمّا أنْ تعترِفَ بأنَّ محمداً رسولُ اللهِ ، وإمّا أنْ تمحُوَ ذكرَه منَ الوُجُودِ بقتْلِه . . نَعَمْ يا أحبّتي . . لَيْسَ أمامَها طَريقٌ ثالثة ، ولكنَّ الزُّعماءَ يُفكِّرونَ والكِبارَ يَدْرسون الأمرَ ، أَمِنَ المعْقُولِ أَنْ يَعْترفوا وتعترفَ قريْشٌ كلُّها ، وتُذْهِبَ عنهَا النِّعمَ التي تُحصِّلها مِنْ وراءِ كُفْرِها وزعامتِها ؟ وهَلْ مِنَ المعْقُولِ أيضاً أنَّ قريشاً ستَستطيعُ محْوَ دعوةِ محمدٍ منَ الوُجُودِ؟

لقَدْ صَعُبَ عليها الأمْرُ الأَوّلُ ، ولَمْ تَقْدِرْ على الأمْرِ الثاني على الرغْمِ منْ كُلِّ ما بذلَتْهُ مِنْ عَداوةٍ واضْطهادٍ وتعذيبٍ ووحشيّةٍ ، بَلْ وجدتْ أنَّ العَكْسَ هُوَ الذي يحدُثُ ، فالدِّينُ ينتشِرُ ، وأتْباعُهُ يكثُرُون ، ويزدادُون برجالٍ عُظَماءَ كعُمرَ وحمزةَ وعثمانَ وأبي بكرٍ . . إنّهُمْ بيْنَ اثْنَتَيْنِ، ولكنْ هيْهاتَ أنْ يحققُوا واحدةً مِنْهما ! !

مَوانعُ الإيمانِ

كلُّ أفْرادِ قريشٍ ممّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بمحمّدٍ ، يَشْعرون أنَّ موانِعَ عديدةً تُبعدهُمْ عَنِ الإيمانِ ، مَعَ ما عرفُوا مِنْ صِدْقِ محمدٍ وازْديادِ أتْباعِه . .

أَوّلُ هذِهِ الموانِعِ وأهمُّها هُوَ (الحَسَدُ) : يحسُدونَ الرّسولَ ﷺ على منزلتِه العظيمةِ ، ويقولونَ في أنفسِهِمْ : (لَو اختارَ اللهُ أحداً غيرَهُ مِنْ

قبيلةٍ أَوْ أُسْرةٍ أُخرى . . ثُمَّ إنَّ سِنَّ مُحمّدٍ الذي كانَ شَابّاً مُنْذُ سنواتٍ ولَيْسَ لَهُ مِنَ الزّعامةِ السّابقةِ شيْءٌ لاتَسْمح لَهُ باسْتلامِ هٰذا المنصبِ مِنَ اللهِ ، ولَمْ يَتعوّدِ الزُّعماءُ في قريشٍ إلا أَنْ يتْبَعَهُم النّاسُ مِنْ وَرائِهم) .

وَيرَى بعضُهم فَقْرَ محمّدٍ مانعاً مِنْ موانعِ الإيمانِ ، فالغنى في المالِ هُوَ مقياسُ الجاهلين يا أحبّتي ، وأخيراً فقدْ كانَ يمنعُهمْ شيءٌ ثالثٌ مُضْحِك . . اسمعوا ما هوَ : قالُوا : (إنَّ محمّداً مثْلُنا ، بشَرٌ يأكُلُ ويشْرَبُ ويَمْرَضُ ، والرسولُ لا يَنْبَغي لهُ أَنْ يَفْعلَ كُلَّ هٰذا ! !) .

لا تَسْمَعُوا هٰذا القرآن

أَرَأَيتمْ سُخْفَ تفكيرِ قريْشٍ ؟ لَقَدْ رأَتْ نفْسَها وهِيَ توجِدُ المعاذيرَ والمبرِّراتِ لكُفْرِها بمحمّدٍ ، بعدَ أنْ أدركَتْ مُوقِنَةً صِدْقَهُ وصوابَ رأْيِهِ.. والآنَ ، ماذا ستَعْمَلُ ؟ عودةٌ إلى نغمةٍ قديمةٍ للتّشكيكِ في نُبوّةِ محمّدٍ ! كيْفَ ؟ يقولون لكلِّ مَنْ يُريدُ أنْ يُؤمِنَ : (إنَّ محمّداً بشَرٌ ، وفقيرٌ ، وساحرٌ . ومجنونٌ ، وشاعِرٌ ، فلا تَسْمعوا للقرآنِ الذي يَزعُمُ نُزولَهُ عليْهِ ، واعْلَموا أنّهُ لَيْسَ مِنْ عنْدِ اللهِ بَلْ يسمعُهُ مِنْ آخرينَ ، ويكتبونَهُ لَهُ ، وسَتجدون عنْدَهُ العجائِبَ ، حَيْثُ يُخبركُمْ أنّكُم مبعوثُون ليوم عظيم هُوَ يومُ القيامةِ بعْدَ أنْ تفْنَى أجسادُكم تَحْتَ الأرضِ . .) . . ولَمْ تَستفِدْ قريشٌ مِنْ هٰذا كُلِّهِ ، بَلْ تَشَجّعَ النَّاسُ على الدُّخولِ في الإسْلامِ أكثَرَ . . وبدأَتْ عقولُ قريشٍ تفكِّرُ لتَخترِعَ سِلاحاً جَديداً ، والحَيْرةُ ما تزالُ تأكُلُ نُفُوسَ أَفْرادِها . .

قصص

السيرة النبوية

٢٠

مرارة المقاطعة

على مَوْعِدٍ معكُمْ

بعدَ السَّلامِ عليكمْ ، أُرَحِّبُ بِكمْ يا أحبَّتي وأُجيبُ عن السُّؤال الجديدِ الذي يقولُ : (طَالَما أنَّ قريْشاً قَدْ حارَت ، وفشِلَتْ في تَشْكيكِها برسالةِ محمّدٍ ، وطالما أنَّ كُلَّ ما اسْتعملَتْهُ مِنْ وسائِلِها معَ النَّبيِّ وصَحْبِهِ من الإغْراءِ والسُّخْريةِ والتَّعذيبِ والدِّعايَةِ لمْ يُجْدِها نَفْعاً ، ولَمْ يَصْرِفِ النَّاسَ عَنْ دَعْوةِ الإسْلامِ ، فما السَّلاحُ الجديدُ الذي ستَسْتَعْمِلُهُ وَقَدْ أُسْقطَ في أَيْديها ؟) .

الجوابُ يا إخوتي طويلٌ ، فعليكُمْ بالصَّبْرِ قليلاً ، وسَتَجدونَهُ معروضاً بشكلٍ جميلٍ ومبسَّطٍ واضحٍ على الصَّفحاتِ القادِمةِ ، وكُلِّي ثِقَةٌ بكُمْ أنَّكم ستقرؤُوْن مع الفَهْمِ والتَّدبُّرِ ، دون أنْ يَفُوتكُمْ شيءٌ مِنَ الفائدَةِ الحلْوةِ .

مَعَ ابْنِ مَسْعُودٍ

يَبْدأ الجوابُ يا أحبَّتي بأنَّ قُريشاً لم تَعُدْ تتحمَّلُ جهْرَ المسلمينَ في صَلاتِهِمْ ودَعْوتِهِمْ ، وممَّا زادَهُم ضِيقاً أنَّ أصْحابَ رَسُولِ اللهِ بَدؤُوا يُسْمِعونَها القرآنَ الكريمَ جَهْراً أَيْضاً ، فهٰذا هُوَ عَبْدُاللهِ بْنُ مسعودٍ يقفُ على أَنْدِيةِ قريشٍ ، ويقولُ بأَعْلىٰ صَوْتِهِ : ﴿ بسم الله الرّحمن الرحيم . ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ ﴾ واستمرَّ في قراءةِ سُورةِ

الرَّحْمنِ ، وقريشٌ تضربُهُ حَتَّى أَدمَتْ وجهَهُ وهُوَ صامِدٌ لا يتراجَعُ ، ويطلُبونَ منْهُ السُّكوتَ فَيَأْبى ، ويَزيدونَ في ضَرْبِهِ وَهُو يقْرأُ حَتَّى أَتمَّ السُّورةَ ، وعادَ وقَدْ أوجعتْهُ الضَّرباتُ ، وأَثْخَنتْهُ الجراحُ ، واضِعاً يَدَهُ عَلَى أُذُنِهِ التي كادَتْ تُقطعُ على يدِ أَبي جهلٍ — أخزاهُ اللهُ — ، وكيفَ لقريشٍ أَنْ تسكُتَ ، وقَدْ رأَتْ جُرأَةَ واحدٍ مِنَ المسلمين ، لَيْس بحمزَةَ ولا بعمرَ بنِ الخطَّابِ ، وإنَّما هُوَ عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ . . أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بالقرآنِ بعد رسولِ الله ﷺ ؟

آياتٌ دامِغَةٌ

ويشتدُّ العداءُ بين المُسْلمينَ والمشركينَ ، ويشتدُّ معَهُ نزولُ القرآنِ . . . آياتٌ وسُوَرٌ تَدمغُ قريْشاً وتُؤْذي كِبْرياءَها أشَدَّ الإيذاءِ ، آيةٌ تتحدَّاهُمْ بأَنْ يأْتوا بمثْلِ هَذا القرآنِ ، وسورةٌ تُنْذِرُهُم بالوعيدِ إنِ استمرُّوا في الكُفْرِ والطُّغيانِ ، وآياتٌ تطلُبُ منهُمْ البُرهانَ عَلى زَعْمِهم وادِّعاءاتِهمْ ضِدَّ محمّدٍ ورسالتِهِ . وممَّا نَزَل في مجالِ هذا التَّحدِّي قولُهُ تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

كلامٌ صريحٌ يطلُبُ منهمْ كلاماً كالقُرآنِ ولو عشرَ آياتٍ وباللُّغةِ العربيَّةِ التي يُتْقنونَها ، إنْ كانُوا يَزْعمون أَنَّ محمَّداً هُوَ الذي يقولُ القرآنَ

مِنْ عِنْده .

لَكِ يا قُرَيْشُ

وكانَ لا بُدَّ لقريشٍ أَنْ تَقْبلَ هٰذِهِ الإهاناتِ ، لأَنَّها لا تَستطيعُ رَدَّها أَبداً ، ولكنَّها تَقْبلها وَصُدورُ القومِ قَدْ طَفَحَ فيها الغَيْظُ والحقْدُ ، وغيرُ هذا صَعْبٌ عليهم ، فلا يتمكَّنُونَ مِنْ رَدِّ الحجَّةِ أَوْ دمغِ البُرْهانِ بالبُرْهانِ . . وظَلَّتْ قريشٌ تغلي وتفورُ أمامَ هذهِ الحُجَجِ الدّامغةِ ، والبراهينِ السَّاطعةِ . وتصَوَّرُوا مَعي يا إخوتي اليَأْسَ الذي كادَ أَنْ يقتُلَ النُّفوسَ الكافرةَ ، وكأَنَّ شبَحاً يقفُ عَلى رأسِ كُلِّ واحدٍ منهُمْ وهوَ يقولُ : لَكِ يا قُرَيْشُ هٰذا التَّحدِّي ! ! لَكِ يا قُرَيْشُ هذا النِّداءُ ، لَكِ يا قُرَيشُ هَذا القرآنُ . . ومحمّدٌ نَشَأَ فوقَ أرضِكِ ، ورسالتُهُ صحيحةٌ ، وتدركونَ ذلكَ ، ولكنَّكُمْ ما زلتُمْ تكفُرونَ به مَعَ تأكُّدِكُمْ مِنْ صِدْقِ قَوْلِهِ ونبوَّتِهِ ، فإلى مَتى يا قُرَيشُ ؟ إلى مَتى هذا البُعْدُ عنِ الحَقِّ ؟

سَنُقاطِعُهُمْ أَبَداً

واستنفَدَتْ قريشٌ كُلَّ ما في استطاعتِها مِنَ الصَّبْرِ ، وكلَّ ما في قُدْرتِها مِنْ وَسائلِ الإرْهابِ والتَّخويفِ دُونَ أَيَّةِ فائدةٍ ، وهُنا اجتمَعَ أُولُو الرأْيِ مِنَ الكُفَّارِ أمثالِ أبي جهلٍ ، وصمَّموا على حَلٍّ جديدٍ يختلفُ كُلَّ الاختلافِ عمَّا سبقَهُ ، ولا يُعادُونَ فيهِ إلا بني هاشمٍ أجمعين، وتعاهَدُوا فيما بينهُمْ على أَنْ تُقاطِعَ قريشٌ أَهْلَ النَّبيِّ وعشيرتَهُ كُلَّها ،

ووافقَ الكفّارُ على ما رآهُ زعماؤهُمْ وحاولَ كلٌّ منهم أنْ يُقنعَ نفسَهُ عَمداً وزُوراً بأنَّ الحلَّ النّاجحَ هُوَ المقاطَعةُ .

وسَرىٰ بين النُّفوسِ أنَّ الحَلَّ سوْفَ يُنفَّذُ بكلِّ حَزْمٍ وإصرارٍ ودونَ أيِّ تراجُعٍ مِنْ أيِّ رجلٍ أو زعيمٍ أو أُسرةٍ ، وبدأتِ العُقولُ تُفكِّرُ في كيفيةِ هذهِ المقاطعةِ ، وفي الأُمورِ التي ستَتدخلُ فيها مِنَ النّواحي الحياتيّةِ .

صَحِيفةٌ علىٰ الكَعْبَةِ

وانْتهىٰ التّفكيرُ الشّنيعُ ببنودٍ شنيعةٍ بَشِعَةٍ ضِدَّ بني هاشمٍ تقولُ :

١ ـ لا نتزوَّجُ منهم ، ولا يتزوَّجُون مِنّا أبداً .

٢ ـ ولا نَبيعُهم شيئاً ، ولا نَبْتاعُ منهمْ شيئاً .

٣ ـ ولَنْ ننقضَ هذا العَهْدَ ، أوْ يَسْمحَ أحدٌ لأحدٍ في نَقْضِهِ .

لقد كتَبُوا هـذا في صَحيفةٍ ، وتَعاهدوا وتَواثقوا على ذلكَ ، وبَدَؤُوها باسْمِ الله . . فيا للعَجبِ ! ! ثم عَلّقوا الصّحيفةَ في جَوْفِ الكَعْبةِ توكيداً على أنْفسِهم . وتَعْلمونَ يا إخوتي ما للأَمرِ مِنْ أثرٍ إنْ وَصلَ إلى تَعليقِهِ على الكعبةِ أوْ في جَوْفِها ، فالكعبةُ تحملُ مِنَ المكانةِ في نُفوسِ أَهْلِ القَبائلِ كُلِّها ولا سيّما قبيلة قريْشٍ ، ما لا يَحْمِلُهُ مَكانٌ غيرُها مِنَ الإجْلالِ والتَّقديسِ ، لذلكَ كانَ تعليقُهم للصّحيفةِ عليْها كالْقَسمِ والحلْفِ باللهِ علىٰ تَنْفيذِ ما تمَّ عليهِ العهدُ .

شِعْبٌ في الجَبلِ

ويعلَمُ بَنُو هاشمٍ جميعُهم بأَمْرِ الصَّحيفةِ ، وكانَ أَبُو طالبٍ وقْتَها في شِعْبٍ جَبَليٍّ يجلسُ فيهِ بعيداً عَنْ سُخْرية قريشٍ ، فلَمْ يَجِدْ نَفْسَهُ إلا وأَهْله وعَشيرتهُ داخِلُون عليهِ في الشِّعْبِ ، واجْتمعوا هناكَ معَهُ يذكُرون له الخبرَ ، فلَمْ يتفاجأْ أبو طالبٍ بهذا ، بلِ استقبلَ كلَّ مَنْ وَصلَ ، وحثَّهم على الصَّبرِ ، وهُوَ يَعْلمُ أنَّ أمْرَ الرَّسولِ حَقٌّ ، ورسالتَهُ رسالةُ صِدْقٍ ، ولكنْ هَلْ تَعلمونَ يا أعزّائي مَنِ الرَّجُلُ الذي لم يدخُلْ معهمْ في هذا الشِّعبِ ؟ هل تذكَّرتم اسمَهُ ؟ إنَّهُ أبو لهبٍ عمُّ رسولِ اللهِ ﷺ ، أبو لهبٍ الذي عرفْتموه في حلْقَةٍ ماضيةٍ عدوّاً لدُوداً لرسولِ الله ، أَبى أنْ يدخُلَ مَعَ آلِ هاشمٍ ، بَلِ انضَمَّ إلى الكفّارِ قائِلاً : (أنا معكمْ ، ضِدَّ ابنِ أخي محمّدٍ ، وضِدَّ أخي أبي طالبٍ) .

صَبْرٌ على الضِّيقِ

وفرِحَتْ قريشٌ بسلاحِها الجديدِ وظَنَّتْ أنَّهُ سوْفَ يُجبرُ بني هاشمٍ على تسليمِ محمّدٍ إلى الكفّارِ ليقتُلوهُ ، ولكنَّ بني هاشمٍ برئاسةِ محمّدٍ وأبي طالبٍ ، أَبَوْا إلا الصُّمودَ والصَّبرَ على ما هُمْ عليهِ مِنَ الضِّيقِ ، وقبعوا هُناكَ مَعَ نسائهم وأطفالِهم ، لا يتَّصلُ بهمْ أحدٌ مِنَ القومِ ، ولا يتَّصلونَ بأحدٍ ، ولا يصلُ إليهمْ طعامٌ أوْ شرابٌ . . إنَّهُ لعذابٌ شديدٌ مِنَ الكُفّارِ الذينَ وكأنَّهُمْ يذوقونَ فيهِ طعْمَ الانتصارِ والفرَحِ ، وكانَ

أَلسنتَهُمْ تلهَجُ بالغِبطَةِ ، وتحكي فِعْلَتَهُمْ لكُلِّ مَنْ يأْتيهم مِن العَرَب : (لقَدْ حصرناهم ، وقاطعناهُمْ ، وحَبَسْناهم عنْ كلِّ شيءٍ ، فلْيَأْكُلُوا مِنْ قُرآنِهِم ، ولْيَصْبروا إنْ أَرادوا ، ولسوفَ نُجْبِرُهُمْ ولا شكَّ على ما نُريدُه ، والموْتُ ينتظرهُمْ إنْ رفَضُوا أَوامِرَنا) .

عُيُونٌ بالمِرْصادِ

ويا لَيْتَ الأَمْرَ اكْتَفى بهم عنْدَ هٰذا ، بلْ كانَ الإحكامُ يشتدُّ يوْماً بعْدَ يوْمٍ فوْقَ الحصارِ ، حيثُ كانوا يرصدونَ مَنافِذَ الشِّعبِ حتّى لا يُهرِّبَ أحدهم الطّعامَ لمَنْ همْ داخلَهُ . وبالَغُوا في قسْوتِهم حتّى لم يتركوا لَهُمْ طعاماً في مكَّةَ إلا واشتروْهُ قَبْلَهُم ، وزعيمُ هٰذا أبو جهْلٍ وأبو لهبٍ ، (فالأولُ دائمُ اليقظةِ والنَّشاطِ ، وهوَ يحلمُ بأنَّ محمّداً سيَتخلَّى عَنْ دعوتِهِ ، وبالتالي سيُقْضَى علَى الدَّعْوةِ بعْدَ ذلِكَ) ، (والثّاني أبو لهبٍ ، الذي كانَ يُحرِّضُ التُّجار على أنْ يَدفعوا أكثرَ لشراءِ البَضائعِ خشْيَةَ أَنْ يشتريَها بَنُو هاشمٍ ، وأَنْ يُغالوا في طَلَبِ الثَّمنِ مِنْ أَصْحاب محمّدٍ إنْ أَرادوا الشِّراءَ) . ويَرْجعُ الرّجُلُ مِنْ أهلِ الرسولِ وعشيرتِهِ إلى أطفالِهِ دُونَ أَنْ يستطيعَ الشِّراءَ ، فيجدُهُمْ وقَد ازْدادُوا صُراخاً وأَلماً مِنَ الجُوعِ .

يا لَلْعُقُوبَةِ الشَّنيعَةِ ! ! ؟

واستمَرّتِ المُقاطَعةُ ثَلاثَ سِنين ، والحصارُ ما زالَ حوْلَ بني هاشمٍ ظُلْماً ، حتّى اشتدَّ بهمُ البَلاءُ فاضطرُّوا أنْ يأْكُلُوا أشياءَ أشْبه بعلفِ

الحيواناتِ مِنْ شدَّةِ الجوعِ ، ووصَلَ صُراخُ أطفالِهِم مِنْ وراءِ الجبلِ إلى آذانِ الحجّاجِ مِنَ العَربِ ، وذَاعَ نَبأُ القطيعةِ بين المسافرِينَ ، وأخذَ الجميعُ يتساءلونَ عَنْ خَبرِ الدَّعوةِ التي حوصِرَ المُسْلمونَ بسَبَبِها .. ودونَ أَنْ يَشْعُرَ أفرادُ قريشٍ صارَ للنَّاسِ فَهْمٌ بالإسلامِ ، وصارَ الحجّاجُ والمسافرونَ يمرُّونَ مِنْ مكَّةَ وهُمْ يتعجَّبونَ مِنْ هٰذهِ العقوبةِ الشَّنيعةِ التي فرضَتْها قريشٌ على آلِ الرسولِ وأُسْرتِهِ ، وحمدَ الرَّسولُ رَبَّهُ عزَّ وجلَّ على أَنْ ذاعَ صيتُ الدَّعْوةِ والحصارِ . . وبدَأَ النَّاسُ يهتمُّونَ بأَمرِهِ وأَمْرِ رسالتِهِ وأَمْرِ بني هاشمٍ .

لَقَدْ فَشِلْنا

وانعَكَس التَّقْديرُ الذي قدَّرتْهُ قريشٌ ، ورأتْ بأُمِّ عَيْنِها أنَّ الدَّعوةَ الإسلاميَّةَ قدِ انتشرتْ على الرَّغمِ منهم ومِنْ قساوةِ أعْظمِ سلاحٍ استعملوهُ وهُوَ المقاطعَةُ ، فها هم أولاءِ النَّاسُ يتتبَّعونَ أخبارَها ، ويَنتشرُ بينهم ما أرادَتْ قريشٌ أنْ تُخفيَهُ عنهمْ مِنْ أَمْرِ الرّسولِ ودَعْوتِهِ ، وخرجَتْ أنباءُ المحصورينَ عَنْ نِطاقِ مكَّةَ ، وتسامعَتْ بهمْ وبعقيدتِهِم قبائلُ العربِ في الباديةِ والحاضِرَةِ ، وأدركَتْ قريشٌ أنَّ فشَلَها قدْ كانَ ذريعاً ، وعظيماً جدّاً ، وأنَّها لمْ تَصِلْ إلى غايتِها ، وأنَّ بني هاشمٍ قدْ صَبَروا للمحنةِ كِراماً ، واحتَمَلُوها بعزَّةٍ ، وأنَّ العربَ قدِ استنكروا منها هٰذهِ العقوبةَ الشَّنيعةَ ، وخشيتْ بعدَ ذلكَ أنْ ينالَ الخيرُ مِن كرامتِها

وسُمْعتِها بينَ العربِ ، وأخذتْ نفوسُ الكُفّارِ تحدِّثُهم قائلةً : (لَقَدْ فَشِلْتم ، فارْفعوا الحصارَ) .

خِلافٌ بَيْنَهُمْ

وبَدَأَ الخلافُ يدبُّ بينَ الزُّعماءِ مِنْ قُرَيشٍ ، بعد أنْ شعرَ أكثرُهُم بوخزِ الضَّميرِ ، وبسُوءِ ما صَنعوهُ ، فجعَلَ بعضُهم يَتداركُ الأمْرَ سِرّاً فيرسِلُ للمحصورينَ ألْوانَ الطَّعامِ ، وقامَ بعضُهم الآخرُ بالدِّفاعِ عَنْ مثلِ هٰذا العملِ بعْدَ أنْ هَمَّ المتطرِّفون بقَتْلِ مَنْ يفعلُهُ . . ويشتدُّ الخلافُ ، ويصِلُ الأمْرُ بأبي جهلٍ أنْ يمنعَ قَسْراً بعضَ الطَّعامِ مِنَ الدُّخولِ إلى الشِّعبِ ، ويتقاتَلَ مَعَ رجلٍ اسمُهُ (أبو البَخْتريّ) ، وينالُ هذا الأخيرُ مِنْ أبي جهلٍ ، ويَضربُهُ بعظْمِ بعيرٍ ، فيشجُّهُ ، ويدوسُهُ بقدميْهِ دَوْساً شديداً حتّى سَمَحَ لهُ بإدْخالِ الطَّعامِ . .

هٰذا الخلافُ يا أحبَّتي سببُهُ أنَّهم قدْ أقدَموا على المقاطعةِ دُونَ اقتناعٍ كاملٍ مِنْ ضمائرِهِمْ ، وإنَّهم ليُدْركونَ بشاعةَ عملِهم ، لذلكَ أخذَتْ بُنودُ المعاهدةِ الكافرةِ تتحلَّلُ وتموتُ شيئاً فشيئاً .

أَبْشِرْ يا مُحَمَّدُ

وينزِلُ جبريلُ على الرّسولِ ﷺ وسْطَ الشِّعبِ قائلاً لهُ : (أبْشِرْ يا محمّدُ ، فلقَدْ جاءَ الفرجُ بعدَ طولِ الصَّبرِ على الضِّيقِ ، وإنَّ الصَّحيفةَ التي علَّقوها قَدْ ذهَبَ كلامُها الشّنيعُ ، وبقيَ ذِكْرُ اللهِ مكتوباً . .)

وذَكَرَ الرّسولُ هٰذا لعَمهِ أبي طالبٍ ، فخرجَ الجميعُ إلى المسجدِ الحرامِ ، وقالَ أبو طالبٍ لقريشٍ متحدِّياً : (إنَّ ابْنَ أخي قَدْ أخْبَرَني وَهُوَ صَادِقٌ أنَّ اللهَ قَدْ سَلَّطَ على صَحيفتِكمُ الدُّودَ فأكَلَ ما فيها مِنْ كلامِ الجوْرِ والظُّلْمِ . . وبقيَ فيها كُلُّ ما ذُكرَ بِهِ اللهُ ، فإنْ كانَ ابْنُ أخي صادِقاً فاتْرُكوا القطيعَةَ تَبْعد عَنّا ، وإنْ كانَ كاذِباً أسْلَمْتُهُ إليكُمْ لِتَقْتُلُوهُ) . فَفَرِحَ المستكبرونَ قائلينَ : لَقَدِ اسْتجابوا أخيراً لَنا . . وآنَ وَقْتُ قتْلِ محمّدٍ . . هَيّا يا قومُ إلى الصَّحيفةِ لنرى ماذا حدَثَ ؟

وَانْتَهَتِ المُقَاطَعَةُ

وأسْرَعَ الكُفّارُ ليَروا الخبرَ ، وفتَحوا الصَّحيفةَ أمامَ الكَعْبَةِ ، فإذا هيَ كما قالَ أبو طالبٍ ، وكما أخْبَرَهُ رسولُ اللهِ عنْ جبريلَ ، وهُنا فتَحَ الكفّارُ أفْواهَهُمْ فاغِرين ، وأُسْقِطَ في أيديهم ، وحملَقَتْ أعْيُنُهم في ما حولَها . . وصاحَ أبو طالبٍ فيهمْ بكُلِّ جُرْأةٍ : (وعَلامَ نُحبَسُ ونُحْصَرُ ، وقدْ بانَ الأمْرُ ؟ عَلامَ تُقاطعونَنا ، وهٰذا كلامُ ابْنِ أخي واضِحٌ أمامَكم لا كَذِبَ فيهِ ؟) ثُمَّ التفتَ مَعَ عشيرتِهِ إلى الكعْبةِ ، ورفَعَ يديْهِ إلى السَّماءِ وهُوَ يقولُ : (اللَّهمَّ انْصُرْنا ممَّنْ ظَلَمَنا وقطَّعَ أرْحامَنا) . وعادَ المحاصَرُونَ إلى شِعْبِهم ، وحَزَّ هذا المنظرُ الأليمُ في نفوسِ ذَوي المروءةِ مِنْ قُرَيْشٍ ، فانْتهى الأمْرُ بعدَ طولِ جِدالٍ إلى نقضِ الصَّحيفةِ وتمزيقِها ! وخرَجَ آلُ هاشمٍ مِنَ الشِّعْبِ بعدَ السَّنواتِ الثَّلاثِ . . وكانَ ذلكَ في السَّنةِ العاشِرةِ للدَّعوةِ الإسلاميَّةِ .

قِصَصُ

السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

٢١

دموع لا تجف



مَصْدَرٌ لِلْخَيْرِ

. . وَخرجَ الرَّسولُ ﷺ أخيراً مِنَ الشِّعْبِ الجبليِّ مَعَ أَهْلِهِ وأقاربِهِ، هٰذا ما عَلِمْتُموه في حلقتِنا السّابقةِ، وَأَنا الآنَ معَكُمْ في حلقةٍ جديدةٍ، ستُفيدُنا إنْ شاءَ اللهُ، وأبدؤُها بِبُشْرى للمؤْمنينَ تقولُ: إنَّ الرَّسُولَ بعْدَ الخروجِ مِنَ المرحلَةِ العسيرةِ الشّاقَّةِ، لَمْ يَحْزَنْ على ما فاتَهُ مِنَ الدَّعوةِ إلى اللهِ إذْ كانَ مَحْصوراً مَعَ أَهْلِه، إنَّهُ لمْ يحزَنْ لأنَّهُ عرفَ أنَّ اللهَ قدْ أرادَ لهُ الخيرَ، فالقَسْوَةُ الَّتي لاقاها قدْ وصَلَ خبرُها إلى كُلِّ العرَبِ، فعطَفَ العاقِلونَ مِنْهم على أَصْحابِ الحَقِّ، واهتَمُّوا بالدَّعْوةِ وبِمَنْ يحمِلُها مِنَ الصّابرينَ والعُظَماءِ، ولِهٰذا فقَدْ فرِحَ النَّبيُّ الكريمُ عندَما رأى أنَّ كثيراً مِنَ النّاسِ أَقْبلوا على الإسْلامِ فخورينَ، يحمِلونَ مِنَ الإعْجابِ برسولِ اللهِ ﷺ الكثيرَ، وبمحبَّتِه لنَصْرِهِ وكُلِّ حَقٍّ وصوابٍ.

خَجَلٌ وهُدْنَةٌ

ونظَراً لِهٰذا الإقْبالِ، فقَدْ ظهَرَتْ على وجوهِ الكُفّارِ مِنْ قريشٍ علائمُ الخَجَلِ أَوْ شَيْءٌ مِنَ الخَجَلِ مِنْ سُوءِ ما فعلَتْهُ أيديهِمْ بالرَّسولِ وآلِهِ وأقارِبِهِ، وشعرَتْ قريشٌ بأنَّ قَساوَتَها قَدْ بلغَتْ حَدّاً فظيعاً لا يتحمَّلُه إلّا ذَوُو القلوبِ الكبيرةِ العظيمةِ. لِذٰلكَ فإنَّ هٰذا الخجَلَ قدْ منَعَ قُرَيْشاً مِنَ الاستمرارِ في إيذائها لمدّةٍ مِنَ الزّمنِ، رُبَّما تستعيدُ بِها كانَتْ

عليهِ مكانتُها بيْنَ العربِ ، فَتَراها الآنَ وقَدِ ابتعدَتْ قليلاً عَنْ تعذيبِ المؤمنينَ ، وأَظْهرَتْ نَفْسَها بمظهرِ المُسالمةِ لمحمّدٍ وجماعتِهِ ، ومعْنى هٰذا أَنَّ محمّداً رسولَ اللهِ ﷺ قَدْ وَجَدَ نفْسَه في فرجٍ وسَعَةٍ مَعَ الدَّعوةِ إلى اللهِ والإسلامِ ، ولَيْسَ معنى هٰذا أَنَّ السَّلامَ قَدْ حَلَّ إلى الأبدِ ، ولٰكنَّها كانَتْ هُدنةً مُؤَقَّتةً ، نتيجةَ ضغطٍ ونصرٍ إعلاميٍّ على قريْشٍ وَزعامتِها .

مَرَضُ النَّصيرِ

وخلالَ مُدّةِ الهدنةِ هٰذِهِ ، حَدَثَ ما لم يكُنْ في الحسبانِ ! !

إذا عُدْنا قليلاً إلى الحلقةِ السّابقةِ عرَفْنا أَنَّ أبا طالبٍ كانَ زعيمَ التَّأْييدِ للرّسولِ ﷺ ، وقدْ كانَ أَوَّلَ الدّاخِلينَ إلى الشِّعْبِ ، وقَدْ لاقى أبو طالبٍ الأذى مِنْ قريْشٍ في كلامِهِم لَهُ بِشأْنِ ابْنِ أخيهِ ، وفي الحِصارِ الذي فرضَتْهُ قريْشٌ على أبي طالبٍ وآلِ هاشمٍ ، وإنَّ الضّيقَ والصَّبرَ الكبيْرَيْنِ ، والتَّحمُّلَ النَّفسيَّ الصَّعبَ ، كُلُّ هٰذا قَدِ انْصَبَّ بآثارِهِ ونتائجِهِ على جسمِ أبي طالبٍ ، الّذي شعَرَ بأَنَّ المرضَ يشتدُّ عليهِ ، فلَمْ يعُدْ يرى الدُّنْيا ومفاتِنَها ، وأَدْركَ أَنَّ المرضَ سيأْتي على روحِهِ وحركاتِهِ ، فقعَدَ في بيْتِه ينتظرُ الموْتَ ، ويغالبُهُ ، وثَقُلَ جِسمُ النَّصيرِ ، وأَيُّ نصيرٍ ... إنَّها المرّةُ الأخيرةُ التي تمرضُ فيها يا أبا طالبٍ ، وإنَّهُ لَلْموتُ يُقبِلُ عليكَ مِنْ كُلِّ الجهاتِ .

حِوارُ الزُّعَماءِ

وشعَرتْ قريشٌ بفداحةِ المُصابِ ، وَلا سيّما وأَنَّ أبا طالبٍ لَهُ مكانتُهُ بَيْنَ الزُّعماءِ ، وخشيَ الكبارُ مِنَ القَوْمِ على أَنْفسِهِمْ إذا ما غابَ أبو طالبٍ وماتَ ، وتكلَّمَ أبو جهلٍ بينَهم فقالَ : (تعلمون أَنَّ أبا طالبٍ قَدْ ثَقُلَ وضَعُفَ ، وأَنَّ الهدنةَ لمْ تزِدْ محمّداً إلا صَلابةً وعِناداً على رأْيِهِ ، وما لَنا إلا أَنْ نأْخُذَ حِذرَنا ، ونَحْتاطَ لأَمْرِهِ وأَمرِ دعوتِهِ ، وأَنْ نَحْسِمَ الأَمْرَ قبلَ أَنْ يتفاقمَ ، وإنَّنا لنَخْشى إذا ماتَ أبو طالبٍ دونَ أَنْ نتّفقَ على حلٍّ معهُ . نخافُ ونخْشى أَنْ تقوى شوكَةُ المسلمينَ ويشتدَّ ساعِدُهم ، فما رأيكُم في أنْ يذهَبَ مِنّا وفْدٌ ، فيفاوِضَ أَبا طالبٍ ولآخِرِ مرّةٍ قَبْلَ موْته بشأْنِ ابْنِ أَخيهِ ؟) .

إنّها لَدعوةٌ تَحمِلُ ما فيها مِنَ الشَّرِّ الدَّفينِ .

كَلِمَةٌ واحِدَةٌ

اهتزّتِ الرُّؤوسُ بالموافَقَةِ ، ومَشى رِجالٌ مِنْ أَشْرافِهم إلى أبي طالبٍ ، فقالُوا : يا أبا طالبٍ : إنَّكَ مِنّا حيثُ قَدْ عَلِمْتَ ، وقد حَضَركَ ما تَرى ، وتَخوَّفْنا عليكَ ، وقَدْ علِمْتَ الّذي بيننا وبيْنَ ابنِ أخيكَ ، فادْعُهُ إلى هُنا ، لتَأْخُذَ لَهُ مِنّا ، وتأْخُذَ لَنا منْهُ ، وبذٰلكَ يكفُّ عنّا ونكفُّ عنْهُ . فبعَثَ أبُو طالبٍ إلى محمّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ ، فجاءَهُ ، فقالَ لَهُ : (يا بْنَ أخي ، هٰؤُلاءِ أَشْرافُ القومِ قدِ اجْتمعوا إليكَ ليُعْطوك ويأْخُذوا منك ؟ فماذا تقولُ ؟) فقالَ ﷺ : (كَلِمَةٌ واحِدَةٌ يَا عمِّ ، تُعْطُونِها ، تملكُونَ بِها

العرَبَ، وتدينُ لكُمْ بها العَجَمُ). فقال أبو جهلٍ ساخِراً: عَشْرُ كَلِماتٍ إذا شئْتَ! فأوضحَ لهم رسولُ ﷺ أنه لا يريدُ منهم إلا أن يقولوا: لا إله إلا اللهُ، ويخلعوا ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ.

لَنْ نَرْضىٰ!

وفهِمَ الجميعُ ما أرادَهُ وما يريدُهُ منهم دَوْماً، فصفّقُوا بأيديهم مُسْتهزئين وقالوا: يا محمّدُ.. تُريدُ أَنْ تَجْعَلَ الآلهةَ إلٰهاً واحِداً؟ إنَّ أَمْرَكَ لَعجيبٌ، ثُمَّ قالَ بعضُهُم لبعضٍ: إنَّهُ واللهِ ما هٰذا الرَّجُلُ بمعطيكُمْ شيئاً مِمّا تُريدونَ، فَانْطَلِقوا، وامْضُوا على دينِ آبائِكُمْ، حَتّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بينكُمْ وبينَهُ..).

ثُمَّ تفرَّقَ الأشرافُ، وخرجَ مُحَمّدٌ، وبقِيَ أبو طالبٍ وحْدَهُ، يفكِّرُ في الأَمْرِ، ويصارِعُ المرَضَ الذي تشتدُّ وطأتُهُ عليهِ، وهُوَ يعلَمُ عِلْمَ اليقينَ. بلِ الكلُّ يَعْلَمُ كذلكَ أنَّ مُحَمّداً لم يطلُبْ شيئاً مُنافِياً للعقْلِ والصَّوابِ، وكُلُّ ما طلبَهُ حَقٌّ وصحيحٌ، فاللهُ واحِدٌ، والتَّوحيدُ الحقيقيُّ لَنْ يَكُونَ إلا بتَرْكِ عبادةِ الآلهةِ المزيّفةِ مِنْ أصنامٍ وآباءٍ وغيرِ ذٰلِكَ.

مَرَضُ الأَنيسِ

ويعودُ الرَّسُولُ ﷺ إلى بيْتِهِ، ويقصُّ على خديجَةَ ما حَدَثَ معَهُ، وهو حزينٌ على عِنادِ قومِهِ، وبُعْدِهِمْ عنِ الحقِّ. وَخَيَّمَ على بَيْتِهِ جَوٌّ

مِنَ الوَحْشَةِ، ونَظَرَ في عَيْنَيْ زوجتِهِ، فلمْ يجدْ فيهما بريقَ الْماضي، حيثُ كانَتْ تحميهِ وتثبّتُهُ، وتزرَعُ الحماسَةَ والصَّبْرَ في نَفْسِهِ، وذَرَفَتْ دمعَةٌ ساخنةٌ مِنْ خديجَةَ، وكأَنَّها تتكلَّمُ، وتُخاطِبُ محمّداً بِمَرارةٍ ولَوْعَةٍ وأسىً، وتعبِّرُ عن واقعِ المرضِ الذي أصابَ خديجَةَ مُنْذُ أَنْ كانَتْ في الشِّعْبِ، ولازمَها أيّاماً طوالاً، ولا عَجَبَ فقدْ تحمَّلَتِ الكثيرَ الكثيرَ مَعَ زوجِها رسولِ اللهِ، ولٰكنَّها اليومَ لا تملكُ الدِّفاعَ، ولا تتمكَّنُ مِنَ الكلامِ، فاكتَفَتْ بالدُّموعِ والنَّظراتِ.. وبدأَ الأُنسُ يختَفي قليلاً قليلاً إذِ اشْتَدَّ مَرَضُها، وصَعُبَ عليْها الصُّمودُ والصِّراعُ أكثرَ مِمّا لاقَتْهُ وتحمَّلَتْهُ.

وماتَ الاثْنانِ

ونهايَةُ كُلِّ مَخْلوقٍ معروفةٌ يا أحبَّتي، والرَّسولُ الآنَ بدأَ يشعُرُ بأَنَّ نصيرَهُ أبا طالبٍ، وأنيسَهُ خديجَةَ لن يعيشا طويلاً، فالموْتُ واقفٌ على بابَيْهِما.. وأَرادَ اللهُ أَنْ تنتهيَ الهُدْنَةُ، ويذهَبَ النَّصيرُ والأنيسُ، فَها هوَ ذا العمُّ والنَّصيرُ الكبيرُ يلفظُ أنفاسَهُ الأخيرةَ، وما هيَ إلا خمسَةٌ وثلاثونَ يوماً حَتّىٰ ماتَتْ أيْضاً الزَّوجةُ العظيمةُ والأنيسةُ الكبيرةُ خديجَةُ رحمَها اللهُ ورضيَ عنها، فإلى مَنْ سَيَبُثُّ همَّه وشكْواهُ في بَيْتِه؟.

لقَدْ ماتَ الاثْنانِ، وافتَقَدَ الرَّسولُ بفقدِهِما أعزَّ اثنَيْنِ في حمايةِ حياتِهِ ووجودِهِ ودعوتِهِ، ولمْ يتمالكْ ﷺ نفسَهُ مِنَ البُكاءِ الطَّويلِ المريرِ، والدُّموعُ الغزيرةُ تَنْسَكِبُ على وجْهِهِ وتَذْرِفُها عَيْناهُ، وكلُّ عيْنٍ تَقُولُ

لأُخْتِها : (جُودِي بالدَّمعِ . . عَلى مَنْ أَحَبَّهُما محمَّدٌ ، وَعَلىٰ مَنْ أَحَبّا وَنَصرا مُحَمَّداً).. ولكنْ ... ليْتَ أبا طالبٍ نَطَقَ بالشّهادتيْنِ قَبْلَ مَوْتِه .

فَراغٌ هائِلٌ

لَقَدْ كانَ الحدَثُ صَعْباً ، وكانَ الموتُ مُصِيبَةً عظيمةً . . ويُدْفنُ أبو طالِبٍ ، وتُدْفنُ خديجةُ تحتَ التّرابِ بعدَ أنْ كانَ وجودُهُما فَوْقَ الأرضِ عالياً ، لا يحطِّمُهُ الصِّراعُ الشَّديدُ . .

شهرٌ وخَمْسَةُ أيّامٍ بينَ المصيبتيْنِ ، كِلْتاهما اجتمعتْ على رسولِ اللهِ ﷺ ، فلمْ يعُدْ يجدُ لَهُ خارجَ بيتِه نَصيراً ، ولا داخِلَ غرفتِه أنيساً ، فلا عَجَبَ إنِ اشتَدَّ بِهِ الحزْنُ ، وإنِ استبدَّتْ بِهِ الوحدةُ ، ولفَّهُ الفراغُ مِنْ حَوْلِهِ ، وأيُّ فراغٍ ، إنَّهُ الفراغُ الكبيرُ والهائلُ . . الذي جعَلَ الحزْنَ يبلغُ برسولِ اللهِ كُلَّ مَبْلَغٍ ، حَتّى لقدْ سُمّي ذلكَ العامُ (عامَ الحُزْنِ) ، وسَوْفَ تُقَدِّرونَ كَمْ كانَ الأمْرُ صَعْباً ، وسوفَ تحفظونَ اسْمَ هذا العامِ ، وتترَحَّمُونَ على الأمواتِ العظماءِ مِنَ المسلمينَ الصّابرينَ أمْثالَ خَديجةَ أمِّ المؤمنينَ .

عداواتٌ تتجَدَّدُ

ويا ليتَ الأَمْرَ وَقَفَ عند هذا الحدِّ ، فالفراغُ الكبيرُ قدْ جرَّ العداوَةَ مِنْ جديدٍ على رسولِ اللهِ ﷺ ، وأصبحَ أمامَ عدوِّهِ وجْهاً لوجْهٍ ، وتحقَّقت بذلكَ لقريشٍ أُمنيةٌ طالما تمنَّتْها ، وهيَ : أنْ يبقى محمدٌ وَحيداً

في صِدامِهِ مَعَها ، لا يُسانِدُهُ أنيسٌ ولا نصيرٌ . لذلكَ وجَدَتْ قريشٌ الآنَ مَنْفذاً إلى محمّدٍ ، وأخذَتْ تكيلُ لَهُ الأذىٰ أضعافَ أضعافَ ، ونالَتْ منْهُ ما لم تكُنْ تنالُ ولا تَطْمَعُ بِهِ ، فها هُمْ أولاءِ يشتمونَهُ ، ويؤذونَهُ ، ويحيطونَ بِهِ في صلاتِهِ وروحاتِهِ ، ويَضَعُونَ على رأسِهِ الشّريفِ قَذَراً وأوساخاً يسْتَحْيي العاقلُ مِنْ رَمْيِها على الطّريقِ ، فكيْفَ على رأْسِ رسولِ اللهِ ﷺ ؟ ! إنَّها العَداواتُ قَدْ تجدَّدَتْ ، ولكنْ علينا أيُّها الأعزّاءُ أنْ نَفهَمَ أنَّ قُدْرَةَ الرّسولِ محمّدٍ على الصُّمودِ كبيرةٌ حتّىٰ ولَوْ لمْ يكنْ لَهُ عَمٌّ كأبي طالبٍ ، أو زوجَةٌ كخديجَةَ .

مَنْ لَهُ يا رَبُّ ؟

اللّهمَّ أنتَ النصيرُ دوماً . . ورسولُنا ﷺ كانَ سيدعو إلى اللهِ بلا شكٍّ أو تراجُعٍ . . حتّىٰ ولَوْ كانَ مِنْ أوّلِ دعوتِهِ وحيداً لا نصيرَ لَهُ ولا أنيسَ مِنَ البشَرِ ، وأنتَ تعلمُ هذا يا ربُّ ، وتعرفُ أنَّ رسولَكَ لَنْ يَتوانى عَنِ الدَّعوةِ إلى دينِكَ ، فانصرْهُ وكُنْ لَهُ أكبَرَ نصيرٍ وأنيسٍ ، فلَنْ يقدِرَ على سَدِّ الفراغِ إلا بعونِكَ ورعايتِكَ وعطفِكَ ، وأنتَ الذي علَّمْتَ محمّداً أنْ لا ييْأسَ ولا يخافَ ، وأنْ يسيرَ محفوفاً برعايةِ اللهِ وحفظِهِ . كُنْ لَهُ يا ربَّنا ذلكَ العَوْنَ الكبيرَ ، وذلكَ الرّكنَ العظيمَ ، ولا تحرِمْهُ مِنْ جبريلَ يثبِّتُهُ ويؤنسُهُ ، ويَغْمُرُ قلبَهُ بالحبِّ والحنانِ الذي فقَدَهُ ، ويمسَحُ عنْهُ أشجانَ الحزْنِ ، ويزيلُ عنهُ أذى القومِ ، ويمدُّهُ

بـالعَزْمِ ، ويعينُهُ على مجالَـدةِ هٰؤلاءِ الصُّمِّ البُكمِ العُمْيِ الّذيـنَ لا يعقِلُون.

يا عمِّيَ المفْقُودَ

وإنَّنا يا ربِّ لَنراهُ بعدَ وفاةِ عمِّهِ ، وبعـد تجدُّدِ عداواتِ قومِهِ . . يرفعُ يدَيهِ إلى عَينيهِ ليمْسَحَ دمعةً كبيرةَ الحجم ، يتذكَّرُ يُتْمَـهُ وهُوَ كبيرٌ يتيمُ العَمِّ . . بعْدَ أنْ كانَ مِنْ زمانٍ مَضى قَدْ تَيَتَّمَ بفقْدِ والدِهِ وأمِّهِ وجَدِّهِ عبدِ المطّلبِ .

إنَّنا لنسمعُهُ وهُوَ يـواسي نَفْسَهُ بتذكُّرِ محاسِنِ عمِّهِ أبي طـالبٍ وكأنَّهُ يقولُ : يـا عمِّيَ المفقودَ ، لقد كنْـتَ لي وزيرَ صِـدْقٍ ، وركْنَ عظمَـةٍ ، وعَوْناً على البأْسَاءِ والضَّرَّاءِ ، يا عمِّ مـا أسْرعَ ما وجدْتُ فقدَكَ . . يا عمِّ إنَّهُم لا يدَّخِرونَ دقيقةً دُونَ أنْ يُؤذُوني أوْ ينالـوا منِّي ، فأيْنَ أنْتَ الآنَ يا عمِّيَ الحبيبَ ، لترى ماذا حلَّ بابـنِ أخيكَ ؟ . . لقدْ عزَّ عليَّ فِـراقُكَ وفِراقُ نُصْرتَكَ لي يا عمِّ . .

عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ

إنَّها دموعٌ لَـنْ تجفَّ بعْدَ فَقْدِكَ يا أبـا طالبٍ ، وكيـفَ لمحمّدٍ ﷺ أَنْ يَنْساكَ وهُوَ يتصـارعُ معَ القومِ الكافـرينَ . . ؟ لقدْ كادُوا يخنقونَهُ وهُوَ قائمٌ يُصَلِّي ، ولَمْ يَسْتحيوا مِنْ أَنْ يَضعُوا رَحِمَ شاةٍ بقَذَرِهِ في القِدْرِ الذي يَطْبُخُ فيه محمّدٌ الرّسولُ ﷺ طعامَهُ ، أَوْ يحملوا أحشاءَ جَزورٍ ليرمُوهُ على

رَأْسِ رسـولِ اللهِ وَهُـوَ يصلِّي أمـامَ الكعبـةِ ، إنَّهم لمْ يـدَّخـروا قَـذَراً في أنْفُسِهِمْ ولا حِقْداً . . وهـا هُو ذا رسولُ اللهِ يرفَـعُ يديْهِ إلى رَبِّ السَّماءِ ، وينطلقُ لسـانُهُ بـدعاءٍ مَلأَ الأَرْضَ والسَّماءَ وهو يَدْعو عليـهم قـائلاً : (اللَّهمَّ عَلَيْكَ بأبي جهْلِ بْنِ هشامٍ ، وعُتْبَةَ بْنِ ربيعةَ ، وشيبةَ بنِ ربيعةَ ، والوليـد بنِ عقبةَ ، وأميّـةَ بنِ خَلَـفٍ ، وعُقْبَةَ بْنِ أَبي مُعيْـطٍ) . ولَمْ يَكُنِ الرّسـولُ ليدعُـوَ على قَوْمِـهِ لَوْلا مـا أَبْدوهُ مِـنْ شِدَّةِ الإزْعـاجِ لَهُ ممّا لا يَتَحمَّلُهُ الإنسانُ ، وقَدْ صَبَرَ قَبْلَ ذلكَ أعْواماً طِوالاً . .

نِعْمَةٌ لا تُنْسَى

هٰذا مـا لاقاهُ رسولُنا الحبيـبُ يا أَيُّها الأحِبَّةُ ، ولٰكِـنَّ نعْمَةَ اللهِ كبيرَةٌ ، ورحمتَهُ واسِعَةٌ ، فَهُوَ قَدْ وهبَ محمّداً قَلْباً لا يُفْتَنُ ، وقناةً لا تَلينُ ، ونَفْساً لا يُزحْزِحُها شيءٌ عَنِ الحقِّ ، ويداً تُربّي المؤمنينَ على الثَّباتِ والصَّبرِ . . لقدْ كـانَ اضطهادُ قريشٍ للرّسولِ شـديدَ الوطْأةِ ، وكانَتْ عروضُهم شديـدَةَ الإغراءِ ، ولـوْلا أنْ ثبّتَ اللهُ قلبَ نبيِّـهِ ، وأيّدَه بحَـوْلِهِ وقـوَّتِهِ ، لَزَعْـزعَهُ الإيـذاءُ الذي تعرَّضَ لَـهُ ، ولبهرَهُ الإغـراءُ الذي عُـرِضَ عليْهِ ، لذٰلكَ فإنَّ نِعْمَةَ اللهِ لَنْ ينساها رسولُ اللهِ ، بَلْ إنَّ محمّداً ﷺ هو الشاكرُ الحامِدُ الـذي يلهَجُ لِسـانُهُ بذكْـرِ اللهِ ، ويُعَلِّمُ المـؤمنَ دَوْماً أَنْ يقـولَ : (الحمدُ لَكَ يا ربُّ . . وشُكراً لكَ يا واهِبَ النِّعَمِ ، وكيْفَ لا أكُونُ لَكَ عَبْداً شَكوراً ، وقَدْ وَهَبْتَني نِعمَةَ التَّثبيتِ والصَّبرِ الكَبيرِ ؟ وإنها لَنِعْمَ النّعمةُ يا ربُّ .

قصص

السيرة النبوية

٢٢



.. أَوْ أَهْلكَ دُونَهُ

لو أَرَدْنا أَنْ نُلَخِّصَ موقفَ الرّسولِ ﷺ في جميعِ أَيّامِ الدَّعوةِ مَعَ قَوْمِهِ لَمَا وجدْنا كلاماً أَرْوعَ مِنَ الكلامِ الذي قالَهُ ذاتَ يومَ يردُّ على عمِّهِ وقومِهِ، والذي بيّنَ فيهِ أَنَّ تَرْكَهُ لتبليغِ رِسالاتِ ربِّهِ أشدُّ صُعوبةً مِنْ أَنْ يقومَ أَحَدُ رجالِ قريشٍ بمدِّ يدِهِ إلى الشّمسِ ويُشْعِلَ منها شعلةً.. وإنَّهُ لموقفٌ استمرَّ على التَّمسُّكِ بهِ منذُ أَنْ بدأَ ﷺ تبليغَ رسالتِهِ، ولَمْ يَكُنْ حينذاكَ كثيرَ الأَنْصارِ، ومعَ ذلكَ.. فقدْ صَمَّمَ على أَنْ يسيرَ بها إلى النِّهايةِ، وكأَنَّ كلماتِهِ التي قرأْتموها كانَتْ دستوراً لهُ في حياتِهِ التي عرفناها حتّى الآنَ، وسنَظَلُّ نعرفُها، ونعرفُ موقفَهُ الصّلْبَ والثّابتَ في كُلِّ الحلقاتِ القادمةِ..

اللهمَّ اجْعَلنا مِنَ الثّابتينَ على الحقِّ أمامَ المصاعبِ، واجعَلْنا نبلِّغُ رسالتَكَ بحقٍّ وصدْقٍ وإخلاصٍ، دونَ خوفٍ إلا منْكَ يا رَبَّ العالمينَ.

كُلُّ ما اسْتَطَعْناهُ

وكأَنّنا الآنَ نتصوَّرُ معاً كُلَّ الزُّعماءِ مِنْ كُفّارِ قريشٍ، وقدِ اجْتمعوا مِنْ جديدٍ ليقولَ قائِلُهم: (لقَدْ بذلْنا كُلَّ ما نستطيعُهُ، واستبحْنا كُلَّ ما لا يجوزُ في عُرفِ المروءةِ، وأتيْنا بكلِّ الأعمالِ التي لا يتصوَّرُها عقْلٌ لكي نَثْنِيَ محمّداً عَنْ عزمِهِ، ولكنْ دونَ جدْوى، وإننا أَدْركْنا بعدَ كُلِّ ما بذلْناهُ وفَعَلْناهُ أَنَّ مُحمّداً وصحبَهُ لَنْ تُرْهِبَهُم القوّةُ مهما بلغَتْ، ولن

يَخدعَهُم الإغراءُ مهما عظُمَ ، وأنَّ كُلَّ محاولةٍ لتحْويلهم عَنْ دعوتِهمْ لَمْ تُجْدِ معَهُمْ فتيلاً . . ولقدْ كفانا قساوةً واضطهاداً لمحمّدٍ وأتباعِهِ ، أمامَ العربِ مِنْ حَولِنا ، وآنَ الأوانُ لكيْ نَسيرَ في طريقٍ غيرِ هذِهِ ، فَلْيُشِرْ كُلٌّ مِنكُمْ بما يراهُ مُناسباً لصَدِّ هذِهِ الدَّعْوة) .

أُسْلُوبٌ جَدِيدٌ

وبعدَ تفكيرٍ ومشاورةٍ تحدَّثَ واحدٌ منهمْ فقالَ : (إنَّني لا أرىٰ مانِعاً مِنْ أنْ نُجَرِّبَ هذِهِ المرَّةَ أُسْلوباً جديداً معَ محمّدٍ . ألا وهُوَ أسلوبُ التَّعجيزِ والتَّحدِّي ، لعلَّنا بذلكَ نتمكنُ مِنْ إيقافِهِ عِنْدَ حدِّهِ الذي وصَلَ إليْهِ، ونُوهِمُ النَّاسَ أنَّهُ كاذِبٌ، فإذا ما اقتنعَ الآخرونَ أنَّهُ ليْسَ برسولٍ ولا نبيٍّ ، تَركوهُ وتركوا دعوتَهُ ، وكَفانا مَؤونةَ السَّعيِ لذلِكَ) .

وأُعجِبَ الحاضرونَ بهذا الرَّأيِ وقالوا : إنَّ أُسْلوبَ التَّعْجيزِ أسلوبٌ رائعٌ ضِدَّ محمّدٍ ، ولا سيَّما إذا لم يتمكَّنْ أنْ يصنعَ المعجزاتِ التي صَنَعَ مثلَها غيرُهُ مِنَ الأنبياءِ كَما نسمَعُ ، أمثالِ عيسىٰ ومُوسىٰ وصالحٍ وغيرِهم، وإنَّنا سنسْعى كُلَّ جهدِنا في أنْ نطلبَ منْهُ الكثيرَ مِنْ هذِهِ المعجزاتِ ، وحَتْماً فإنَّهُ سيفشَلُ ، ولنْ يتمكَّنَ مِنْ إجابتنا أمامَ القومِ والعربِ أجمعينَ .

مُلاطَفَةٌ وَطِيبٌ

وسرعانَ ما أرسلَ الملأُ المجتمعونَ وَرَاءَ محمّدٍ ﷺ بأنَّ القومَ والأشرافَ في انتظارِهِ، يُريدُونَ التَّكلُّمَ معَهُ ، فأسْرَعَ إليهِم محمّدٌ رسولُ اللهِ وفي

ذهنِهِ ونفسِهِ أَمَلٌ كبيرٌ بأنَّ اللهَ قَدْ هداهُمْ إلى الإيمانِ ، وأنَّهم قَدْ عَدَلوا عَنْ عِنادهم وكفرِهِمْ . ولمَّا اجْتَمَعَ بهِمْ أخذُوا يتلاطفُونَ معَهُ في حديثِهِمْ أوَّلَ الأمْرِ ، ويُبْدُونَ لَهُ الطِّيبَ وحُسنَ القولِ والمعاملةِ ، ويَسْتَدْرِجونَهُ بالمداهنةِ والمجاملةِ، ويَعِدُونه الوعودَ الكبيرَةَ ، ويمنُّونهُ الأمانيَ الرفيعَةَ ، ويعاتبونَهُ بِرِقَّةٍ ولُطْفٍ على ما أتىٰ بِهِ مِنْ دينٍ يفرِّقُ بيْنَ قريشٍ والعربِ ، ثم أَخَذُوا يُلَوِّحُونَ لَهُ بما عرضُوهُ عليهِ منْ قبْلُ مِنْ مغرياتِ الدُّنْيا بمالِها وسلطانِها وملكِها وطبِّها ودوائِها . . عَسىٰ أَنْ يَجدوا عنْدَه ثغرةَ هَوىً دُنْيَوِيٍّ ، أو مُتَّسَعاً لضميرٍ جَشِعٍ ، أو طَمعاً في قليلٍ أوْ كثيرٍ ، ولكنْ هَيْهاتَ وهَيْهاتَ أنْ يَلينَ الرَّسولُ أمامَ مغرياتِهم الكبيرةِ .

لَيْسَ بِي شَيْءٌ

وسَمِعَ الرسولُ ﷺ منهمْ ما أرادُوهُ، ولمَّا انتهوا توجَّهَ إليهمْ بوجْهِهِ قائلاً : (ما بي ما تقُولُون) ، أيْ : ليسَ عندي رغبةٌ في مُغْرياتكم ، ولسْتُ مجْنُوناً حتىٰ تأتُوني بالدَّواءِ ، (ما جِئْتُ بما جِئتكُمْ بِهِ أطلُبُ أموالَكُمْ ولا الشَّرفَ فيكُمْ ، ولا المُلْكَ عليْكُمْ ، ولكنَّ اللهَ بَعَثني إليكم رَسُولاً ، وأنْزَلَ عَلَيَّ كتاباً ، وأمرَني أنْ أكونَ لكُمْ بشيراً أوْ نذيراً ، فبلغتكم رسالاتِ ربي ونصحتُ لكمْ ، فإنْ تَقْبَلُوا مِنِّي ما جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حظُّكُمْ في الدُّنْيا والآخرةِ ، وإنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لأَمْرِ اللهِ ، حَتَّى يحكُمَ اللهُ بَيْني وبينكُمْ) . لقد شَعَرَ الحاضرون مِنْ جوابِ الرَّسولِ ﷺ أنَّ الملاطَفَةَ

وحُسنَ القَوْلِ والمهادنَةِ قَدْ انتهى دَوْرُها ، فَمحمّدٌ لَنْ يتراجَعَ أَبَداً ، فَقالَ أبو جهْلٍ : . . إذاً فإلى أُسْلُوبنا الذِي اتّفقنا علَيْه يا زُعَماء القَوْمِ .

أنْهارٌ . . وَينابِيعُ

قالُوا لَهُ : يا محمّدُ ، فإنْ كُنْتَ غيْرَ قابلٍ منّا شيئاً ممّا عرضناهُ عليكَ ، فإنّكَ قَدْ علِمْتَ أنَّهُ ليْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَضْيقَ بَلَداً ولا أقَلَّ ماءً ولا أشَدَّ عَيْشاً مِنّا ، فسَلْ رَبَّكَ الذي بعثَكَ بِما بعَثَكَ بِهِ ، فلْيُسيِّرْ عَنّا هذهِ الجبالَ التي قَدْ ضيَّقَتْ علينا ، وليبسُطْ لَنا بلادَنَا ، ولْيُفجِّرْ لنا فيها أنْهاراً كأنْهارِ الشّامِ والعِراقِ ، فإنْ صنعْتَ هذا صَدَّقناكَ ، وآمنَّا بِكَ .

فقالَ لَهُمْ ﷺ : (ما بهذا بُعِثْتُ إلَيْكُمْ) . أيْ بِما بهذا بَعثني اللهُ إليْكُمْ، فالرسولُ لا يبعثُهُ اللهُ إلى قومٍ كافرينَ لكيْ يأتيهُمْ بما يَعْجزُ عنهُ البشرُ ، ولكنْ يأتيهمْ بشيءٍ يفهمُهُ العَقْلُ دونَ معجزاتٍ ، ويسهِّلُ فَهْمَ شرائِعِ اللهِ دُونَ عجائبَ ، ولذلكَ فطَلَبُ قريْشٍ للمعجزاتِ لا يُغْني عَنْ تفكيرِ أَفْرادِها شيْئاً .

أَوْ ملائكةُ السَّماءِ

قالُوا لَهُ : يا محمّدُ فإنْ لَمْ تفعَلْ هذا لَنا ، فاطلُبْ مِنْ ربِّكَ أَنْ يَبعثَ مَعَكَ ملائكةً مِنَ السَّماءِ ، لكيْ نَراها ونسْألَها عنْ رِسالتِكَ ودعوتِكَ ، وإنّنا لنَكْتفي بعددٍ مِنَ الملائكةِ يَشْهَدُونَ أنّكَ رسُولُ اللهِ مِنْ عنْدِ اللهِ ، فإنْ فعلْتَ هذا صَدَّقناكَ وآمنّا بِكَ .. وإن اسْتَطَعْتَ أنْ تأتيَ باللّهِ مع الملائكة فهذا أحسنُ . .

فأعادَ الرّسولُ ﷺ عليْهم الجوابَ نَفْسَهُ ، مؤكِّداً أنَّ الذي يَطْلُبُ المعجزاتِ لَنْ تغنيَهُ ولَنْ تَنْفعَهُ المعجزاتُ والعجائبُ والتحدِّياتُ ، والأفضَلُ أنْ يفكِّروا ويَسْتَخْدِموا عقولَهُم، ويسألُوا أنفسَهم : هَلْ ما جاءَ بِهِ محمّدٌ معقولٌ ؟ وهل كلامُهُ وقرآنُهُ كلامُ بَشَرٍ ؟ هٰذا هُوَ الأفضلُ يا أحبّتي . . وحقّاً فإنَّ الذي لا يقتنعُ بالبرهانِ العَقْلِيِّ الصَّحيحِ فإنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ ولو ملأْتَ لَهُ الدُّنيا معجزاتٍ وبراهينَ كبيرةً ضخمةً .

أَوْ عيشَةُ الملوكِ

بَعْدَ ذلكَ قالُوا لَهُ : إذا صَعُبَ عَلَيْكَ أمْرُ الأنهارِ والينابيعِ ، وأمْرُ الملائكةِ ، فإنّنا نطلبُ مِنْكَ أمراً آخرَ قَدْ يُقنعُنا : إنَّكَ يا محمّدُ لتزعُمُ أنَّ نُبُوّتَكَ ورسالتَكَ مِنَ اللهِ ، فإنْ كانَ هٰذا صَحيحاً ، فليجعلْ لَكَ ربُّكَ جِناناً وقُصوراً وكُنوزاً مِنْ ذهبٍ وفِضَّةٍ خالِصَةٍ لكَ ، يُغنيكَ بِها عمّا نَراكَ ، فإنّنا لَنَراكَ تبيعُ وتَشْتري ، وتَمْشي في الأسْواقِ ، وتأكُلُ وتشرَبُ مثلما نأكُلُ ونشربُ ، ونحنُ لا نعرفُ العُظَماءَ يَفْعلونَ هٰذا ، فهلا صَنَعْتَ لنفسِكَ ما يَصنعُهُ الملوكُ ؟ وحبّذا لو صَعِدْتَ إلى السَّماءِ ، وعُدْتَ بكتابٍ نقرؤهُ لِنؤْمِنَ بصعودك . .

فقالَ لهمْ رسولُ اللهِ ﷺ : (ما أَنا بفاعِلٍ ، وما أنا بالّذي يَسْألُ ربَّهُ هٰذا ، وما بُعِثْتُ إليكمْ بِهٰذا ، ولكنَّ اللهَ بَعَثني بَشِيراً ونَذِيراً . .) .

عذابُ ربِّك إذاً

وما أنْ أتمَّ الرّسولُ محمدٌ جوابَهُ ، حتّىٰ قالُوا لَهُ ساخِرين : يا محمّدُ ، أمّا إذا عجزْتَ عَنْ هذا كلِّهِ فلا حاجَةَ لَنا إذاً بتصديقِكَ والإيمانِ بِكَ ، هيّا . . ادْعُ اللهَ أنْ يُرْسِلَ علينا عَذاباً مِنْ عِنْده ، وليكُنْ هٰذا العذابُ أنْ يُسْقِطَ علينا السّماءَ قِطَعاً قِطَعاً ، هيّا عجِّلْ لَنا في هٰذا العذابَ ، فإنْ فَعَلَ رَبُّكَ كُنْتَ مِنَ الرّابحينَ ، وإنْ لَمْ يفعَلْ فأنْتَ كما تَرىٰ لسْتَ برسولٍ ولا بنبيٍّ لَهُ حيلَةٌ على المعجزاتِ أبَدا . . فقالَ لهمْ رسولُ اللهِ ﷺ عَنْ طَلَبِهم للعذابِ : (ذلكَ إلى اللهِ إنْ شاءَ أنْ يفعَلَهُ بِكُمْ فَعَلَ . .) فقالُوا لَهُ : قَدْ أعْذَرْناكَ يا محمدُ ، وإنّا واللهِ لا نَتْرُكُكَ ، حتّىٰ نُهْلِكَكَ أَوْ تُهْلِكنا . .

وبَعْدَها قامَ الرسولُ عنهُمْ ، وانْصرفَ إلى بيْتِه .

حُزْنٌ وأَسَفٌ

وَوَصَلَ إلى البيتِ حزيناً مُتأسِّفاً علىٰ أنَّ قَوْمَهُ لمْ يُؤْمنوا بِهِ ، وصَمَّموا على طَلَبِ المعجزاتِ ، دُونَ أن يُفكِّروا أَوْ يَسْتخدموا عقولَهم . . ولَمْ يَجِدْ خديجَةَ تؤنسهُ وتشدُّ مِنْ عزْمِهِ وتواسيهِ رحمَها اللهُ تعالىٰ .

ولَعَلَّ الرّسولَ لا يحزنُ لو كانَ يحملُ قَلْباً قاسياً ، وشعوراً بعيداً عنِ الرّأفةِ والعَطْفِ والحنانِ ، إلا أنَّ التّاريخَ لَمْ يَعْرِفْ رَجُلاً واحداً يحزَنُ على بُعْدِ قومِهِ عَنِ الحقِّ ، كَما حزنَ رَسُولُنا ، وأنّىٰ للرسولِ أنْ يَهْدَأَ ، أَوْ يَفْرَحَ ،

أَوْ تَجِدَ البَسْمَةُ إلى ثَغْرِهِ سَبيلاً ، وقَدْ لاقَى ما لاقاهُ مِنْ قَوْمِهِ ؟ وَلا سيّما بعْدَ فراقِ النّصيرِ والأنيسِ مِنْ أَهْلِهِ . . ولذلكَ يا أحبّتي لَنْ نَتعجَّبَ إذا كانَ الرّسولُ في تلكَ المرحلَةِ حَزيناً ، كاسِفَ البالِ مَكْلُومَ الفُؤادِ . . دائمَ التّفْكيرِ في حلٍّ وسبيلٍ لإيمانِ قريشٍ .

أَنا سَأَقْتُلُهُ ! !

وبعدَ ذهابِ الرّسولِ محمّدٍ ﷺ إلى بيتِهِ ، يقومُ أَبُو جهلٍ وَسْطَ الأشرافِ مِنَ القَوْمِ . . وَيحذِّرُ ويهدِّدُ قائلاً : (لَقَدْ ذَهَبَ محمّدٌ مِنْ مَجْلِسِكُمْ وَهُوَ غيْرُ راضٍ عمّا طَلَبْتُمُوهُ ، وإنّي أعاهِدُ اللهَ لأَجْلِسَنَّ لَهُ غداً بحجرٍ ما أُطيقُ حَمْلَهُ ، فإذا سَجَدَ في صلاتهِ فَضَخْتُ بِهِ رَأْسَهُ ، وَلْيَصْنَعْ بَنُو عبدِ منافٍ ما بَدا لهُم دِفاعاً عَنْ صاحِبِهِم) . إنه مُنْتهىٰ الجهلِ عند مَنْ كانَ يُكْنى (بأبي الحَكَمِ) فأيْنَ الحِكْمَةُ في أفْعالِهِ ؟ ! . .

وغدا رسولُ اللهِ في اليومِ التّالي إلى صلاتِهِ جانبَ الكعبةِ ، وَجَلَسَ القومُ في أنْديَتِهِمْ ينتظرونَ أبا جهلٍ حَتّى يعودَ . . وما هي إلا دقيقةٌ واحدةٌ حَتّى عادَ أَبُو جهلٍ مُرْتعداً مُصْفرّاً مُنْهزِماً مَرْعوباً ، قَدْ يَبِسَتْ يَداهُ على حجرِه ، فقالُوا لَهُ : ما لَكَ يا أبا الحكَمِ ؟ قالَ : (قُمْتُ إليهِ لأفْعَلَ ما ذكَرْتُ ، فلمّا دنوتُ عَرَضَ لي وَحْشٌ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ ، فهَمَّ أَنْ يأْكُلَني بأنيابِهِ ، فعُدْتُ مَرْعوباً) ـ ووقَفَ الجميعُ مَشْدُوهِينَ دُونَ حِراكٍ . . مدركينَ أنَّ كُنْيَةَ (أبي جهلٍ) أَلْيَقُ هديّةٍ لهُ مِنَ الرّسولِ ﷺ .

مَتىٰ سَيُؤْمِنُونَ ؟

ورسولُ الله ﷺ يعلَمُ أَنَّ اللهَ سَيَحميهِ مِنْ طُغيانِ قريشٍ ، فلَنْ يستطيعُوا قتلَهُ ، أَوْ سَفْكَ دمِهِ ، ولكنَّ صَدْرَهُ كَانَ يضيقُ لما يَلقىٰ مِنْ تكْذيبهم . . إِنَّ نَفْسَهُ لتَذْهَبُ عِليهِمْ حسَراتٍ كُلَّما ابْتعدوا خطوَةً أُخْرى عَنِ الحقِّ . . وأَيْنَ سيجدُ قوْماً يقربُونَه كقَومِ مكَّةَ ؟ إنَّ فيها أهلَهُ وعشيرتَهُ وأَصْحابَهُ وأَوْلىٰ النَّاسِ بِهِ . . لقدْ كانَ يَشقُّ عليهِ هٰذا ، ويصعُبُ اتهامهم لَهُ بالجنونِ والسِّحرِ والكهانَةِ ، ويتضايقُ حينَ يطلبونَ المعجزاتِ للتَعجيز . .

وكَمْ تمنَّى رسولُ الله ﷺ لَوْ تفتَّحت عقولُهم وقلوبُهم لما يقولُه مِنْ كتابِ اللهِ وآياتِهِ . . فمتَى سَيؤمِنُون يا ربِّ ؟ ومَتى سينْقادُون إلى الحقِّ ؟ يا هادِيَ النَّاسِ إلى دينِكَ . . اهْدِ قريْشاً إلى الحقِّ يا ربَّ العالمينَ . . وخَفِّفْ مِنْ حُزْنِ نبيِّكَ العَظيمِ ﷺ .

تَخْفِيفٌ وَتَثْبِيتٌ

واللهُ تَعالىٰ يا أحبَّتي يعلَمُ أَنَّ رسولَهُ قَدْ حزِنَ وتَضايقَ وتألَّمَ . . لذلكَ راحَ جبريلُ ينزِلُ عليهِ بالآياتِ التي تَحكي لَهُ قَصصَ مَنْ سبقَهُ مِنَ الأنبياءِ ، ومواقفَ أقوامِهِم منهُمْ ، ويبيِّنُ لَهُ أَنَّ رسالتَهُ كرسالاتِ السَّابقينَ ، وأَنَّ ما يلاقيهِ ليسَ جَديداً في بابِ الدَّعواتِ . . وعلى كُلِّ مؤمنٍ أَنْ يتوقَّعَ هَذا لا محالَةَ . . فلا إيمانَ دُونَ تحمُّلٍ وصَبْرٍ على المَشاقِّ ،

وعَلىٰ أَذىٰ الكافرينَ .

لقَدْ كانَ الهَدفُ مِنْ هَذه الآياتِ تأْييدَ الرَّسُولِ والتَّخفيفَ عنهُ ، وتثبيتَهُ على طريقِهِ الصَّحيحةِ ، فإنَّ فيها التَّعزيَةَ . . وفيها العِتاب على الحزنِ ، وفيها التَّحذير من اليأْسِ ، وفيها التَّنبيه إلى سُنَنِ اللهِ في الكونِ والرُّسلِ والأقوامِ . . وفيها التَّشجيع ، وفيها أَنَّ الإنْسانَ الذي يطلبُ المعجزاتِ لا خيْرَ في إيمانِهِ بَلْ ولا يحملُ الخيرَ أبداً . .

إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ

وفي آخرِ هذِهِ الحلْقةِ يا إخوتي ، أذكِّرُكم بأَنَّ رسولَ الله ﷺ إنَّما هُوَ بشَرٌ ، لا يستطيعُ فِعْلَ المعجزاتِ وحدَهُ ، ولا يتمكَّنُ مِنَ الاستجابَةِ لطلباتِ المعاجزينَ إذا لم يرِدِ اللهُ ذلكَ . . ولو كانَ في قلوبِهم الخيرُ لآمنوا دُونَ مُعْجزاتٍ . .

والذي يصعبُ عليهِ أن يؤمنَ بمحمَّدٍ لأنَّ محمَّداً بشَرٌ ، فلا حاجَةَ لمحمّدٍ في إيمانِ هذا الإنسانِ بِهِ ، فالإيمانُ لا يحتاجُ إلى مثلِ هذِهِ البراهينِ ، والتَّصديقُ بالإسْلامِ وبمحمّدٍ رسولِ اللهِ لا ينطلِقُ إلا مِنْ قوانينَ بسيطةٍ ، لا تعقيدَ فيها ولا وَهْمَ ، وأَوَّلُ هذِهِ القوانينِ يقولُ : الرَّسولُ محمَّدٌ بشرٌ ، ويعيشُ مَعَ البشَرِ ، ويأْتي برسالتِهِ للبَشَرِ ، لكيْ يحْيا بسعادةٍ وهناءٍ ، هُوَ والبشَرُ كُلُّهم ، ويكفينا القرآنُ معجزةً خالدةً لِتَصْديقِهِ .

قصص

السيرة النبوية

٢٣



قُلُوبٌ لا تَلِينُ

السَّلامُ عليكمْ أيُّها الأحبابُ في حَلْقَتِنا الجديدةِ . . أُحيِّيكم يا أَصْحابَ القُلوبِ الطَّاهرةِ اللَّيِّنةِ ، وأُبارِكُ لكمُ إيمانكم ومحبَّتَكُمْ لِرسولِ اللهِ ﷺ ، وأَقُولُ لَكُمْ : إِنَّ هُنَاكَ قُلُوباً تَبْعُدُ عَنْ صِفَاتِ قُلُوبِكم، وإنَّنا نجدُ فيها القَسْوةَ والفَظَاظَةَ والحِقْدَ ، فهلْ عرفْتُمْ قلوبَ مَنْ تكونُ هذِهِ القلوبُ ؟ إنَّها قلوبُ الكافرينَ ، قلوبٌ لا تلينُ ولا تجنَحُ إلى الخيرِ ، بل تُحبُّ الشَّرَّ والظُّلمَ ، والاضطهادَ وتعذيبَ الآخرينَ .

ولقَدْ أيْقَنَ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ الملأَ من قريشٍ ستطُولُ مُدَّةُ عِنادِهِمْ وكُفْرِهِمْ ، وأنَّهُمْ لَنْ يُؤْمنوا باللهِ ورسولِهِ حتَّى يرَوُا العذابَ بأَعْيُنِهِم ، وعندَها تقرُّ ألسنتُهم بأنَّ اللهَ هو الحقُّ ، وأنَّهُمْ قَدْ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ وظَلَمُوا غيرَهُمْ وليسَ لَهمْ إلا الإيمانُ بربٍّ واحدٍ .. فتتحولُ قلوبُهم بعدَ ذلكَ إلى قلوبٍ لينةٍ لا تحقِدُ ولا تقْسُو على أحَدٍ .

إلىٰ ثَقِيفٍ

وعزَمَ الرَّسولُ ﷺ بعْدَ أَنْ أَيْقَنَ ذلكَ ، أَنْ يتوجَّهَ بدَعْوتِهِ إلى غيرهِمْ ، ولكنْ . . إلى أَيْنَ يتوجَّهُ ؟ يريدُ قبيلةً تَسْمَعُ كَلامَهُ ، وتستجيبُ لرسالَتِهِ،

وتؤمنُ بنبوَّتِهِ . ولقَدْ فكَّرَ الرَّسولُ أَوَّلَ ما فكَّرَ بقبيلةٍ اسْمُها (ثَقِيفٌ) تسكنُ مكاناً اسمُهُ (الطَّائفُ) . .

فِي ذلِكَ المكانِ نَشَأَ رسولُ اللهِ ﷺ في صِغَرِهِ ، ورَضَعَ مِنْ حليمَةَ في باديةِ بني سعدٍ التي تُعدُّ جُزْءاً مِنْ باديَةِ الطَّائِف ، ورسولُ اللهِ يجِبُ أَنْ يَلْجأَ إلى أَقْرِبائِهِ في الرَّضاعَةِ إذاً ، عَسىٰ أَنْ يَجِدَ لديْهِم نَفْساً راضيةً وعَقْلاً واعياً . . وأَهْلُ الطَّائِفِ وثقيفٍ يُعتبرونَ أَخْوالَ رسولِ اللهِ مِنَ الرَّضاعَةِ ، فَهُمْ مِنْ أَقْربِ القبائِلِ رَحِماً إليه بَعْدَ قريشٍ ، فلا حَرَجَ مِنْ أَنْ يشُدَّ الرِّحالَ إلى ذلكَ المكانِ ، ويَدْعوَ فيه إلى توحيدِ الله تعالى ، عَلَّهُ يجلبُ بعْضَ النُّفوسِ إلى دائرةِ المؤمنينَ .

المسافةُ بعيدةٌ

ولكنْ لماذا يشدُّ الرِّحالَ ؟ إنَّ رُكوبَ الخَيْلِ قدْ يجعلُ قريْشاً تشعُرُ بذهابِهِ ، فتُفسِدُ علَيهِ خطتَّهُ ، والأفضلُ أَنْ يذهبَ الرَّسولُ دونَ أَنْ تعلمَ قريشٌ بذهابهِ أَبداً ، ولهذا يخرجُ الرسولُ ﷺ إلى الطَّائفِ سَيْراً على قدمَيْهِ ، في شوَّالٍ مِنَ السَّنةَ العاشرةِ لدعْوتِهِ: (أيْ بَعْدَ فَقْدِهِ لعمّهِ وزوجتِهِ بقليلٍ) . . ولكنَّهُ لَنْ يَصِلَ إلى الطَّائفِ بسهُولةٍ ، فالمسَافةُ بعيدةٌ ، والشُّقَّةُ بَيْنَ مكَّةَ والطَّائفِ صعبةٌ ، وإنَّ المسافَةَ بينهما لَتزيدُ على خمسينَ ميلاً ، وهيَ مسافةٌ طويلةٌ ، يقطَعُها الراكبُ في نحوِ أربعةِ

أيَّامٍ بينَ جبالٍ وَعَرةٍ ، فكيفَ بِمَنْ يَمْشي على رِجْلَيْهِ ؟ إنَّهُ سيَبْقىٰ أيَّاماً عديدةً وليَاليَ طويلةً دُونَ شَكٍّ ، وسيتعبُ مَعَ خادِمِهِ زَيْدِ بْنِ حارثَةَ الذي صَحِبَهُ . وأخيراً . . وبعد عنايةٍ ربانيَّةٍ وجهدٍ ومشقَّةٍ وصَلَ الاثنانِ تَعِبَيْنِ صابرَيْنِ محتسبَيْنِ .

وَعَشْرَةُ أَيَّامٍ

وبقِيَ الرَّسولُ هناكَ عَشَرةَ أيَّامٍ ، لم يدَعْ أَحَداً مِنْ أَشْرافِهِمْ إلا كَلَّمهُ ، وعرضَ عليهِ الإسلامَ ، وطلبَ إليهِ أَنْ يستجيبَ لرسالاتِ اللهِ ، ولَمْ يترُكْ أسرةً إلا وَأَوْصلَ لها كلامَ اللهِ تعالىٰ ، وبلَّغَها الأمانَةَ السَّماويّةَ ، ونبَّهها إلى أَنَّ عبادةَ الأَصنامِ لا تَنْفعُ الإنسانَ ، وأَنَّ الأصنامَ ذاتَها لا تَسْمعُ ولا تبصرُ ولا تفهمُ ولا تفكِّرُ ، ولا تستطيعُ أَنْ تقدِّمَ للإنسانِ فائدةً أَوْ ضَرّاً . .

كُلُّ هٰذا شرحَهُ الرّسولُ ﷺ لهمْ ، وبيَّنهُ بتوضيحٍ ووضوحٍ ، لكنَّ القومَ كانُوا على علمٍ بدعوتهِ قبْلَ أَنْ يأتيَهم ، وكانُوا مُدْركينَ لِخَسارة زَعامَتِهم إذا هُمْ آمَنُوا بِهِ وصدَّقوهُ ، وَلا سيَّما وأَنَّ صِلاتِ المنفعةِ بينَهم وبينَ قريْشٍ سَتَذْهَبُ بلا شكٍ إنْ وافقوا على اتِّباعِ هٰذا الرَّسولِ ، وهكذا بقُوا على عنادهم ، ولم يظهروا إلا بمظهرِ الصُّمِّ البكمِ العُمْيِ عَنِ الحَقِّ .

لا أَمَلَ وَلا بُشْرىٰ

وَشعر صاحبُ الرسالةِ بأَنَّ الحُزنَ قَدْ بَدَأَ يتسرَّبُ إِلَيْهِ مِنْ جَدِيدٍ ، وأَنَّ أَلَمَ الصَّدْمةِ قَدْ أَخَذَ يَسْرِي فِي جِسْمِهِ . . إِنَّهُ يا أحبَّتي لَمْ يَرَ في عُيُونِهم بَريقَ الأَمَلِ ، ولا في ضمائِرِهم هدايةً ولا بُشْرىٰ ، وإِنَّما رَأَىٰ منهمُ الاستهزاءَ والسُّخرية ، فَها هُوَ ذا أَحَدُ الأَشْرافِ منهمْ يقُولُ ساخِراً : أَلَمْ يجِدْ رَبُّكَ أَحَداً يرسِلُهُ لَنا غَيْرَكَ ؟ وهَذا آخرُ يتَّهِمُهُ بأَنَّهُ خَطَرٌ عَلَيْهِم ، وثالثٌ يُقْبِلُ نَحوَهُ يهدِّدُهُ بالأَذىٰ والضَّربِ إنْ كانَ رَسُولاً . . وتأَكَّدَ للرَّسولِ أَنْ لا أَمَلَ في ثقيفٍ ، فالقُلوبُ أَقْسىٰ مِمَّا توقَّعَهُ ، والطَّمعُ في الدُّنيا والمالِ مُسيطِرٌ على النُّفوسِ ، وحبُّ المصالحِ الماديَّةِ قَدْ أَخَذَ في ثقيفٍ مَأْخَذَهُ ، إِنَّهمْ لَنْ يُؤْمِنوا ما دامُوا لا يُعمِلُونَ تَفْكيرَهُمْ ، ومثالُهم كقرَيْشٍ طَلَبوا العذابَ ، واستهانوا بالدَّعْوةِ أَشدَّ استهانةٍ .

إِفْشاءُ الأَمْرِ

ولَمْ يَنْتَهِ الأَمْرُ في ثقيفٍ عندَ حَدِّ التَّكذيبِ ، بلْ إِنَّ مَا خافَهُ الرّسولُ ﷺ مِنْ علمِ قريشٍ بِهِ قَدِ انعكسَ ، فها هُمْ أُولاءِ أَهْلُ ثقيفٍ يتباهونَ ويفتخرونَ بأَنَّهم سيُخْبِرون قُرَيْشاً بما حَصَلَ لمحمَّدٍ في بَلَدِهِمْ . .

وكأَنَّهمْ أَشَدُّ حِرْصاً على إِفْشاءِ الأَمرِ منهم على كِتْمانِهِ ، وكانوا على مَوَدَّةِ قريشٍ أَحْرَصَ مِنْ سترِ محمَّدِ بن عبدِالله في ما حَدَثَ ، ولَمْ يلْبَثِ

الأَمْرُ أَنْ شاعَ وذاعَ في قريشٍ ، وزادَ الهَمُّ بذلكَ على قَلْبِ رسولِ اللهِ . . فهُوَ لَمْ يخرجْ على هَيئةِ مسافرٍ مِنْ مكَّةَ خشيَةَ أَنْ تَدرِيَ بِهِ قريشٌ ، فتُوقِفَهُ عن سفرِهِ ، وتُفْسِدَ عليهِ دعوتَهُ ، وها هُوَ ذا الآنَ قَدْ وقَعَ في حَرجٍ مَعَ ثقيفٍ ، وَخَبِرَتْ بذلكَ مكَّةُ عَلى كُرْهٍ منْهُ ، وأَنَّى لِلْكافرِ أَنْ يَكْتمَ سِرّاً ؟ . . اللَّهمَّ كُنْ خَيْرَ عَوْنٍ لرسولِكَ ، وأَخرِجْهُ مِنْ ضِيقِ الأَمْرِ وحرجِهِ ، وأَوْصِلْهُ مكَّةَ بسَلامٍ . .

أُخْرُجْ مِنْ بَلَدِنا

ولَمْ تعُدْ ثقيفُ تتحمَّلُ وُجودَ الرَّسولِ بينَها ، وخافَتْ أَنْ يسْتَجيبَ مِنْها أَحَدٌ للرَّسولِ محمدٍ ، لأَنَّها موقنةٌ أَنَّ كلامَهُ حَقٌّ ، ورِسالَتَهُ صِدْقٌ ، لذلكَ تَوجَّه إليهِ الزُّعماءُ يقولُ فيه أمرٌ سوءٍ : (يا محمَّدُ ، اخْرُجْ مِنْ بَلدِنا ، والْحقْ بها شَئْتَ مِنَ الأَرضِ ، فإنَّا نخافُ على أَحْداثِنا وضُعفائِنا أَنْ تَفتِنَهم) . وفَهِمَ هَذا ، وأَدركَ أَنَّ ما استطاعتْهُ قريْشٌ مِنَ التَّحملِ عَشرَ سنواتٍ لَمْ تستطعهُ الطَّائفُ وثقيفٌ أَكثَرَ من عَشْرةِ أَيَّامٍ ، ولم يجِدِ الرسولُ بُدّاً مِنَ الرَّحيلِ عَنِ الطَّائفِ ، والعودةِ إلى مكَّةَ . . وعرفَ أَنْ لا مكانَ لَهُ بيْنَ قبيلةٍ تقْربهُ ، ولم تكُنْ صِلَةُ الرَّضاعةِ أَحْسَنَ وَقْعاً على رسولِنا ، وعَلَيْهِ أَنْ يمشيَ باتِّجاهِ بَيْتِهِ ويعيدَ المسافةَ الطَّويلةَ الَّتي سارَها، بجُهْدِها وعنائِها ومشقَّتِها .

حجارةٌ وسُفهاءُ

ولَمْ تكُنْ ثقيفٌ كريمةً في وداعِ الرسولِ الكريمِ ﷺ ، هَلْ تدرون كَيْفَ كانَ الوَداعُ أيُّها الأحبَّةُ ؟ لَقَدْ خرَجَ السُّفهاءُ والعبيدُ والصبيانُ ، فاصطفُّوا على جانبي الطَّريقِ ، وأَخذُوا في سبِّ رسولِ الله وشَتْمِهِ ، ورَشْقِهِ بالحِجارةِ ، فكانَ لا يرْفعُ قَدَماً ولا يَضعُها إلا وأصابوها بالحجارةِ ، حَتَّى سالَ الدَّمُ بغزارةٍ من قدميْهِ الشَّريفتينِ ، وتخضَّبتْ نَعْلاهُ بالدّماءِ ، هٰذا عدا الضَّحِكِ والرَّجمِ إذا ما قَعَدَ الرسولُ إلى الأرْضِ إثْرَ ضربةٍ كبيرةٍ ، وكثيراً ما كانَ زَيْدُ بْنُ حارثَةَ يَقِيهِ الضَّرباتِ بنفْسِهِ ، ويتلقَّى عنْهُ الحجارةَ ما استطاعَ ، حتَّى شُجَّ رأْسُ هٰذا الصَّحابيِّ الجليلِ ، وتلوَّنَ رأْسُهُ ووجْهُهُ بالدَّمِ الزَّكيِّ ، وطاردَهُما السُّفهاءُ إلى مسافةٍ طويلةٍ حَتَّى أخرجوهُما من دائرةِ ثقيفٍ ، وابتعدَتْ أقْدامُهما عَنْ بيوتاتِ الطَّائفِ ومساكِنِهِم

عُنْقودٌ مِنَ العِنَبِ

واستطاعَ محمدٌ الرّسولُ وزيدٌ أَنْ يحتَميا أخيراً بحائطِ بستانٍ بعيدٍ عَنْ ثقيفٍ ، وهٰذا البستانُ لرجليْنِ مِنْ قريْشٍ ، كفَرا برسولِ الله وهما عتبةُ بنُ ربيعةَ وأخوهُ شيْبةُ ، فجلَسَ ﷺ تحْتَ شجرةٍ في البستانِ يستردُّ أنفاسَهُ ، وقَدْ بلَغَ مِنهُ الحزْنُ كُلَّ مَبْلغٍ ، وتأثَّرَ صاحِبا البستانِ بهذا المنظرِ ، على

الرّغمِ مِنْ عداوتهما لرسولِ اللهِ ، وتحرّكتْ في قلْبَيْهما رحمةٌ يسيرةٌ وشفقةٌ تخفِّفُ قليلاً مِمَّا أصابهُ مِنَ الحزْنِ والتّعبِ ، فأَرسلا إليهِ عُنْقُوداً مِنْ عِنَبِ البستانِ مَعَ غلامٍ لهُما يقالُ لَهُ : (عدَّاسُ) . . وَشَكرَ الرَّسولُ ذلكَ ، وتناولَ العُنقودَ وقالَ : (بِسْمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ) ، وأخذَ يأكُلُ ، فَدُهِشَ عدَّاسُ لأنَّهُ سَمِعَ كَلاماً جَديداً فيهِ تقوىً وصلاحٌ ، فقالَ : إنَّ كلامَكَ لكلامٌ ما يقولهُ أَهْلُ هٰذِهِ البَلْدَةِ ! فقالَ لهُ الرَّسولُ : فَمِنْ أيِّ البلادِ أَنْتَ ؟ قالَ عدّاسُ : أنا نصرانيٌّ مِنْ بلدةِ (نِينوى)

إيمانُ عدّاسٍ

وَهُنا أدرَكَ الرسولُ ﷺ أنَّ الأملَ قدْ بدأ يتحرَّكُ إلى نفْسِهِ الحزينةِ ، وقال لِعدَّاسٍ : أَنْتَ مِنْ قريةِ الرَّجُلِ الصّالحِ يونسَ بنِ مَتّى ؟ فقالَ عدّاسٌ : وما يُدْريكَ ما يونُسُ بنُ متَّى ؟ واللهِ لقدْ خرجْتُ مِنْ نينوى وما فيها عَشَرةٌ يعْرفونَ ابْنَ متَّى ؟ قالَ ﷺ : (ذاكَ أخي كانَ نبيّاً ، وأنا نبيٌّ) ، وسرعان ما تأكَّدَ عدَّاسٌ مِنْ صِدْقِ القولِ فقالَ مُنْشرحاً : أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله وأنَّكَ رسولُ اللهِ) ، ولمَّا رجعَ عدَّاسُ ، قالَ لَهُ سَيِّداهُ : وَيْلَكَ يا عدَّاسُ ، لقَدْ رأَيْناكَ تحدِّثُهُ وكأنَّكَ قدْ آمنْتَ بهِ وأفسدَ عليكَ الذي هُوَ خيرٌ مِنْ دِينِه ؟ !) ، ولكنْ ليسَ لعدَّاسٍ أنْ يَسْتَعيضَ عَنِ الإسلامِ بدينٍ آخرَ ! فهوَ قدْ آمَنَ بمحمّدٍ نتيجةَ تفكيرٍ بسيطٍ بعقلِهِ ، فكيفَ ينقلِبُ الآنَ ؟ لا ! ! إنَّهُ أعلمُ بالنَّصرانيةِ مِنْ سيّديْهِ ، ويدركُ أنَّ

الإيمانَ بمحمّدٍ ﷺ أفضلُ حقّاً . . لِذلكَ . . فَلا تراجُعَ أَبداً . .

إليْكَ يا ربُّ

ويعودُ الرسولُ ليأْكلَ العِنَبَ ، ويتذكَّر وَداعَ الطَّائِفِ الأليمَ لَهُ . . إنه لأشَدُّ يوم مرَّ بـرسولِ اللهِ ﷺ . صحيحٌ أنَّـهُ شعَرَ بوخْزِ الهوانِ وعُسرِ الموقفِ لكنَّهُ ما إنِ اسْتَنَدَ إلى حائطِ البستانِ ، حتَّى رفَعَ يديْهِ إلى السَّماءِ، وقامَ يصلِّي للهِ تعالى ، ثُمَّ قالَ : (اللَّهمَّ إليْكَ أشْكو ضعْفَ قُوَّتي ، وقِلَّةَ حِيلَتي وَهواني على النَّاسِ ، يا أرْحمَ الرَّاحمينَ ، أنْتَ ربُّ المُسْتضعفينَ ، وأنْتَ ربِّي ، إلى مَنْ تكِلُني ؟ إلى بعيدٍ يَتجهَّمُني ؟ أمْ إلى عَدُوٍّ ملَّكْتَهُ أمْري ؟ إنْ لمْ يكُنْ بِكَ عَلَيَّ غضبٌ فَلا أُبالي ، ولكنَّ عافيتَكَ أوسَعُ لي ، أعوذُ بنُورِ وَجْهِكَ الذي أشْرقَتْ لَهُ الظُّلُماتُ ، وَصَلُحَ عليْهِ أمْرُ الدُّنْيا والآخرةِ مِنْ أنْ تُنْزِلَ عَلَيَّ غَضَبَكَ ، أوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ ، لَكَ العُتْبى حَتَّى تَرْضى ، ولا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بِكَ) .

لا حِقْدَ وَلا ضَغينَةَ

وينزلُ جبريلُ مِنَ السَّماءِ ليسألَهُ : (يا محمّدُ إنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَكَ الذي قُلْتَهُ الآنَ ، فاطْلُبْ مِنْهُ ما تَشاءُ ، إنْ شِئْتَ دمَّرَ على ثقيفٍ الجبالَ ، وإنْ شِئْتَ خسفَ بِهِمُ الأرْضَ) وكأنَّهُ يقولُ لرسولنا ﷺ : (اطلبْ يا محمّدُ مِنْ رَبِّكَ ، وسَتَرى الجوابَ عَلى الفَوْرِ ، وإنِّي بانتظارِ

كلمةٍ واحدةٍ مِنْكَ رَدّاً على كُفْرِ قَوْمِكَ بِكَ) . إنَّ الرسولَ صاحِبَ القَلْبِ الكبيرِ لَنْ يَطْلُبَ كُلَّ هٰذا مِنْ جِبْريلَ ، ولا مِنْ رَبِّ العالمينَ ، أَتَعْرِفونَ لماذا ؟ لأنَّ الدَّاعيةَ إلى اللهِ عليْهِ أنْ لا يَحْمِلَ شَيْئاً مِنَ الحقْدِ والضَّغينةِ على النَّاسِ ، فإنْ حملَ شيئاً مِنْ ذلكَ فإنَّهُ لَنْ يستطيعَ دعوتَهم إلى الله ، وسيبْقى حاقِداً عَلَيْهِمْ ، دُونَ أنْ يُحِبَّ لهُمُ الهِدايَةَ والصَّلاحَ ، ولَيْسَ أمامَنا يا أحبَّتي إلا أنْ نَتعلَّمَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ هٰذا العملَ الطَّاهِرَ ، وأنْ لا نَحْقِدَ على مَنْ عَادانا وإنْ كُنّا لا نُحبُّهُ ، بَلْ نَعْطفُ عليْهِ ، ونعملُ معَهُ الكثيرَ محاولينَ إقْناعَهُ، قَبْلَ أنْ نَدْعوَ عليهِ . .

مِنْ أَصْلابِهِمْ

هَلْ تَدْرونَ ماذا كانَ جوابُ رسولِ اللهِ ﷺ لجبريلَ ؟ لَقَدْ خَرَجَ مِنْ فمِ الرّسولِ أطْيبُ الكلامِ وأَحْلاهُ ، ودَلَّ بذلكَ على طِيبةِ نفْسِهِ ، وسَعَةِ قَلْبِهِ ورَحابَةِ صَدْرِهِ . . وصَفاءِ سَريرَتِهِ ، لَمْ يطلُبْ مِنْ جبريلَ تدميرَ الجبالِ على ثَقيفٍ ، ولا خَسْفَ الأرْضِ بها ، بَلْ طلبَ أنْ يتركَ أهْلَ الطَّائفِ كَما هُمْ على قَيْدِ الحَياةِ . . يأْكُلونَ ويشربونَ عَسى اللهُ أنْ يُخرِجَ مِنْ أصْلابِهِم ومِنْ ذُرِّيتِهم مَنْ يعبدُ اللهَ وَحدَه لا شريكَ لَهُ . . وحقّاً لقَدِ اسْتَجابَ اللهُ طَلَبَ رسولِهِ ورجاءَهُ ، والرَّسولُ يا أحبّتي مقتنعٌ بأنَّ النِّهايةَ إلى خيرٍ ، وستَرَوْنَ في حلْقةٍ قادمةٍ كيفَ أنَّ الكثيرينَ مِنْ أبناءِ

ثقيفٍ وقريشٍ وغيرهما غدَوْا أبْطالاً مجاهدينَ يحمونَ رسولَ اللهِ ويُدافعونَ عَنِ الإسْلام . . اللّهمَّ اجْعَلْنا واجعَلْ ذُرّياتِنا في المستقبلِ مِنَ الصَّادِقينَ في إيمانِهِمْ ، الذينَ يحبُّونكَ ويحبُّونَ رسولَكَ ويحملُونَ رسالَتَكَ.

بِشارَةٌ مِنَ الجنِّ

ويَنْصرِفُ الرسولُ ﷺ مِنَ الطّائِفِ عائِداً إلى مَكّةَ ، وقَدْ رَبحَ إيمانَ عَدّاسٍ ، ويصلُ في طَريقِهِ إلى مكانٍ يُسَمّى (نَخْلَةَ) ، فيقومُ مِنَ اللّيْلِ يصَلّي ويرتّلُ مِن القرآنِ . . فَيَسْمعُهُ نَفَرٌ مِنَ الجنِّ (والجنُّ مخلوقاتٌ عاقِلَةٌ مثْلنا ولا نَراها) ، فماذا كانَتِ النتيجةُ ؟ . . عَجِبُوا مِنَ الكلامِ القرآنيِّ الجميلِ . . وآمَنُوا بالرسولِ وصَدَّقوهُ ، وذَهبُوا إلى قومِهِم مِنَ الجنِّ يَدْعونَهم إلى الإسْلامِ دُونَ أَنْ يَعْلَمَ محمّدٌ بكُلِّ ذلكَ . ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

ثُمَّ يعلَمُ الرسولُ ﷺ بهذا عَنْ طريقِ جبريلَ ، فيفْرحُ كثيراً لأنَّ رسالتَهُ قَدْ بَدَأَتْ تشقُّ طريقَها عِنْدَ مخلوقاتٍ واعيةٍ أخرى ، ويتأكّدُ أنَّ رسالتَهُ للجميعِ مِنَ الإنْسِ والجنِّ ، وأيْقَنَ أنَّ بَراعِمَ الفرجِ قَدْ آذَنَتْ ، وأنَّ بَشائِرَ النَّصرِ قَدْ أَطلّتْ . .

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
٢٤

هذه سبيلي

كيْفَ سَيعُودُ ؟

تأكَّدَتْ قُريشٌ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمْ يلاقِ نَجاحاً في ثقيفٍ ، ففرِحتْ لِذلكَ أشدَّ الفَرَحِ ، وَلا سِيَّما عِنْدَما عَلِمَتْ أَنَّهُ قَدْ لاقىٰ وَعلىٰ غيرِ يَدَيْها أَشَدَّ ألوانِ العذابِ والاضطِّهادِ ، لكنَّها أَخَذَتْ تُفكِّرُ ، كيْفَ سيعودُ محمّدٌ إلىٰ مكَّةَ ، بعْدَما لاقىٰ ما لاقاهُ في ثقيفٍ ؟ هَلْ يا تُرى سَيَكُفُّ عَنْ دعوتِهِ ؟ وهَلْ يجدُ اليأْسُ إلى نَفْسِهِ سَبيلاً ؛ فيغْلِقَ عليهِ بابَهُ في مكَّةَ إذا عادَ إليها ؟.

الكُلُّ يظنُّ أَنَّ رسولَ اللهِ لَنْ يعودَ إلى قُريشٍ بعدَ أَنْ يَئِسَ مِنْ إيمانِهِم، لكنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ على ثقةٍ بنصرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ، وعَالِمٌ بأَنَّ اللهَ جاعِلٌ وَلا بُدَّ مَخْرجاً وفَرَجاً ، وبأنَّ اللهَ لا شَكَّ سيعزُّ دينَهُ ونبيَّهُ بَيْنَ العربِ أجمعينَ . . لا على قُريشٍ وثقيفٍ فَحَسْبُ ، وإنْ كانَ قَدْ لاقىٰ الهوانَ فلا يَعْني هَذا أَنَّهُ لَنْ يلاقيَ النَّجاحَ في النِّهايةِ مَهْما عَلَتْ شوْكَةُ الباطِلِ .

وبماذا سَيُفكِّرُ ؟

وَلمْ يكتفِ الزُّعماءُ مِنْ قريشٍ بسؤالِهِم عَنْ عودةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، بَلْ إنَّنا نجدُ سُؤالاً آخَر تتناقلهُ ألسنتُهُم دونَ أَنْ تعرِفَ لَهُ جواباً شافياً ،

كُلُّ الألسِنَةِ تقولُ : ماذا سيفعلُ مُحَمّدٌ يا تُرىٰ إذا عادَ إلىٰ مَكَّةَ ؟ وهَلْ سيبْقىٰ يَدْعُو قُرَيْشاً ؟ أَمْ إنَّهُ قَدْ يَئِسَ مِنْ دعوَتِهِ لها ؟ كُلُّ هَذِهِ الأسئلةِ بَقِيَتْ جانِباً عندما دخَلَ أَحَدُ الزّعماءِ على المجلسِ وَهُوَ يقولُ : لا تُفكِّروا طويلاً . . لقَد استجارَ مُحَمّدٌ في مكَّةَ بـ (المُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ) ، وإنَّنا سَنَضطرُ إلىٰ مُراعاةِ هَذا الجوارِ ، واعْلَمُوا أَنَّ محمّداً المستجيرَ ، سوْفَ يعرِضُ دعوَتَهُ علىٰ قَبائِلِ العربِ في موسِمِ الحجِّ القادِمِ، ولا يَخفىٰ عليكُم ما لدعوَتِهِ مِنْ تأثيرٍ ومَا لآياتِ القرآنِ التي يَتْلُوها مِنْ جاذبيَّةٍ وسحرٍ وطلاوةٍ ، وَها أنذا قَدْ أخبرتُكُمْ ، فانْظُروا أَمْرَكُمْ لكيْ تَحولوا بيْنَ قبائِلِ العربِ ، وبينَ دعوةِ محمّدٍ الخطيرةِ ! !

وماذا سَنَعْمَلُ ؟

وفُوجِئَ الجمْعُ مِنَ الزّعماءِ بهذا الخبَرِ ، إنّهم لَمْ يحْسُبوا حِساباً لتفكيرِ محمّدٍ هَذا ، بَلْ ظَنُّوا أَنَّ اليأْسَ سَيُحيطُ بهِ مِنْ كُلِّ جانبٍ ، والوَحْشَةَ ستُظِلُّهُ أينَما حَلَّ وأنّىٰ ذهَبَ ، أمَّا أَنْ يقومَ محمّدٌ بدعوةِ القبائلِ في موسمِ الحجِّ فهذا ما لَمْ يَخْطرْ علىٰ بالِهِم ، لأنَّهم رأَوا عِنادَ أَنفسِهِمْ ، وعَلِمُوا بِعِنادِ ثقيفٍ في الطَّائِفِ ، فأَقْنَعوا عقولَهم بأَنَّ محمّداً لَنْ يَسْتَمِرَّ في دعوَتِهِ ورسالتِهِ. مِنْ أَجْلِ هذا استمرَّ الاجتماعُ لكي يخطِّطَ الزُّعماءُ أُمورَهُمْ ، ويُرتِّبوا خِطَّتَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقِفوا سَدّاً منيعاً في وَجْهِ محمّدٍ ودعوَتِهِ، وجَميعِ مُحاولاتِهِ لدعوةِ القبائِلِ ، ولقَدْ قالَ أَحَدُ الكِبارِ فيهم

وهُوَ الوليدُ بنُ المغيرةِ: (نُريدُ رَأْيـاً واحِداً ، أَجْمعوا أَمْرَكم ، ولا تَخْتلفوا ، فيكذِّبَ بعضُكم بَعْضاً) .

إنَّهُ ساحِرٌ

قالُوا للْوليدِ : يا أبا عبدِ شمسٍ ، ما رأْيُكَ أَنْ نقُولَ فيهِ : (كاهِنٌ ! ؟) قالَ : لا واللهِ ، ما هُوَ بكاهِنٍ ، لقَدْ رأَيْنا الكُهَّانَ ، فَما هُوَ بذلكَ . قالُوا : نقولُ : (مجنونٌ ؟ !) قالَ : ما هُوَ بمجنـونٍ ، لقَدْ رأَيْنا الجنونَ وعرفناهُ ، فَما هُوَ بـذلك ، قالُوا : نقُـولُ : (شاعِرٌ ؟ !) قـالَ : ما هُوَ بشاعِـرٍ فقد عرفْنا الشِّعرَ كلَّهُ وما كلامُهُ بالشِّعْرِ . .

وحارَ الحاضِرونَ في الذي يَرَوْنَهُ ، قالُوا : إذاً نقُولُ : (سـاحِرٌ ؟ !) قالَ الوليدُ : واللهِ إنَّ لِقَوْلِهِ لحلاوَةٌ ، وما أنتُـم بقائِلينَ مِنْ هَذا شَيئاً إلا عُرِفَ أَنَّهُ باطِـلٌ ، ولعلَّ أَقْربَ القَوْلِ فيـهِ أَنْ نقولَ : (ساحِرٌ ، جـاءَ بقولٍ هُوَ سحرٌ ، يُفـرِّقُ بينَ الأبِ وابنِهِ وأخيهِ وزوجتـهِ وعشيرتِهِ . هَـذا هُوَ الحلُّ المقبولُ ، ولا بـأْسَ أَنْ نقولَـهُ للحجَّاجِ) ، وانْفـضَّ المجْلِسُ على هَـذا الرَّأْيِ ، وخَرَجَ الوليدُ معَ الحاضِرينَ .

حذارِ أيُّها الحُجَّاجُ

وهَذا مـا كانَ حَقّـاً . . حيثُ حضَرَ الحجَّـاجُ ، وكانَ مـوسمُ الحجِّ ، وجعلتْ قريشٌ تجلِسُ في طُرقِ النَّاسِ الآتينَ إلى مكَّةَ ، لا يمرُّ بهِمْ أَحَدٌ

إلا حَذَّروهُ ، وذَكَـرُوا لَهُ أَمْرَهُ ، تَرىٰ الكـافِرِ يَتْبَـعُ الرَّسـولَ أَيْنَما ذهبَ ، لِيَصُدَّ النَّاسَ عنْهُ إذا ما دَعاهُم الرّسولُ ﷺ . .

وكـأَنَّكُـمْ بالحجَّاجِ الآنَ ، وكلُّهم يَسْمَعـونَ تَحْذيراً واحِداً مِـنْ حَوْلهم وفي طُـرقِهم : (حَـذارِ يـا حجَّـاجَ البيتِ الحرامِ . . أَبقُـوا على آلِهتِكُـمْ وأَصْنامكم)، وإذا ما أرادَ حاجٌّ منَ الحجاجِ استيضاحاً ، جاءَ الجوابُ مِنْ زعَماءِ الكَفَرةِ : (إيّـاكم مِنَ السَّاحرِ الكبيرِ محمَّـدٍ ، لا تَسْمَعُوا لَهُ ، ولا لأَقوالِـهِ ، فيَسْحَرَكُمْ ، ويفرِّقَ بينكُـمْ ، وإنَّنا لَنَعْرِفُهُ ونَحْنُ عشيرتُهُ وقومُـهُ ، فابْعُدوا عنْـهُ ، ولا تسمَعُوا لقرآنِـهِ) ، ولكأَنِّي بمكَّةَ كُلُّهـا ترِنُّ بالتَّحذيرِ ، ويَسْمَعُ الصَّدىٰ رسولُ اللهِ المجاهِدُ الكبيرُ ﷺ .

لَهيبُ أَبي لَهَبٍ

وهَذا صـوتُ الرسـولِ ﷺ ، يعلو كلّما سَنَحَتِ الفرصَةُ : (يا بَني فُلانٍ ، إنّي رسولُ اللهِ إليْكُم ، آمركُمْ أَنْ تَعْبدوا اللهَ ، ولا تُشركوا بِهِ شَيْئاً) . وما أَنْ ينتَهي ، حَتَّى يَخْرجَ صوتُ عمِّهِ أبي لهبٍ مِنْ خلْفِهِ ، وهُوَ يقولُ : (يا بَني فُلانٍ : إنَّما هُوَ ساحِرٌ ، يـدْعوكُمْ إلى أَنْ تَسْلَخُوا اللاتَ والعُزّىٰ مِنْ أَعنـاقِكُمْ ، وحلفـاءَكُـم مِـنَ الجِنِّ ، إلى مـا جـاءَ بِهِ مِنَ البِدْعَـةِ والضَّلالةِ، فَلا تُطيعوهُ ولا تَسمعوا لَهُ ، إنَّـهُ ابنُ أَخي ، وأنا أعْلَمُ النَّاسِ بِهِ) .

ويتضايَقُ الرسولُ ﷺ لما يصْدر عَنْ عَمِّهِ ، وكانَ ممَّا يخَفِّفُ ضِيقَهُ وحزنَهُ ، أنَّهُ قَدِ اعتادَ مِثْلَ هذا الموقِفِ مِنْ عمِّهِ الملتهبِ بالعَداوَةِ ، وأراكُمْ يا أحبَّتي تتذكَّرونَ هذِهِ العداوَةَ التي شَنَّها أبو لهبٍ ضِدَّ ابْنِ أخيهِ مِنْ أوَّلِ ما بَدَأَ الرسولُ ﷺ دعوَتَهُ ورِسالتَهُ .

وَجهالَةُ أَبي جَهْلٍ

وأبو الحكَمِ فرعونُ الأمَةِ . . عدوٌّ آخرُ ، أظنُّكُم قَدْ حفظتُم كُنيَتَهُ الجديدةَ التي التصَقَتْ بِهِ . . إنَّهُ أبو جَهْلٍ كما ناداهُ رسولُ اللهِ ﷺ ، يَمشي وَراءَ محمَّدٍ ، ويضعُ التُّرابَ فَوْقَ الرأْسِ الطَّاهِرِ الشَّريفِ ، كُلَّما مَرَّ على قومٍ يأمرُهُم بالتَّوحيدِ ، وقوْلِ لا إلهَ إلا اللهُ . فإذا ما وَضَعَ التُّرابَ قالَ مُشيراً إلى رَسُولِ اللهِ : (يَا أَيُّها النَّاسُ لا يغرَّنَّكُم هذا عَنْ دِينكُمْ ، فإنَّما يُريدُ أنْ تَتركوا عِبادَةَ أصنامكُمْ وآلهتِكُمْ)

هَذا هُوَ عملُ الجاهِلِ أيُّها الأحبَّةُ العاقلونَ ، يدلُّ على سخافَةِ فاعِلِه ، ويزيدُهُ جهالَةً فوقَ جهالَتِهِ التي طَبَعَ بها سُلوكَهُ وبُغْضَهُ للحقِّ ، وأيُّ جهلٍ أشدُّ مِنْ عَمَلِ أبي جَهْلٍ ؟ محمَّدٌ يأمُرُ النَّاسَ بالعقْلانيَّةِ والتفكيرِ لكَيْ يُفْلحوا ، فيأْتي أبو جَهْلٍ ليبقيَهُمْ في ضلالِهِمْ ، وكُفْرِهِمْ ، مُستَخْدِماً أسْلوباً عقيماً خاطِئاً ! ! اللهمَّ اجعَلْنا مِنْ أصْحابِ العقولِ المستنيرةِ .

اخْتِلافٌ في الرَّدِّ

ومَعَ الأسَفِ ، فالنَّاسُ سيحسبُونَ حِساباً لقريشٍ زعيمتِهِمْ ، فكلُّ القبائِلِ في ذاكَ الموسِمِ ، قَدْ تأثَّرت بسعْيِ قريشٍ ضِدَّ محمَّدٍ ، ورأى الرسولُ ﷺ أنَّ القبائِلَ قَدْ رفَضَتْ رأْيَهُ ودعْوَتَهُ ، ومما خفَّفَ عنْهُ حزنَهُ أنَّهُم اختَلفوا في الرَّدِّ فليْسَ الجميعُ ممَّنْ يَقْسُونَ ويُغْلِظونَ لَهُ القَوْلَ والجوابَ .

صحيحٌ أنَّ مِنَ القبائِلِ مَنْ رَدَّ بشكْلٍ قبيحٍ ، ومنْهُم مَنْ سَخِرَ مِنْ رسولِ اللهِ محمَّدٍ ودَعْوَتِهِ ، ومنْهم مَنْ ساوَمَهُ على الثَّمنِ إذا أرادَ الإيمانَ ، إلا أنَّ هناكَ مَنْ طَلَبَ مِنْ محمَّدٍ فُرْصَةً يتأنَّى فيها في الرَّدِّ ، ويُفكِّرُ في الأمرِ ، وينظرُ في العواقِبِ . . ثمَّ يجيبُ الرَّسولَ إلى الإيمانِ أَوْ يرفُضُهُ ، ولعلَّ هذِهِ الفِئَةَ الأخيرةَ هيَ التي أحسَنَتِ القَوْلَ ، وزيَّنَتْ رَدَّها بِأُسلوبٍ حَسنٍ جميلٍ ، دُونَ فُحْشٍ في الكلامِ . . اللهمَّ جمِّلْ كلامَنا وأعمالَنا وسلوكَنا . . اللهمّ كما حَسَّنْتَ خَلْقَنا فأَحْسِنْ خُلُقَنا .

صورةٌ مِنَ العَرْضِ

قالَ الرسولُ ﷺ لقومٍ مِنْ ربيعَةَ جاؤُوا إلى موسِمِ الحَجِّ : (أدْعُوكم إلى شَهادَةِ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ ، وأنِّي رسولُ اللهِ ، وأنْ تُؤْووني وتَنْصُروني حتَّى أُؤَدِّيَ عَنِ اللهِ الذي أمرَني بِهِ ، فإنَّ قُرَيْشاً قَدْ

تظاهرت على أمر الله، وكذّبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد)، ثم تلا عليهم شيئاً من القرآن الكريم: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾

فلمّا سمعوا منه هذا القول قال زعيمهم: (دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذّبوك وظاهروا عليك).

في كلّ موسم

ومع كل الردود التي واجهها سيدنا محمد ﷺ في موسم الحج، فإنه لم يزدد إلا حماسة ومحبة للدعوة، وهو واثق أنّ الله لا بدّ ناصره في نهاية الأمر، لذلك راح يدعو في المواسم التالية، كلما أتى العرب إلى مكة، دعاهم وبيّن لهم دعوته، وركّز على وحدانية الله، وأفضل الأخلاق، ثمّ زاد على ذلك بقوله: (لا أكره أحداً على شيء، من رضي منكم بالذي أدعو إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه).

وهذا الكلام الأخير أيها الإخوة إنما هو دليل على أنّ المبدأ والعقيدة لا

يمكن أن يعتنقها الإنسان قسراً وجبراً، وأن يؤمن بها قوة وضغطاً، حتى ولو نفّذ ما يراد منه خوفاً من الآخرين، وهل هناك أجمل من قول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾؟ والإكراه منّا أو من غيرنا لا يجدي خيراً.

تحذير قريش

وقريش كانت تعلم عدم إجبار الرسول محمد لأحد في الإيمان به، لكنها كانت وراءه في كلّ كلمة يقولها، وفي كلّ آية يتلوها، وكلّ خوفها أن يؤمن واحد من الحجاج.

ولهذا بذلت قريش كلّ ما في وسعها، وكلّ ما تستطيعه في سبيل محاربة الرسول وتشويه دعوته.. ونظراً لمكانة قريش العالية كما علمتم فإنها ستنجح في بادئ الأمر، وستقف الأقوام مترددة في الإيمان بمحمد والتصديق بدعوته، ولو تتبعنا أخبار من آمن من الحجاج لوجدنا العدد قليلاً، لكن.. لو أحببنا أن نضع تفسيراً وتحليلاً يقرّب لنا فهم السبب في هذه القلّة.. لكان الجواب والتبرير من الأقوام كما ترونه في الصفحة التالية.

كفر به قومه!!

إنهم سيقولون لنا: (ألا ترون أنّ قوم الرجل الذي يدعونا لتصديقه هم أعلم الناس به؟ وألا ترون أنّ رجلاً مثل محمد لن يستطيع إصلاحنا

إذْ أَنَّـهُ لَمْ يَستطِـعْ حَتَّى الآنَ إصْـلاحَ قَـوْمِـهِ ؟) . ولَوْ طَلَبْنـا مِنْهـمْ أَنْ يتحدَّثوا عَنِ السَّببِ الحقيقيِّ لقالُوا وهُمْ يتسَتَّرونَ مِنْ قريشٍ : (إنَّنا لا نَسْتطيعُ في الحقيقةِ إلا أَنْ نُجامِلَ قريشاً ، ونتَّقيَ مِنْها موقفَ العِداءِ ..) . . ولَوْ سألناهُمْ : أَلَمْ تعتقـدوا حتَّىٰ الآنَ بصدْقِ محمّدٍ ؟ لهزُّوا رُؤوسَهم بالإيجابِ ، لكنّهمْ سَيُتْبِعونَ حركةَ الرَّأْسِ بقولِهم : (إنَّهُ لا حِيلَةَ لَنا عَلى الرُّغْمِ مِنْ صِدْقِ رسولِكُمْ ، إلا أَنْ نعتذِرَ إليهِ ونقولَ لقرَيْشٍ : لَنْ نؤْمِنَ بِرَجلٍ كذَّبَهُ قومُهُ) .

وسَيترُكُ جوابُهُمْ أثراً في نُفوسِنا ، وحُزْناً على كُلِّ إنسانٍ يخافُ مِنَ الآخرينَ ، ويُجامِلُهُمْ على الشَّرِّ مُبْتعِداً عَنِ الحَقِّ مع اقتناعِهِ بصوابِ سبيلِ الإسلامِ .

صُورةٌ مِنَ التَّأْثيرِ

ولعَلَّ شِدَّةَ تحذيرِ قريشٍ مِنْ محمّدٍ ، قَدْ جعَلتْ خَبَرَهُ ينتشرُ كالبرْقِ في بلادِ العربِ كُلِّها ، فكانَ التَّحذيرُ سَبباً في لَفْتِ الأنظارِ إلىٰ محمّدٍ ، وإلىٰ ما يَدْعُو إليهِ مِنْ هٰذا الدِّينِ الذي تُحذِّرُ منهُ قريشٌ ، وإنْ حَزِنْتُم يا أَحبَّتي لحزْنِ رسولِنا الحبيبِ ، فإنِّي سَأُقَدِّمُ إليكمْ ما يُفرِحُكُمْ الآنَ .

إنَّني سأقُولُ لكُمْ : لا يَخلو بَنُو البَشرِ مِنْ أَحْرارٍ في عقولِهِمْ ، ومنهُمُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرو الدَّوْسيُّ ، الذي كادَ أَوَّلَ الأمرِ أَنْ يستجيبَ لقريشٍ في

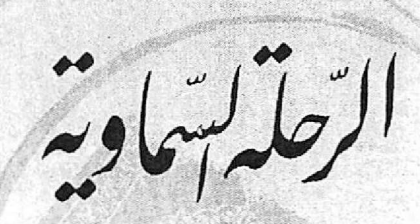
تَحْذيرِها لَهُ مِنْ محمّدٍ، إلا أنَّهُ أبىٰ إلا أنْ يَسْمَعَ دَعْوَةَ محمّدٍ وقرآنَهُ. وما أَنْ تَلا عَلَيْهِ رسولُنا القرآنَ ، حَتَّى خَشَعَ قَلْبُهُ ، وتحرَّكَ الإيمانُ بَيْنَ جوانِبِهِ، وقالَ : (لا واللهِ .. ما سَمِعْتُ قَوْلاً قطُّ أَحْسنَ منْهُ ، ولا أَمراً أَعْدلَ مِنْهُ) ، ثُمَّ أَسْلَمَ، وشَهِدَ شَهادَةَ الحَقِّ . لقد قالَ : أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأَنَّ محمّداً رسولُ اللهِ، وكانَ سَبَباً في إيمانِ قومِهِ كُلِّهِمْ .

شَرٌّ فيهِ خَيْرٌ

لذلكَ يا مَنْ تحبُّونَ رسولَكُمْ : لا تَخافُوا مِنَ الشَّرِّ الذي يقومُ بهِ الأعداءُ ، فَها أَنتم أُولاءِ قَدْ لاحظْتُمْ في أكثرَ مِنْ حَلْقةٍ أَنَّ ما تَبْغيهِ قريشٌ مِنْ شَرٍّ ضِدَّ الرَّسولِ محمّدٍ ودعوتِهِ ينعكسُ عَلَيها ، فقد خَسِرَتْ في وَفْدِها إلى الحبشَةِ ، وفي حِصارِها لبني هاشمٍ وبني المطَّلِبِ ، وفي تَحْذيرِها للنَّاسِ في مواسِمِ الحجِّ ، حيثُ انقلبَ هٰذا التَّحذيرُ وَبالاً عَلَيها . ولَوْلا محارَبَةُ قريشٍ هٰذِهِ لما ذاعَ الإسْلامُ وانْتَشَرَ حَقّاً بهٰذِهِ السُّرعةِ ، ولما ذاعَ نبوُّتُهُ في جميعِ بلادِ العربِ ، ولما آمَنَ الأحرارُ مِنْ أمثالِ الطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرو الدَّوسيِّ رضيَ اللهُ عنْهُ وزادَ مِن أمثالِهِ .

قُولوا مَعي أَخيراً : (لَـنْ نَخافَ مِنَ الكُفَّارِ ، ولَوْ حارَبُونا ، فَحَرْبُهم هِيَ مِنْ سُبُلِ تَفْريجِ الكروبِ ، وَصَبْرُنا على ذلكَ سَيَنْتَهي إلى الغايةِ التي نُريدُها دَوْماً ، وهيَ إيمانُ البَشَرِ جميعاً باللهِ وبرسولِ اللهِ ﷺ) .





رِحْلَةٌ خاصَّةٌ

في هذِهِ الحلقـةِ يا أحبَّتي ، سَنكـونُ على استعدادٍ خاصٍّ لكَـيْ نَفْهم شَيئاً جَديداً مِنْ حَياةِ رَسُولنا الكريمِ ﷺ . . إنَّ اللهَ تَعالى قَدْ خَصَّ نبيَّهُ مُحمَّداً ﷺ ، بِرِحْلَةٍ خاصَّةٍ لَمْ تكُنْ لرسولٍ مِنَ الرُّسُلِ السَّابقينَ ، أَوْ لأحدٍ مِـن البشرِ أجمعينَ لا مِنْ قَبْـلُ وَلا مِنْ بَعْـدُ ، هـذِهِ الرّحلـةُ هِيَ رِحلَـةُ الإسْراءِ والمعْراجِ ، وقبْلَ أَنْ أَبدأَ مَعَكُمُ الحديثَ عَنْها . . أُحِبُّ أَنْ أَشْرَحَ لكُمْ كَلِمَتَي : (الإسراءِ – والمعراجِ) . .

الإسراءُ يا أحبَّتـي هُوَ التنقُّـل والسَّيرُ لَيْلاً مِـنْ مَكانٍ إلى آخَـرَ ، وأمَّا المعْراجُ فَهُوَ العُـروجُ والرُّقيُّ والصُّعودُ إلى أعْلى ، ومِنْ هـذا تُدرِكُونَ أَنَّ هذِهِ الرّحلَةَ التي سنَعيشُ مَعَها الآنَ قَدِ انْتَقَلَ فيها الرّسولُ مِنْ مكَّةَ إلى مكانٍ آخَرَ ، ثُـمَّ عُرِجَ بِهِ إلى أَعْلى ، فتعالَوْا بَعْدَ هَـذا المعْنَى اللَّفْظيِّ . . ننتقلُ ونَعْـرجُ بأرواحِنـا مَعَ رسـولِ اللهِ في رِحْلَتِهِ التـي عاشَهـا بِجِسْمِهِ وروحِهِ مَعاً .

لِماذا حَدَثَتْ ؟؟

لَوْ فتحْنا المصْحَـفَ على سورةٍ كريمةٍ اسمُها سورةُ الإسراءِ لـوَجَدْنا أَنَّ أَوَّلَها هُوَ قولُهُ تعالَى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ

ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وهذِهِ الآيَةُ يا إخوتي، تدلُّنا بلا شكٍّ علىٰ أَنَّ الغَايَةَ مِنَ الإسراءِ برسولِ اللهِ أَنْ يُرِيَهُ اللهُ مِنْ آياتِهِ . . وإنْ قرأْنا سورةً أُخرىٰ تُسَمَّى سُورَة النَّجْمِ، وجَدْنا آياتٍ تتحدَّثُ عن المعْراجِ وفيها قولُهُ تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ .

والآيتانِ يا أحبَّتي تُؤكدُ كُلٌّ منهُما الأُخرىٰ في غايةِ الرحلةِ . . وتزيدُ الثَّانيةُ عَنِ الأُولىٰ أَنَّ الآياتِ التي سَيَراها الرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ هي آياتٌ كبْرىٰ . . وهي لا تُوجد إلا في عظيمِ ملكوتِ اللهِ وعجائبِ كونِهِ البديعِ . . هيّا إلى هَذِهِ الآياتِ . . التي حكاها لنا القرآنُ، لنزدادَ محبَّةً لرسولِ اللهِ، وإيماناً برسَالتِهِ . .

سَماعٌ وَرُؤْيَةٌ

وقَدْ يقولُ أحدُكُم: إنَّ الرُّؤْيَةَ للأشياءِ تَزيدُ الإنْسانَ عِلْماً ويقيناً وإيماناً، وهَذا صحيحٌ أَيْضاً، وإنَّ الرسولَ ﷺ قَدْ سَمِعَ قَبْلَ الرّحلةِ عَنْ آياتِ اللهِ، وذَلِكَ مِنَ الآياتِ التي تَنْزِل عليْهِ، أَيْ مِنَ القرآنِ الكريمِ، لكنَّهُ في هَذِهِ الرّحلةِ سنراهُ وقَدِ اطمأَنَّ قلبُهُ أكْثَرَ، واسْتَنارَتْ بصيرتُهُ نُوراً علىٰ نورٍ، وازْداد يقينُهُ بصِحَّةِ طريقِهِ، وصوابِ عقيدتِهِ . والإنْسانُ بطبعِهِ ميَّالٌ إلى أنْ يعرفَ أكْثَرَ، فقَدْ لا يكْتَفي بأَنْ يسمعَ الخبَرَ الصّادقَ، بَلْ يُحِبُّ أنْ يرىٰ هَذا الحدَثَ أوْ هَذا الخبَرَ، وقَدْ تزيدُ علىٰ

ذلكَ بأَنْ تُجرِّبَ وتعيشَ هَذا الخبرَ بنفسِكَ، ومثالُنا على هذا: (يَسْمَعُ المرْءُ مِنَّا أَنَّ هُناكَ مدينةً اسْمُها مكَّةُ . . فإذا ما سافَرَ إليْهَا تيقَّنَ بُوجودِها، وإذا ما عاشَرَ أَهْلَها وعَرفَ أَحْوالَهم فقَدْ وَصَلَ بذلكَ إلىٰ أَعْلىٰ درجاتِ المعرفةِ عَنْ مَكَّةَ) .

إكْرامٌ كبيرٌ

وهَذهِ هي نفْسُ الإنسانِ المتطلِّعةِ إلى الحقِّ يا أحبَّائي، ومَعَ ذلكَ فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ على درجةٍ منَ الحياءِ والأدبِ مَعَ ربِّهِ، بحيثُ أنَّهُ لَمْ يطلبْ منْهُ هذِهِ الرِّحْلةَ على الرَّغْمِ مِنْ تشوُّقِهِ وشَوْقِهِ لدرجاتٍ مِن المعرفةِ عاليةٍ . ولقَدْ كانَ الوحْيُ ينزلُ عليْهِ بخبَرِ ما سيَراهُ في رحْلَتِهِ، لكنَّ اللهَ تعالى أَكْرمَهُ هذِهِ المرَّةَ وهُوَ الكريمُ، وإنَّهُ لإكرامٌ كبيرٌ حقّاً أنْ يرى الرَّسولُ محمدٌ بنفسِه عجائبَ اللهِ وبدائعَ صُنعِهِ .

وإذا ما انتهتِ القِصَّةُ والرِّحلةُ، فستدركونَ أيَّ إكرامٍ كرَّمَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ، بَلْ وأيَّةَ منزلةٍ أعْطاها لحبيبِهِ محمّدٍ ﷺ، يخصّه بذلكَ وحْدَهُ دونَ سائرِ رُسلِهِ وأنبيائِهِ، وستعرفونَ أنَّها مِنْ أجَلِّ المعجزاتِ وأحْلاها، اللَّهمَّ سبحانَكَ فأنْتَ خالقُ الملكوتِ العجيبِ، وأنْتَ تقدرُ على أنْ تصْنعَ لحبيبكَ ما يُفرِحُهُ ويسرُّهُ، ويزيدُه يقيناً .

إنَّكَ بأَعْيُنِنا

وتكْرِيمُ اللهِ لرسولِهِ يا أحبَّتي ، لا يَعْني أَنَّ الرَّسولَ ﷺ يَستحِقُّ هذِهِ المعجزَةَ فحسْبُ ، بَلْ ويدلُّ على أَنَّ اللهَ لَمْ ينْسَ رسولَهُ أَسيرَ الحزْنِ ووساوِسِ الشَّيطانِ ، بلْ أَثْبتَ لَهُ أَنَّ الخالقَ الذي حفِظَهُ منْذُ نشأَتِهِ وطفولتِهِ ، سَيَحْفَظُهُ في شبابِهِ وأَثْناءِ دعوتِهِ وأداءِ رسالتِهِ وتبليغ أمانتهِ . وكأَنّي بالوَحْيِ يُودِعُ في قلبِ محمّدٍ ﷺ أَنْ : لا تيأَسْ يا محمّدُ مِنْ أَنَّ دينَ اللهِ سينتصرُ في النّهايةِ ، ولا تحزَنْ إن اشْتَدَّ عليْكَ الأَذىٰ مِنْ قريشٍ أَوْ غيرِها ، بعدَ أَنْ ماتَ عَمُّكَ النّصيرُ ، وفقَدْتَ زوجَكَ الأَنيسَ . واعْلَمْ بأَنَّ اللهَ معكَ ، وهُوَ السَّميعُ البصيرُ يؤْنِسُكَ وينصُرُكَ ، ويبَدِّدُ حُزنَكَ علىٰ فراقِ الأَحبّةِ . . إنَّكَ بأَعْيُنِنا يا محمَّدُ ، وسنطْلُبُكَ الآنَ إلىٰ السَّماواتِ لكَيْ تُزيلَ همُومَكَ وتفرِّجَ كربتَكَ ، ويزدادَ إيمانُكَ رُسُوخاً ، وسَترجِعُ إلى الأَرْضِ مطمئِنَّ القلْبِ ، منشرحَ الصّدرِ .

إلىٰ الأَقْصىٰ

وها هُوذا رسولُ اللهِ ﷺ يَصْحَبُهُ جبريلُ علىٰ راحِلَةٍ هيَّأَها اللهُ للحبيبِ الزّائِرِ ، وينطلِقُ الاثنانِ مِنَ المسجدِ الحرامِ في مكَّةَ إلىٰ المسجدِ الأَقْصىٰ في القُدسِ . . وبِسُرْعَةٍ فائقةٍ يتمُّ الوصولُ ، ويتعرَّفُ الرسولُ ﷺ علىٰ هذا المسجدِ الذي بناهُ الرسولانِ داوودُ وسليمانُ ، وكانَ مَهْبطَ الوحْيِ على رُسلٍ وأنبياءَ كثيرينَ ، وهُناكَ في البيْتِ المقدَّسِ . . وجَدَ

الرَّسولُ حَشْداً مِنَ الأنبياءِ والرسُلِ ينتظرونه ليصلِّي بهِمْ جميعاً ، جَمَعَهُمْ اللهُ ليروْهُ هُناكَ ، ويؤكِّدَ أَنَّ القُدْسَ مُسْلِمَةٌ ، وإسلاميَّةٌ في تكْوينِها على مَدارِ التّاريخِ ، وأنَّ لها معَنا أُخُوَّةً ، ولها مع مكَّةَ صُحْبةٌ وقَرابةٌ .

وإنَّهُ لَلِقاءٌ جميلٌ مع الإخوةِ علىٰ طاعةِ اللهِ . . وفي هٰذا دليلٌ علىٰ وحدةِ الرِّسالاتِ السماويّةِ ووحدةِ العقيدةِ والمبدأ بينَ الرُّسلِ عليهم الصلاةُ والسلامُ .

البُقْعَةُ المباركَةُ

إنَّ رسولَنا في هٰذا الإسراءِ ، قَدْ مَرَّ بمكانٍ مُباركٍ ، وبقْعةٍ مُباركةٍ ، وهُوَ لَقَبٌ نُطلقُهُ على طورِ سَيْناء ، وعلى بَيْتِ لحم ، فأمّا طورُ سيناء ، فهُوَ جبلٌ كانَ يقفُ عَلَيْهِ سيِّدُنا مُوسىٰ عليه السَّلامُ مِنْ قبلِ ليتَلَقّىٰ الكلامَ مِنْ ربِّهِ ، وأمّا بَيْتُ لحم ، فهُوَ البيتُ الذي وُلِدَ فيهِ سيِّدُنا عيسىٰ عَليهِ السَّلامُ ، ولعلَّ زيارتَهُ لهذيْنِ المكانَيْنِ تحملُ مِنَ العِبرةِ والدَّرسِ بأَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سيَجدُ أبناءً مِنْ قومِ موسىٰ وعيسىٰ منهم مَنْ سيصدقُهُ ومنهم مَنْ سَيُكذِّبُهُ ، فاليهودُ الذينَ أُرْسِلَ لَهُمْ مُوسىٰ وعيسىٰ يعرفونَ بحقٍّ أَنَّ الرَّسولَ محمّداً مذكورٌ في كُتُبِهمُ المقدَّسةِ ، فلا عَجَبَ إذاً يا محمَّدُ أَنْ ترى مِنْ هؤُلاءِ اليهودِ نُكْراناً وكَذِباً ، مع كُلِّ هٰذا الوُضوحِ . واعْلَمْ بأَنَّكَ ستحمِلُ لَهُمْ رسالةً مصدِّقَةً لما جاءَهُمْ مِنَ اللهِ مِنَ التَّوراةِ والإنجيلِ، وستكْشِفُ زَيْفَهم وضَلالَهُمْ وتحْريفَهُم لكلامِ اللهِ.

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ

إلى هُنا تَنْتهي رحلَةُ الإسراءِ . . استعدُّوا الآنَ للصُّعودِ بتفكيرِكُمْ وَخَيالكم إلى السَّماءِ . . نَعَمْ إلى الأعلىٰ حيثُ عُرِجَ برسولِ اللهِ ﷺ بعد اجتماعِهِ بالرّسلِ والأنبياءِ في الأَقْصىٰ ، وزيارتِهِ للبُقْعَةِ المباركَةِ .

لقدْ رأىٰ رسولُ الله ﷺ في الأعلىٰ صُوراً حَيَّةً مُجَسَّدَةً عَمّا كانَ يسمَعُهُ مِنْ جبريلَ في آياتِ القرآنِ الكريمِ . . وأَهمُّ ما رآهُ (حياةُ البَرْزَخِ) ، وهي مَرْحَلَةُ ما بَيْنَ الموتِ وقيامِ السَّاعةِ ، أي (المرحلةُ التي تلي مَوْتَ الإنسانِ في الدُّنيا ، وحَتّى مَوْعِدِ يَوْمِ القيامةِ الذي لا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ إلا اللهُ سبحانه وتعالىٰ) .

وسنعْرِف بعدَ هذِهِ الفقرةِ شيئاً مِما رآهُ الرسولُ عَنْ حياةِ البرزخِ هذِهِ ؛ فانتقِلُوا معي أحبّتي إلى معارفَ جديدةٍ في معراجِ حبيبِنا محمّدٍ الكريمِ ﷺ .

رأىٰ الأنْبياءَ

أَوَّلُ مَنْ رآهُمْ هُناكَ في السَّماءِ : (الأنبياءُ) . . لَيْسَ الأنبياءُ كلُّهم، بَلْ أَشْهرُهُمْ وأَقربُهُمْ إلى اللهِ مِثْلَ آدمَ أبي البَشَرِ ، وإبراهيمَ خليلِ اللهِ (وأَبي الأنبياءِ) ، ومُوسىٰ كليمِ اللهِ ، وعيسىٰ بْنِ مريَمَ عليهِمْ جميعاً صلواتُ اللهِ وسلامُهُ ، لقدِ التَقىٰ محمّدٌ بهم ، وعرفَ ملامحَهمْ وصفاتِه ، وعرفُوه ، واستقْبلوه مُسلِّمينَ عليهِ بقولِهمْ : (أَهْلاً وَمَرْحباً بالنبيِّ

الصَّالحِ) .

كُلُّهمْ كانُوا يَسْمعُونَ عنْهُ في حياتِهِم ، وكلُّهم صَلَّىٰ وراءَهُ في الأَقْصىٰ ، أَمّا الآنَ فإنَّهُمْ يرونَهُ عَنْ قُرْبٍ وعلىٰ انفرادٍ ، وكأنَّهمْ عَيِّناتٌ عَنِ الذينَ دعَوْا إلى اللهِ تعالىٰ ليتشَبَّعَ الرّسولُ الجديدُ ﷺ برُؤْيَتِهم ، ويَلْمحَ في وُجُوهِهم ما لاقَوهُ في دَعْواتِهم ، ليَسْتبينَ أَنَّ ما يُلاقيهِ على الأَرْضِ مَعَ قُرَيْشٍ والكفَّارِ ، إنَّما هُوَ سنَّةُ الدَّعواتِ وقانونُ حملِ الرّسالاتِ مِن آدمَ حتّىٰ آخرِ الأنبياءِ .

. . ومَنْ كَذَّبَهُمْ

وَيَنْتَقِلُ الرّسولُ ﷺ لرؤيةِ نماذجَ حيّةٍ عَنِ الأقوامِ التي كذَّبَتْ رُسُلَ اللهِ كَما تُكذِّبُهُ اليومَ قريْشٌ وثقيفٌ ، ولعَلَّ أوضحَ مثالٍ أحبَّ اللهُ أَنْ يُرِيَهُ لرسولِهِ هُوَ مثالُ آلِ فرعونَ الذينَ كذّبوا سيّدنا مُوسىٰ عليهِ السَّلامُ ، وأظنُّكم يا أحبَّتي تتذكَّرونَ قصةَ موسىٰ معَهُمْ ، وحوارَهُ مَعَ فرعونَ وهامانَ وقومِهما . . وتَعْلَمونَ كَمْ لاقىٰ هذا الرسولُ مِنْ فِرعونَ الذي راحَ يقطِّعُ أَيْديَ وأَرْجلَ المؤمنينَ ويصلِّبهم ، لأَنَّهمْ آمَنُوا بمُوسى وبِرَبِّ مُوسىٰ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ .

إنَّها لرؤيَةٌ لحقائقِ الأعمالِ . . كَيْفَ يُلاقي آلُ فرعونَ العقابَ الآنَ في حياةِ البَرْزخِ : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ دُونَ شَفَقَةٍ لأنَّهُمْ لَمْ يُشْفِقوا على مَنْ آمَنَ باللهِ ، وَدُونَ رَحمةٍ لأنَّهُمْ لم يَرْحموا

الضُّعفاءَ والمساكينَ ، الذينَ كَفَروا بفرعونَ وسِحْرِهِ وطُغْيانِهِ .

. . والعُصاةَ مِنَ العبادِ

وإذا ما انْتَهىٰ مشهَـدُ الطُّغاةِ مِنَ الحُكّامِ ، أَطْلَعَ اللهُ رسولَهُ ﷺ علىٰ مَشاهدَ أُخرىٰ ، ولكنَّها عَـنِ العُصاةِ مِنَ العبادِ بشكْلٍ عامٍّ ، فَهـا هُمْ أُولاءِ أُناسٌ قَدْ أَكَلوا أَمْوالَ اليَتامى في الـدُّنيا ظُلْماً وعُدْواناً ، فإنَّهمُ اليومَ يأكُلونَ ناراً يَقْذفونَها حجارَةً في أَفْواهِهم فتهوي محرِقَةً إلى بطُونِهم ، وها هُـمْ أولاءِ أكلَةُ الـرِّبا ، وقَـدِ انْغَمَسُوا في العـذابِ نتيجةً لِرِباهـم ، لا يَستطيعون النُّهوضَ أبـداً ، وإلى جانبهمُ الزُّناةُ الذيـن انْتَهكوا أَعْراضَ النَّاسِ وعاشُـوا في دَعارةٍ وقذارةٍ ، ثُمَّ غَدَوا الآنَ يأكُلـونَ اللَّحمَ النَّتِنَ ، ويقفُ إلى يَمينِهم النَّاسُ الـذين أَحبّوا الغيبةَ في حَياتِهم ، إنَّهم اليومَ يَخمشُونَ بأظافرَ مِنْ نُحاسٍ وجوهَهُمْ وصُدورَهُمْ .

اللّهـمَّ أَعذْنـا ، وأَبْعِدْنـا عَـنِ الحرامِ ، ولا تجْعلنا ممَّـنْ يَقْترفونَ الإثْـمَ والذُّنوبَ إنَّك سميعٌ مجيبٌ .

. . وعجائِبَ كثيرةً

ولَقَدْ رَأىٰ الرّسـولُ يا أحبّائي أَشْياءَ وأَشْياءَ كثيرةً ومتعدِّدَةً في رِحْلَتِهِ هذِهِ مِثْلَ الجنَّةِ والنَّارِ ووَعْدِ الآخِرةِ ، والملائكةَ رآهُمْ يسبِّحـونَ بحمدِ ربِّهِمْ ، إلى غيرِ ذلكَ مِنْ آيـاتِ اللهِ وعجائِبِ قُدْرتِهِ ، ممَّـا لَمْ يكُنْ يتسنَّىٰ

لأَحدٍ أَنْ يَـراهُ إلا أَنْ يَكُونَ مِنْ سمُـوِّ الرُّوحِ وصِدْقِ اليقينِ في الـدَّرجةِ التي وَصَلَ إليْها محمّدٌ ﷺ . .

ولا تَنْسوا يـا إخوتي أَنَّ الرّسولَ قَـدِ الْتَقىٰ في نهايةِ رِحلَتِهِ مَـعَ فَرْضِ الصَّلاةِ بأَمرٍ منْ رَبِّهِ . . كَلاماً دُونَ وجُودِ جبريلَ ، لقَدْ فَرَضَ اللهُ عليهِ سِرّاً عَظيماً ، يَصِلُ العبْدَ المؤمِنَ بربِّهِ . إنَّهُ هُوَ الصَّلاةُ ، عِمادُ الدين ولبُّ العبادَةِ الدّائمةِ . . ولقَدْ كانَ المسلمـونَ يُصلُّونَ قبل رحلةِ رسُولِهِمْ ، إلا أَنَّ الصَّلاةَ قَدْ أَخذَتْ شَكْلَ الفريضةِ خَمْسَ مراتٍ كُلَّ يومٍ .

. . فِتْنَةً للنَّاسِ

وعادَ رسـولُنا أخيراً إلى مكَّةَ . . مِنَ السَّماءِ العجيبةِ ، ومـا أَنْ وَطِئَتْ قَدَمـاهُ الأرْضَ حَتَّىٰ فكَّـرَ كَيْفَ سيبلِّـغُ قُرَيْشاً والنَّاسَ مِـنْ حولِـهِ ما حَدَثَ لَهُ ؟ ولا بُدَّ مِنْ ذلكَ ، وبِعزمٍ وإيمانٍ تَراكَ يا رسولَ اللهِ تخرُجُ دونَ تَرَيُّثٍ إلى القـومِ وتخبرُهُمْ بما كانَ مِنْ أَمْرِ الرِّحْلَةِ السَّماويَّةِ المبـارَكَةِ . . ولكنْ هَـلْ تَعلمونَ مـا حَدثَ بعْـدَ ذلكَ ؟ إنَّ الكـافِرَ لَـنْ يؤمِـنَ ، بَلْ يُكَذِّبُ بالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الرسولَ وَصَفَ لهمْ بيتَ المقْدِسِ وبعضُهم يعرفُهُ ، وكانَ وصفُهُ مطـابقاً . ووصفَ قافلـةً لهم قادمةً ، وقدْ أثبتَتْ صدقَهُ ، ووصْـفَ الأنبيـاءَ وكـلَّ مـا رآهُ وصْفـاً دَقيقاً . إنَّ خَبراً كخبرِ الإسْراءِ والمعـراجِ لا تحتَمِلُهُ قـريْشٌ ، ويخافُ منْـهُ ذوُو القُلـوبِ الضَّعيفةِ مِـنَ

المؤمنينَ ، أَمَّا الذيـنَ رسخَتْ عقيدتُهم فلَمْ يَروُا الأَمْر عَجَباً ، ونَحْنُ يا أحبَّتي لَـنْ نُفْتَن عَـنْ ديننا إنْ شَـاء اللهُ ، لأنَّنا نُصَـدِّقُ رسولَ الله ﷺ ، ونصدِّقُ القـرآنَ الكريـمَ كُلَّه ، فَسُبْحـانَ مَنْ أَسْرى وعَـرَجَ برسُـولِه . . وحَمْداً لَهُ على هذِهِ الكرامةِ وهَذا التكريم لرسولٍ كريمٍ .

لا مَجالَ للتَكْذيبِ

وإنْ أَرادَ أَحَدٌ أَنْ يُجادِلَنـا في هذِهِ الرّحلـةِ ، ويكذِّبَها ، فإنَّـا لا نقِفُ أمامَهُ مَكْتُوفي الأَيدِي ، بَلْ نبيِّنُ لَهُ بالبرهانِ السَّاطعِ والدَّليلِ القاطعِ أَنَّ هَذا صحيحٌ وممكنٌ . . نقولُ لَهُ : إنَّ رسـولَ الله الذي يتنزَّلُ عليهِ القرآنُ كُلَّ يَوْمٍ، إنَّما يتلقَّاهُ بواسطَةِ جبريلَ الذي يَهبطُ مِنَ السَّماءِ إلى محمّدٍ ﷺ، فإذا كانَ اللهُ قادِراً على أَنْ يَجْعَلَ مِنْ جبريلَ واسِطةً تنزِلُ وتَصْعَدُ وتهبطُ وتَعْرجُ، وتَسْري وتنتقلُ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ ، أَفَلا يكونُ قادِراً إذاً على أَنْ يَجْعلَ رسولَهُ الكريمَ يَسْري ويصْعَدُ مرَّةً واحدةً ؟ بلى . ولَنْ نَنْسىٰ أَرْوَعَ جوابٍ مِنْ أبي بكرٍ لقريش كانَ سَبَباً في لقبِهِ الخالـدِ (الصِّدِّيق) عنْدما سَأَلوهُ عنِ الرِّحلةِ مُسْتهزئينَ فقـالَ : (أُصدِّقُ محمّداً فيما يقُول ، وأَيُّ فرْقٍ بيْنَ أَنْ يَنْزِلَ عليهِ جبريلُ فأصـدِّقَهُ ، أَوْ يَـذْهبَ بِهِ ربُّ جبريـلَ إلى حيْث يشاءُ ؟) ونحنُ جميعاً معَ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنْهُ وأَرْضاه.

****

قَصَص السِّيرة النَّبَوِيَّة

٢٦

بشائر النّور

لحظاتٌ فيها خيرٌ

عادَ الرَّسولُ ﷺ مِنْ رحلَةِ السَّماء المباركَـةِ ، ولقَدْ عرَفْتُم يا أحبَّتي أَنَّ قريْشاً التي كَذَّبَتْهُ في دَعْوَتِـهِ لَمْ تصدِّقْهُ عندمـا أخبَرَها الرّسولُ بـرحلةِ الإِسراءِ والمعراجِ ، وتظاهرَ القومُ مِنْ حَـوْلِهِ بأَنَّ محمَّداً قَدْ زادَ سِحْرُهُ ، وأَنَّهُ بحاجةٍ إلى مزيدٍ منَ التَّأديبِ في زَعْمِهم .

وجَلَس الرسولُ ﷺ يفكِّرُ ، ويفكِّرُ في أَمْرِ قريشٍ ، وعنادِ قومِهِ ، ومَرَّ بِهِ طيْفٌ جميلٌ ، حَمَلَهُ الخيالُ إلى قَوْمٍ أَحبَّهُمْ في صِغَرِهِ ، عنـدَما كانَ في زيارةِ قبرِ والـدهِ ، (لَقَدْ تَذَكَّرَ أُمَّهُ التي عرَفَتْهُ على أخوالِ أبيه ، وعلى مدينةِ يثْرِبَ ، وألهمَهُ اللهُ أَنَّ الفرَجَ قَدْ يكونُ في المحاولةِ مَعَ قومٍ رآهُمْ في صِغرِهِ لُطفاءَ المَعْشرِ والمعامَلـةِ) ، وذرفَتْ عيناهُ دَمْعتينِ على أبويْـهِ الطَّاهرينِ ، لكنَّهما دمعتانِ تحْمِلانِ مِنَ البُشْرى ، وأَيَّةَ بُشْرى .

آهِ لَوْ . . تحَقَّق

إنَّهُ الآنَ في مكَّةَ ، وَبَصَرُهُ يمتدُّ نَحْوَ يثْـرِبَ ، وخَيالُهُ الخصْبُ يتصوَّرُ خُصُوبَةَ الدَّعوةِ فيما لوْ نَجحَتْ في تلكَ الأَرْضِ . آهِ يا يثْرِبُ . . إنَّ كُلَّ شيءٍ فيـكَ ليَبْسِمُ بالخَيْرِ ، فـأرضُـكِ المِعْطـاءُ ، ومناخُـكِ اللَّطيـفُ ، وعذوبَةُ مياهِكِ ، وجمالُ طبيعتِكِ ، كلُّ هَذا ليَجْعلُ سكّـانَكِ وأَهْلَكِ

يحملونَ نَضارتَكِ في قلوبِهم ، فتنعكِسُ على أَخْلاقِهِم ، وتتزيَّنُ طِباعُهم، ويزْدانُ سُلوكُهم . . إنَّ الجميعَ لَيعرفُهُم بلينِ الجانِبِ ، ودماثَةِ الخُلُقِ ، وحُسْنِ المُعامَلَةِ ، ورسُولُنا محمّد ﷺ قَدْ لاعَبَهم صِغاراً مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبعينَ عاماً . . فكَمْ هُوَ جَميلٌ لَوْ يتحقَّقُ الحُلُمُ ، ويا ما أُحيلاها دَعْوةُ الإِسلامِ وهيَ تَنْتشرُ بيْنَ قلوبٍ ليِّنَةٍ ونفوسٍ خيِّرَةٍ ! .

وكَمْ هُوَ الفرقُ كبيرٌ بَيْنَ قريشٍ وبيْنَ أهلِ يثربَ ، وكَمْ كانَ الرسولُ سَيَسعدُ لَوْ آمَنَ أَهْلُ مكَّةَ وتبعَتْهُم العربُ وفيهمْ يثرِبُ .

اليَهُودُ يَعْرِفُوْنَ

العربُ في يثربَ كانُوا مُؤَلَّفينَ مِنْ قبيلتيْنِ رئيسَتيْنِ : (قبيلةِ الأَوْسِ ، وقبيلةِ الخَزْرجِ) ، وعلى مَقْرُبَةٍ مِنْ هاتيْنِ القبيلتيْنِ يَقْطُنُ عددٌ غيرُ قليلٍ مِنَ اليهودِ ، وبما أَنَّ هؤلاءِ اليهودَ أهْلُ كتابٍ ، فقَدْ كانُوا يعرفونَ أَنَّ نبيّاً مِنَ العـربِ سَيُبْعَثُ ، ولذلكَ راحـوا يذْكُرونَ هذا للعربِ في يثْرِبَ ، مُتَباهينَ أَنَّهم سيُقـاتِلونَ العربَ ويقتلُونَ نَبيَّهُـمْ ، ولَيْس هَذا عَجيبـاً يا أَحبَّائي ، فنفوسُهُم قـدِ اعتادَتْ مِنْ قَبْلُ قَتْلَ الأَنبياءِ ، ولَيْسَ عَهْدُهُم ببعيدٍ مَعَ عيسى عليه السَّلامُ الذي حاولوا صَلْبَهُ ، فَفَشلوا ، وأَنقَذَهُ اللهُ مِنْ بيْنِ أيديهِمُ المجرمةِ الملطَّخَةِ بدمِ يَحْيى بْنِ زكريّا عليهما السَّلامُ وغيرِهِ مِنَ المرسلينَ ، وقَدْ كانَ بَيْنَ العربِ واليهودِ في يثربَ نزاعاتٌ وتهديداتٌ إلى حدٍّ لا يُطاقُ ، حيْثُ راحَ كُلُّ فريقٍ يتحيَّنُ الفُرَصَ لكَيْ يحقِرَ الآخرَ

ويعيِّرَهُ ويَتطاولَ عليْهِ . . فماذا كانتِ النِّهايَةُ فيما بَيْنهم ؟ .

تهيُّؤٌ رائعٌ

لقد كـانَ هَذا النِّزاعُ سَبَباً في تَهيئةِ نفوسِ عربِ يثربَ لـلإسلامِ . . فكلُّ عـربي في ذلكَ المكانِ يتمنَّى لـوْ ظَهر هَذا النبيُّ ، ويترقَّبُهُ متلهِّفاً حتَّىٰ يكونَ مِـنْ أتْباعه والمؤمنينَ بِهِ وأنصارِهِ ضِدَّ الـذينَ يهدِّدونَ بقتْلِهِ وقَتْلِ مَنْ يصدِّقهُ مِن العربِ ، وإنَّ هَذا التلهُّفَ لتهيُّؤٌ رائعٌ ، فأينَ هَذا الرّسولُ المرشِدُ إلى الحقِّ والهادِي إلى الصِّراطِ المستقيمِ ؟

إنَّ النّفوسَ اليومَ لَتتطلَّعُ إلى مكَّةَ . . إلى رجـلٍ اسمُهُ مُحَمّدٌ قَدْ آذَتْهُ قريشٌ، وبهذا فَقد عَرَف أهْلُ يثربَ العَربُ أوّلَ طريقِهـمْ ضِدَّ اليهودِ ، وصاحَ العُقلاءُ مِنْ بينِهمْ ، أنْ هَلمُّوا إلى مكَّةَ حَتَّىٰ نَتعرَّفَ على الرّسولِ الجديـدِ ، فـإنْ كـانَ خيْراً سبقْنـا اليهـودَ إليْـهِ ، وربِحْنـا الحقَّ والهُدىٰ والصَّلاحَ، هَيَّـا يا قَـوْمُ فالموسمُ قَـدِ اقْتربَ ، موسـمُ الحجِّ إلى مكَّةَ على الأبوابِ ، لقَدْ آنَ الأوانُ لنضعَ لليهودِ حَدّاً يَذْكرونَهُ .

بُشْرىٰ مِنَ الخَزْرَج

ولمَّا كانَ الموسِـمُ خرجَتْ جماعَـةٌ مِنْ قَبيلةِ الخَزْرَجِ إلى مَكَّـةَ ، وهُناكَ سَمِعوا مَعَ غيرِهم مِنَ الحجّاجِ أنَّ رَجُـلاً يَطوفُ بيْنَ القَبائلِ كعادتِهِ كُلَّ عامٍ يعرضُ عَلَيْها دَعْوتَهُ . . ها هُوذا رسولُ اللهِ يَلْتقي مَعَ وَفْدِ الخَزْرَجِ

فيعرِضُ عليهم رسالتَهُ ، فيرىٰ الخَزْرجيُّونَ في ملامِحِه صُورةَ الصِّدْقِ ، ويتيقَّنُ كُلٌّ منْهم أنَّـهُ هُوَ النّبيُّ الذي يتوعَّدُهمْ بِـهِ اليهودُ ، وسرْعانَ ما آمَنَ مَـنْ سَمِعَهُ منهُمْ وصَـدَّقوهُ . ورَجُوا أنْ يُصْلِـحَ اللهُ بِهِ أمْرَهُـمْ ، وها هوَذا أَحـدُهمْ يقـولُ لَهُ: إنَّـا تركْنا قَـوْمَنا وهُـمْ في أشَدِّ الحاجـةِ إلى مَنْ يَجْمعهم ، فَعَسـىٰ اللهُ أنْ يجمعَهُمْ بِكَ ، وسنقـدمُ عليهمْ فنَدعُـوهم إلىٰ أمْرِكَ ، ونَعْرِضُ عليهِمُ الذي أَجَبْناكَ إليْهِ مِنْ هَذا الدّينِ ، فإنْ يَجمعْهُمُ اللهُ عَلَيكَ فـأنْتَ أعـزُّ رَجُلٍ ولا رجُلَ أعزُّ مِنْـكَ . . إنَّكَ لـرسولُ الحقِّ والخيْرِ ، وإنَّا لَنشهدُ فيكَ الصَّلاحَ والوَفاءَ والأمانَةَ .

وَعْدٌ مَعَ البُشْرىٰ

وسُرَّ رسولُ اللهِ أشَدَّ السُّرورِ ، وارْتسمَتِ البَسْمةُ على مُحَيّاهُ ، وخَفَقَ قَلْبُهُ فَـرَحاً عندما سَمِـعَ شهادةَ التَّوحيدِ والتَّصديقِ مِنْ أفْواهِ الجماعَةِ الخزْرجيَّـةِ . وممَّـا زادَهُ فَرَحاً واستبشاراً أنَّ حُلْمَـهُ قَـدْ بَـدأَ يتحقَّقُ في أَصْحـابِ المعشرِ الحسـنِ ، وقبْلَ أنْ يَعُودَ الحجّـاجُ الـذيـنَ آمَنـوا إلى ديـارِهم ، أَعْطـوا للرّسـولِ ﷺ وَعْداً مِـنْ أنْفسهم أنْ يُـلاقوهُ الموْسِـمَ المقبِلَ، وأنْ يُناصِروهُ مِـنَ الآنَ في التَّبْشيرِ بدعوتِه ونَشْرِها في يثربَ بيْنَ بيوتاتِ الخزْرجِ والأوسِ كُلِّها .

ووَدَّعَهُـم رسولُ اللهِ ﷺ ، ثـمَّ انْصرفُـوا راجِعينَ مؤمنينَ مصـدِّقينَ ،

وبَدَأ الخيرُ يعمُّ أَراضيهم ، فما أَنْ وَصَلوا إلى يثربَ حَتّى أَخَذوا يذْكُرونَ للقومِ ما رأَوْهُ مِنَ الرّسولِ الكريمِ ، ولمْ يبْقَ بيتٌ إلا وسمِعَ بالقصَّةِ . . قصَّةِ الخيْرِ والإيمانِ والبركةِ .

مَوْسِمٌ جَديدٌ

وبقيتِ القلوبُ علىٰ أحرّ مِنَ الجمْرِ شَوْقاً للعامِ القادِمِ وللموْسِمِ الجديدِ، حتىٰ يَروا في مكّةَ رسولَ الحَقِّ والجهادِ والصَّلاحِ . . ويَأْتي العامُ ويكونُ الموسمُ ، فتنطلِقُ قافلةُ النُّورِ مِنْ يثربَ نَحْوَ مكّةَ ، لِتصلَ في موعِدِها حَسَبَ وعْدِها لرسولِ اللهِ ﷺ . ويجتمعُ اثْنا عشَرَ رَجُلاً مِنَ المؤمنينَ بالنبيِّ الكريمِ : (عشَرَةٌ مِنَ الخزرجِ واثنانِ مِنَ الأَوْسِ) ، اجْتمعوا بِهِ لَيْلاً عِنْدَ العقبةِ الكُبْرىٰ (وهِيَ المكانُ الذي تُرْمىٰ فيهِ الجمارُ أَيّامَ الحجِّ) ، دُونَ أَنْ تَعْلمَ قريشٌ بذلكَ ، وأَشرقَتِ الأَنْوارُ على الوجوهِ، وحَكَوا لرسولِ اللهِ ﷺ ما كانَ مِنَ انتشارٍ للحقِّ والإسْلامِ في يثربَ ، فسُرَّ رسولُ اللهِ بذلكَ، وطلبَ منهمْ أَنْ يُسْمِعوه كلِمَةَ الإيمانِ والتَّوحيدِ ، فَشَهِدُوا أمامَهُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأَنَّ محمداً رسولُ اللهِ ، وسجَّلَ لهمُ التّاريخُ مَجْدَ ازْدِيادِ عددِ المؤمنينَ الصّادِقينَ مَعَ نَبيٍّ صادِقٍ أمينٍ .

البَيْعَةُ الأُولىٰ

ويَطلُبُ منهمُ القائدُ العظيمُ أَنْ يُبايِعوهُ على التّمسُّكِ بهذِه الدعوةِ فبايعوهُ ، وسُمِّيتْ هذه البيعةُ (بيعةَ العقبةِ الأُولى) ، وكانَتْ في السّنةِ الثّانيةِ عشْرةَ مِنَ البِعْثةِ ، ومِمَّا قالَهُ أَحدُهمْ وهو عُبادةُ بنُ الصّامِتِ يَرْوي لنا عَنْ هذِهِ البيعةِ أُموراً جميلةً : (بايَعْنا رسولَ اللهِ ﷺ على أَنْ لا نُشْرِكَ باللهِ شَيْئاً ، ولا نَزْني ، ولا نَقْتُلَ أَوْلادَنا ، ولا نأْتي ببهتانٍ نَفْتريه بيْنَ أَيْدينا وأَرْجلنا ، ولا نَعْصيَه في مَعْروفٍ) .

أرأيتُمْ أيُّها الأحبّةُ ، ما أَحْلىٰ هذِهِ البيعَةَ والمعاهَدَةَ ؟ وما أَجْمَلَ جوابَ الرّسولِ لهمْ ؟ حَقّاً إنَّ الجنَّةَ لهي أَوْفىٰ ثمنٍ لوفائِهِم . وإنَّنا سنُعاهِدُ ونُبايعُ الرّسولَ مثلَهمْ أَنْ نَبْقىٰ مسْلمين مؤمنين لا نعصيهِ في معروفٍ حتّىٰ ندخلَ الجنّةَ معهم . .

السَّفيرُ المُقْرِئُ

والأَجْملُ مِنْ هذا أَنَّ رسولَ اللهِ قائدٌ عظيمٌ حقّاً ، يعرفُ كيفَ يُسيِّرُ الأُمورَ ، وها هُوذا يبعثُ مَعَ القَوْمِ المؤمنينَ صحابيّاً شاباً مِنْ مَكةَ اسْمُهُ (مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ) ، هَلْ تَدْرُونَ لماذا أَرْسلَهُ النبيُّ ﷺ ؟

إنَّ المؤمنينَ مِنْ أَهْلِ يثربَ بحاجةٍ إلى مَنْ يعلِّمُهمْ أُمورَ الإِسْلامِ ، ويطبِّقُها أمامَهُم ، ويقْرأُ عليهمُ القرآنَ ليدرِّبَهمْ علىٰ تلاوتِهِ وفهمِهِ ،

وكُلُّ هذِهِ الأمور ، لا يَسْتطيعها إلا مَنْ عَـاشَ مَعَ الرّسولِ ، وفَهِمَ كَيْفَ يَدْعو الآخرينَ ؟ وإنَّ مُصْعَبَ بْنَ عميرٍ لَهُوَ مِنْ خِيرةِ شبابِ الصَّحابةِ في مكَّةَ ، ومَهمَّتهُ مِـنْ أشرفِ المهمَّاتِ ، لقدْ بعثَهُ رسولُ اللهِ معَهُـمْ لكيْ يُفْهِمَهُم الإسلامَ إذاً . . لذلكَ كَانـوا يلقِّبونَهُ (المقرِئَ) . . وإنَّهُ للقبٌ جميلٌ معَ اسْمِهِ الجميلِ . . مناسـبٌ لهذا السَّفيرِ ، الذي بَذَل كُلَّ وسعِهِ لترغيبِ النَّاسِ بطريقةٍ محبَّبةٍ . . وحلوةٍ . .

أُسَيْدٌ وَابْنُ مُعاذٍ

وإنَّها لطريقَةٌ رائعةٌ حَقّاً ، أَحبَّها النَّـاسُ مِنْهُ ، وأَرَاكُم مُشْتاقينَ لمعرفةِ شيْءٍ عَنْها ، لقَد استَعملها مصعبٌ مَعَ سيِّدَيْنِ مِنْ سادةِ يَثْرِبَ العظماءِ هُما (أُسَيْدُ بْنُ الحضيرِ ، وسَعْـدُ بْنُ معاذٍ) يأتِي الواحِدُ منهما إليْـهِ ظَانّاً بـأَنَّ دينَ مُصْعَـبٍ ودعوتَـهُ فيهما مِنَ الخَطَرِ الشَّيْءُ الكثيرُ ، فيقولُ لَـهُ مُصْعَبٌ : (أَوَ تَجْلِـسُ فَتَسْمَعَ ؟ فإنْ رضيتَ أمراً قَبِلْتَهُ) ، وبابتسـامةٍ جميلةٍ يَتْلو مُصعبٌ القرآنَ ، فيخشعُ قلـبُ السَّيدِ الذي يسمَعُ ، وتدمَعُ عَيْناهُ ، ويقولُ : ما أَحْسنَ هَذا وَمـا أَجلَّهُ ! ! كيفَ تصنعونَ إذا دَخلْتم في هَذا الـدِّينِ ؟ ويقولُ مصعـبٌ : تَغْتسلُ وتُطهِّرُ ثيابَكَ ، ثُـمَّ تَشْهدُ شهادَةَ الحَقِّ ، وتصلي ركعتينِ للهِ تعالى . وهَكَذا ينصرفُ السَّيدُ منْهما إلى قومِهِ ليحْكيَ لَهُمْ أمْرَهُ ، وما هي إلا سَـاعةٌ حتَّى تَدْخلَ العَشيرةُ في دينِ

اللهِ مَعَ سيِّدِها . .

ثلاثةٌ وسبعونَ رَجُلاً وامرأتانِ

ويأْتي الموسمُ التَّالي مِنْ مَواسـمِ الحجِّ ، والإسلامُ قَدْ شاعَ وَشَعَّ بنورِهِ في يثْرِبَ ، وأصبحتْ قلـوبُ مَنْ آمنَ مِنَ الأوسِ والخزرجِ مليئةً شَوْقاً لرؤْيةِ رسولِهمُ الكريمِ ، وما على المُشتاقِ إلا أَنْ يجهِّزَ نَفْسَهُ ويشدَّ رِحالَهُ لحضورِ موسمِ الحجِّ .

لقدْ خَرَجَ هذهِ المرَّةَ يا أَحبَّائي ثلاثـةٌ وسبعونَ رَجُلاً وامْرَأتانِ ، وخَرَجَ معهمُ السَّفيرُ المقرِئُ (مصعبُ بْنُ عميرٍ) ، وما أَنْ وَصَلـوا إلى مَكَّةَ حتَّىٰ بـادَرَ مُصْعَبُ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ يبشِّرُهُ مسروراً بما كانَ مِـنِ انْتشارِ الإسلامِ بَيْنَ الأنصارِ المؤمنينَ ، وعَلِمَ الرَّسولُ كذلكَ بأنَّ عدداً كبيراً قَدْ جاءَ مِنْهم لكَيْ يُبايـعَ رسولَ اللهِ ، ففرِحَ القائدُ واسْتبشرَ خيراً ، وأَحبَّ اسْمَهُم الجديـدَ (الأَنْصارَ) ، لأَنَّهم حقّاً هُمُ الذين يُعْتمـدُ عليهم في حمايةِ الدِّينِ وَنصْرِهِ ، وتحقيقِ حُلمِ النبيِّ العظيمِ ﷺ .

شَتَّانَ بَيْنَهُما

ويلُوحُ بريقُ الأملِ ، وتدمَعُ عَيْنا رسولِ اللهِ ﷺ دموعَ الفرحِ الكبيرِ ، لقدْ نَسِيَ محمَّدٌ الكريمُ كلَّ مـا لاقاهُ مِنْ أَذىٰ القرشيِّينَ وأهْلِ الطَّائِفِ ، وتـذكَّرَ أنَّ الفـرجَ قَدْ حـانَ ، وشَتَّانَ ما بَيْنَ عهديْنِ (عهدِ التجبُّسِ

الدَّعوةِ في مكَّةَ ثلاثةَ عشَرَ عاماً ، حَيْثُ لَمْ يُؤْمِنْ بها إلا العددُ القليلُ مِمَّنْ شُرِّدوا عَنْ ديارِهم ، أوأُوذُوا في عَقِيدتِهم ، وعَهْدِ تَفَتُّحِ الدّعوةِ وازْدهارِها) .. فها هِيَ ذي يَثْرِبُ قَد تَقَبَّلَتْ دَعْوَةَ الرّسولِ الهادِي بقلوبٍ متَفَتِّحةٍ ، ونفوسٍ راغبةٍ في التَّضحيةِ ، وصاحِبُ كُلِّ نفسٍ يقولُ في نفسِهِ : سأكونُ أوّلَ مَنْ يُدافعُ عَنْ رسولِ اللهِ وأوّلَ مَنْ يحْمِيهِ في بَلَدي. ورآهُمُ الرسولُ ﷺ أخيراً . رأى فَوْجَ الخيرِ والإيمانِ ، وأخذَ منهمْ مبايعةً جديدةً حقّةً وواضحةً ، مهّدَ فيها لهجرةٍ مُقبلةٍ نحوَ بلدِهمْ ، وسُمِّيتْ هذهِ البيعةُ : بالبيعةِ الكُبرى ! وهي بيعةُ العقبةِ الثّانيةُ.

بَيْعَةٌ وَنُقَباءُ

لقدْ تحدَّثَ في هذهِ البيعةِ عَمُّ الرّسولِ ، واسْمُهُ (العبّاسُ) ، وطَلَبَ مِنَ الأنْصارِ أنْ يَبْذلُوا ما بوسعِهِمْ لحمايةِ الرّسولِ إذا ما لَحِقَ بِهِمْ ، فقالَ أحدُهُم واسمُهُ البَراءُ : (إنّا واللهِ لَوْ كانَ في أنْفُسِنا غَيْرُ ما نَنْطقُ بِهِ لقُلناهُ ، ولكنّا نريدُ الوفاءَ والصِّدقَ ، وبَذلَ أرْواحِنا دُونَ رسولِ اللهِ ﷺ).

ثُمَّ تمَّتِ البيعةُ ، فبايَعَ المؤمنونَ رسولَهم على السَّمْعِ والطّاعةِ في العُسْرِ واليُسْرِ ، وعلى نُصْرةِ النبيِّ وحِمايتِهِ ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ ووعدَهُم الجنَّةَ، وقالَ : (أنَا مِنكُمْ وأنْتُمْ مِنِّي ، أُحارِبُ مَنْ حارَبْتُم ، وأسالمُ مَنْ سالَمْتُمْ ، أخْرِجُوا إليَّ مِنكُم اثْنَي عَشَرَ نَقِيباً ليَكُونوا على قَوْمِهِمْ بما فيهم

كُفلاءَ) ، فأخرَجُوا إليهِ ما طَلَبَ ، ومدُّوا أيديَهم جميعاً إلى رسولِ اللهِ مُعاهِدينَ هانئينَ بجنّةِ ربِّهم يومَ القيامةِ وهُمْ مُوقنونَ بأنَّ الجنَّةَ أحْلى وأغْلى مكافأةٍ وهديّةٍ لهُم . اللهمَّ بارِكْ في الأنصارِ واجْعَلْنا منْهم يا رب العالمين .

ماذا سَيَحدُثُ ؟

وقَدْ تَسْألُونَني : هَلْ سَتَسْكُتُ قُرَيشٌ عَنْ هذهِ البيعةِ ؟ فإنّها واللهِ لَترى في ذلكَ خَطراً عظيماً عليها !! وجَوابي لَكُمْ : (إنَّ قريشاً لَمْ تَسْكُتْ أبداً ، وقَدْ قامتْ بأشْنَعِ عَمَلٍ ارتكبتْهُ ضِدَّ رسولِ اللهِ وضِدَّ دَعْوتهِ) .

إذا أرَدْتُم أنْ تعرفوا عَنْ عملِ كُفّارِ مكّةَ شَيْئاً ، فاسْتريحوا الآنَ قليلاً ، ثُمَّ تابعوا القِراءةَ بنفْسٍ مُرتاحةٍ واسْتِعدادٍ أفْضلَ .

إلى اللقاءِ في حلقَتِنا القادمةِ لنعرفَ ردَّ فعلِ قريشٍ . . واحفظُوا عُنوانَ القصَّةِ التّاليةِ : إنّهُ (المؤامرةُ الدنيئةُ) . . تحْتَ رَقْمِ جديدٍ مِنْ قَصصِ السّيرةِ . . والسَّلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُهُ . .

وَبَارك اللهُ في همَّتكم العَاليةِ وقراءتِكمُ المثمِرَةِ . .

*****

قَصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
٢٧

المؤامرة الدنيئة

خُطُورَةُ البَيْعَةِ ! !

لَقَدْ كَانَتْ بَيْعَةُ العقبةِ الثّانيةُ الكُبرىٰ التي تحدَّثْنا عَنْها في القِصَّةِ السَّابقةِ مَصْدرَ أكبرِ قوَّةٍ في التَّاريخ ضِدَّ الباطلِ والكفرِ ، وإنَّ قريْشاً وغيرَها لَتعرِفُ ذلكَ جيِّداً ، وإنَّها لَتُدْرِكُ هذا الخطَرَ عَلَيها لا علىٰ غيرِها، أمَّا المسلمونَ فَقَدْ رَأَوا في البيعةِ أروعَ الآمالِ وَأَوْسعَها ، وأحسُّوا بها فَرَجاً بعد ضيقٍ ، وأمْناً بعْدَ خوفٍ .

وأخذَتْ قريشٌ تتخبَّطُ في أَرْضِها ، وكأنَّ شَيْطاناً قَدْ مَسَّ أفْرادَها ، فأصْبَحوا كالمجانينَ لا يدْرونَ ماذا يفعلونَ ، إنَّهم قَدْ عَرفُوا الدَّعوةَ ، وأذاقوا المؤمنينَ ألْوانَ العذابِ مُدَّةَ ثلاثةَ عَشرَ عاماً حتَّى تتوقَّفَ دعوتُهُمْ ، ويا للفَشَلِ الذَّريعِ ! ! ها هُمْ أُولاءِ الكفَّارُ ينالُونَ عاقبةَ أمرِهم خُسْراناً بعدَ أَنْ رأَوْا أَهْلَ يثربَ يُبايعونَ رسولَ اللهِ ﷺ على حمايتِهِ ونُصْرتِهِ ، وما عادَ يَنْفعُ قريْشاً بطْشُها وعِنادُها ، وطارَ حُلُمُها في أَنْ تُسَيطرَ على الأَمْرِ منْ جميعِ جوانبِهِ ونواحيهِ .

تَمْهيدٌ للهِجْرَةِ

وأمَّا ما كانَ مِنْ أَمْرِ الرّسولِ ﷺ ، فقَدْ رَأَىٰ في البيعةِ مَعَ الأنصارِ باباً لهِجْرَةِ أصحابِهِ في مكَّةَ ، فأخذَ يمهِّدُ لهجرتِهم إلىٰ يثربَ ، ليطمئنَّ على

حمايتِهم ، وبالتّالي ليضمَنَ لدعوَتِهِ السَّيْرَ في طَريقِها . لقَدْ أَتى نَصْرُ اللهِ إذاً . . ولقَدْ أَخَذَ رسولُ اللهِ يتنفَّسُ باطمئنانٍ ، وسرْعانَ ما سَرى هٰذا الاطمئنانُ إلى نفوسِ أصحابِهِ ، فعَرَفُوا ما أَرادَهُ رسولُهم مِنْ هذِهِ البَيْعَةِ ، وأَدْركوا بصدقٍ نَصْرَ نبيِّهم ، وليسَ لَهُم الآنَ إلا أَنْ يَتسابقوا في الهجْرَةِ إلى يثْربَ . . أو إلىٰ المدينةِ المنوَّرةِ . . كَما أَحَبَّتِ الدَّعوةُ أَنْ تُسَمِّيَها على لسانِ أَبْطالِها وقُوّادِها . . لقَدْ وَقَعَ الحقُّ إلى جانبِهِمْ ، وَبَطُلَ ما كانَ يعملُهُ أعداؤُهم .

فالحمدُ لكَ يا ربَّ العالمينَ ، وبُشْرىٰ لكَ يا رسولَ ربِّ العالمينَ . . مَعَ أتباعِكَ الطَّاهرينَ المؤمنينَ . .

الحَدُّ الفَاصِلُ

نحن الآنَ بينَ هذيْنِ العهدينِ تماماً ننظُرُ إلى الوراءِ ، فنذكُرُ المدَّةَ التي قَضاها المُسْلِمونَ في مكَّةَ ، وهُمْ قلَّةٌ مُسْتضعفونَ أمامَ عدُوٍّ قاهرٍ جَبَّارٍ، يذيقُهم البَأْساءَ والضَّراءَ وسُوءَ العذابِ ممَّا لا يُطاق . . ولا ننسىٰ مَنْ هاجر منْهم إلى الحبشَةِ صابرينَ محتَسِبينَ ، ثُمَّ نَتطلَّعُ إلى المستقْبل لنرىٰ عهْدَ المكافأة . وسنقرأُ معاً آيَةً نزلتْ في بَيانِ هذين العهدينِ تبينُ لَنا رَحْمَةَ اللهِ بَعْدَ الخوفِ ، وعِزَّةَ الإيمانِ بَعْدَ الفتنةِ والهوانِ : ﴿ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

وَلْنقِفِ الآنَ قليلاً عِنْدَ الحدِّ الفاصِلِ الذي يفْصِلُ بَيْنَ عَهْدَيْنِ منفصلَيْنِ في تاريخ الدّعوةَ . (العهدِ المكّيّ) و (العهْدِ المدنيِّ) .

وَبَدَأَ المهاجِرُونَ . .

أَخَذَ المسلمونَ يَتَوافدونَ تِباعاً مُهاجِرين إلى المدينةِ ، فعاشَتْ قريشٌ مَرارَةَ الفراغِ الخطيرِ ، وحاولَتْ مَنْعَ الكثيرينَ عَنْ هجْرتِهم ، فلَمْ تستطعْ إلا مَعَ القليلِ ممَّنْ لا حَوْلَ لَهُمْ ولا قُوَّةَ ، وهَذا لا ينفي أَنَّ مَنْ وَصَلَ إلى المدينةِ لَمْ يُلاقِ أذىً أثْناء هجرتِهِ ، فهَذا (أَبو سَلَمَةَ) بَطَلُ الهجْرَتَيْنِ قَدْ خَلَّصَتْهُ قريشٌ امرأَتَهُ أُمَّ سَلَمَةَ بَطَلَةَ الهجرتينِ وابْنَهُ سَلَمَةَ ، فَلَمْ يَسْتطيعا اللَّحاقَ بِهِ إلا بعد سَنَةٍ كامِلَةٍ قضَياها في أَلَمِ الفِراقِ ووحشةِ الوحْدَةِ ، وهَذا (صهيبُ الرّوميُّ) يترُكُ مالَهُ كُلَّهُ الذي جمعَهُ في سنوات لكَيْ يترُكَهُ القرشيُّونَ يفِرُّ بدينِهِ وعقيدتِهِ . أراكُم تتذكَّرونَهُ الآن..

إلا أَنَّ حادثَةً فريدةً في تاريخ الهجرةِ والبطولةِ سَجَّلَها التَّاريخُ لعُمرَ ابْنِ الخطَّابِ الفتَى الأَرْوَع . . الذي أَبىٰ إلا أَنْ يُهاجِرَ جَهْراً ، ها هوذا يقِفُ مُتَحدِّياً أَهْلَ مكَّةَ في أَنْ يَتبعوهُ ولكِنْ هَيْهاتَ لَهُمْ ، ولَنْ يفعلَها أَحَدٌ ! .

فآواهُمُ الأَنْصارُ

وصارَ أكثرُ المسلمينَ في المدينةِ ، وخَلَتْ بيوتُ المهاجِرين في مكَّةَ ، وأُغلِقتْ أبوابُها ، وغَدتِ الرِّياحُ تَصْفِرُ فيها ، ولَمْ يَبْقَ إلا رسولُ اللهِ ﷺ وأبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ وقليلٌ مِنْ آلِ الرَّسولِ وأَهْلِ أبي بكرٍ كفاطِمَةَ وأُمِّ كلثومٍ وعائشَةَ وأَسْماءَ ، وعليِّ بْنِ أبي طالبٍ . وجميعُ مَنْ هاجَرَ حتَّى الآنَ يا أحِبَّتي قدْ نَزَلوا ضيُوفاً على إخوانِهِم منْ أَهْلِ المدينةِ ، ولَمْ يَعْرِفوا أُناساً أَكْرَمَ ولا أَنْبَلَ منْهُم ، فالذي يدخُلُ دارَهُم يُؤْوونَهُ ، ويقسمونَ لَهُ المالَ ، ويُنْعِمونَ عَليهِ بالزَّادِ والشَّرابِ ، فما بقيَتْ دارٌ في المدينةِ إلا وَأَسْهَمَ أَصحابُها في استقبالِ المهاجرينَ المؤمنينَ ، وهُمْ يرحِّبونَ بِهِمْ قائلينَ: أَهْلاً بكُمْ : (لَقَدْ نَزَلْتُمْ أَماناً وسَلاماً ، لا خَوْفَ عليكُمْ بعدَ اليومِ ، إنَّكُمْ عِنْدَنا لَنِعْمَ الضُّيوفُ ونِعْمَ النُّزلاءُ ، لِتَكُونُوا مُقيمينَ ما شِئتُمْ ، وخُذُوا مِنْ أراضِينا وَدُورِنا ما تَرْغَبُونَ)

دناءَةُ قُرَيْشٍ

ولكنْ مَتىٰ سيهاجِرُ رسولُ المهاجرينَ والأَنْصارِ ؟ ومَتىٰ سَيُهاجِرُ صاحبُهُ أَبو بكرٍ ؟ إنَّ القلقَ والخَوْفَ عَليْهما لكبيرٌ ، وإنَّ أبا بكرٍ لَيهُمُّ بالهجرةِ فيستمْهِلُهُ الرّسولُ ﷺ ، ويفهَمُ الصدِّيقُ ما يقصِدُهُ الحبيبُ محمّدٌ ، فاشترىٰ راحلتينِ ، واحتبسَهُما في دارِهِ مُنتظراً الهجرةَ عليهما مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

وتَضِجُّ مكّةُ . . فأنَّى لقريْشٍ أَنْ تَسْمحَ لمحمّدٍ في أَنْ يُغادِرَ مكّةَ قبلَ أَنْ تقتصَّ مِنْهُ ؟ إنَّهُ لا بُدَّ مِنْ عملٍ سريعٍ وحاسمٍ ، تقضي بِهِ حَسَبَ زَعْمِها عَلىٰ محمّدٍ ! . . واجْتَمعَ المدبِّرون منْهُم في دارِ النَّدوةِ يتشاوَرُون ، وانْتَهىٰ الرَّأيُ إلى أَنَّ قَتْلَ محمّدٍ هُوَ الحَلُّ في النِّهايةِ ! كُلُّ عَشيرةٍ تَدْفعُ شابّاً قويّاً مِنْ شَبابها ، ويَضْرِبُ جميعُهم ضَرْبَةَ رَجُلٍ واحدٍ إلى رأسِ محمّدٍ ، فيتَفَرَّقُ دَمُهُ بَيْنَ الجميعِ ، فلا يَسْتَطيعُ بنو هاشمٍ ، إلا أَنْ يَرْضوا بالدِّيةِ ، ويَنْتَهي الأَمْرُ .

حِمايَةٌ رَبّانِيّةٌ

لكنَّ شَيئاً واحِداً لَمْ تَحْسَبْ لَهُ حِساباً ، هُوَ أَنَّ اللهَ يعلَمُ وَيَرىٰ ويسمَعُ تآمُرَهُم ، وأَنَّهُ سَيَحْمي رسولَهُ بِلا شكٍّ ، إنَّ هذا قدْ خَفيَ عَلىٰ قلوبِ الكافرينَ .. ولشدَّةِ كُفْرِهِم فقدِ انْطَمستْ أَمامَهُمُ الحَقائقُ ، ونَسوا أَنَّ اللهَ قَدْ أَنقذَ رسولَهُ مِنْ بينِ أيديهِم قَبْلَ ذلكَ .

واتَّفَقَ الجَميعُ عَلىٰ تَنْفيذِ مؤامرتِهم الدنيئَةِ لَيْلاً ، فأَوْحىٰ اللهُ إلى نبيِّهِ أَنْ قَدْ آنَ أَوانُ هجرتِكَ يا محمّدُ فاخرجْ بحمايةِ اللهِ . وهُنا جَعَلَ ﷺ يدبِّرُ لنفسِهِ خِطَّةً حكيمةً في خُروجِهِ مِنْ بيتِهِ أَوّلاً ، ومِنْ مكّةَ ثانياً ، فقريْشٌ ستُحاصِرُ البيتَ ، وستَسُدُّ الطُّرقَ . وأوّلُ ما فعلَهُ الرّسولُ الكريمُ هُوَ أَنَّهُ طَلَبَ مِنْ عَليّ ابنِ عَمِّهِ أَنْ ينامَ في فراشِهِ تِلْكَ اللَّيلةَ التي حَدَّدَها المُشْركون ، وأَنْ يتخلَّفَ في هجرتِهِ بعْدَ النَّبيِّ حَتّىٰ يؤدِّيَ

عنه الودائعِ – التي استأْمنَه المشركون عَليها لِثقتِهم بأمانتِهِ – عَلى الرّغمِ مِنْ كُفْرِهم بِهِ وتآمرِهم عليهِ .

رَصْدُ الدَّارِ

وباتَ فتيانُ قريْشٍ يرصُدونَ دارَ النبيِّ ليقْتلُوهُ عِنْدَ خروجِهِ .. وفي الدَّارِ لَمْ يكُنْ سوىٰ محمّدٍ رسولِ اللهِ وابْنِ عَمِّهِ عليٍّ ، ويخرجُ الرّسولُ ﷺ بحمايةِ اللهِ ورعايتِهِ ، فيرىٰ الرّاصدينَ لبيْتِهِ نياماً قَدْ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهم النَّوْمَ في أماكِنِهم أمامَ البَيْتِ ، مِمَّا سَهَّلَ للنبيِّ المرورَ مِنْ بينهم دُونَ أَنْ يشعُرَ واحِدٌ منهم بما يَحدُثُ .. ويتابعُ الرّسولُ تنفيذَ خطَّتِه ، ويذْهبُ إلى دارِ أبي بكرٍ في هذِهِ العتمةِ مِنَ اللّيلِ ، فينْطلقانِ معاً إلى غارٍ جنوبيّ مكّةَ (بيْنما المدينةُ المنوَّرةُ تأتي إلى الشّمالِ منْها) ، وذلكَ لتضْليلِ الكُفّارِ فيما لَوْ تابعوا البحثَ، أو ساروا على الأثرِ .

ويستيقظُ الرّاصدُون أخيراً ، ليفاجؤوا بالطّامّةِ تنزلُ عليهمْ ، وتكادُ عيُونُهم تجحظُ وتنْفجرُ عندَما يرونَ أنَّ عليّاً هُوَ النّائمُ مكانَ محمّدٍ ! ؟ ويا لضياعِ الأمْرِ منهمْ .

ثلاثُ ليالٍ

لقَدْ جُنَّ جنونُهم ، وطارَ صَوابُهم ، وحاولوا المُسْتحيلَ في أنْ يَعْرفوا السِّرَّ مِنْ عليٍّ فلَمْ يُفلِحُوا ، فأَطلقوهُ بَعْدَ يأسِهِمْ . . ذهبُوا إلى دارِ أبي

بكرٍ ، فخرجَتْ لهُمْ أَسْماءُ ابْنَتُهُ الشّابّةُ ، وسأَلها أَبُو جهلٍ بأَنْ لَطَمَها بيدِهِ الخبيثةِ على خدِّها لطْمَةً فاحشَةً ، فما كانَ جوابُها ليفيدَهم شيئاً وهيَ تقولُ : لا أَدْري واللهِ أَيْنَ أَبي ! .

أَمّا رسولُ اللهِ ﷺ فقدْ وصلَ مَعَ صاحبِهِ إلى الغارِ في جُنْحِ الظَّلامِ ، واخْتفَيا فيهِ ، وكانَ مِنَ المرسومِ في الخطّةِ أَنْ يبيتا ثلاثَ ليالٍ ، وقَدْ تَعجبونَ يا أحبّتي مِنْ هَذِهِ المدّةِ الطَّويلةِ في رأْيِكم ، إلا أَنَّ الرّسولَ كانَ يُدْرِكُ أَنَّ العدُوَّ سيرصدُهُ في كلِّ الطرقِ ، وسيَتَتبّعُ أَثرَهُ حيثُما ذَهبَ ، فكانَ عَلَيْهِ أَنْ يأخذَ حذرَهُ في كُلِّ خطوةٍ ، ليجعَلَهُمْ ييأسُونَ مِنَ البحْثِ . . ولكنْ هَلْ وَصَلَ القرشيُّونَ والأعداءُ إلى الغارِ بَحْثاً عَنْ غايتِهِمْ ؟

لا بُدَّ مِنَ الْبَحْثِ

إنَّهمْ بَعْدَ أَنْ خَرَجَ بِهِمُ الغضبُ والغَيْظُ عَنْ أطوارِهِم ، جَعَلوا يتخبَّطونَ، ويسأَلونَ كُلَّ غادٍ ورائحٍ ، ويبحثونَ في كلِّ مكانٍ ، عَسىٰ أَنْ يجدُوا لصاحبِ الدَّعْوةِ أثراً . . إنَّهُمْ قَدْ بَذلُوا كُلَّ ما في وُسْعِهم لرَصْدِ دارِهِ ففاتَ عليهِمْ ذلكَ ، ولَيْسَ لهُم اليومَ إلا أَنْ يقتفوا آثارَ أَقْدامِهِ ، هكذا انتَهى بِهِمُ التّشاورُ فيما بينَهُمْ ، فلا بُدَّ مِنَ البحْثِ ، وقريشٌ يكثُرُ فيها العلماءُ والخبراءُ في تتبُّعِ الأثرِ مهما صَعُبَ ذلكَ . . ومَعَ أنَّ الرّسولَ ﷺ وصاحبَهُ رضيَ اللهُ عنهُ قَدْ لاقيا صعوباتٍ كثيرةً لئلا يظهرَ

أَثَرُ أقدامِهما على الأَرْضِ ، إلا أَنَّ الكُفَّار وَصَلُوا أخيراً إلى الجبلِ وهُمْ يترَدَّدونَ ! ! واخْتلطَ عليهمْ ما يرونَهُ ، فما علاقةُ هذا الجبلِ ؟ ولماذا يسيرُ محمّدٌ جنوباً ؟ أَوْ يصعدُ جَبَلاً ؟ إنَّهُ لأَمْرٌ محيِّرٌ لأَذْهانِهم ، ومَعَ هَذا فقَدْ وَقَفُوا أمامَ الغارِ حَيثُ انتهى بهِمُ البَحْثُ .

إِنَّ اللهَ مَعَنا

لقَدْ وَصَلوا إلى حَيْثُ يختَبِئُ محمّدٌ وأبوبكرٍ ، ولكنَّهم لَمْ يدركوا ذلكَ ، ونستطيعُ الآنَ يا أحِبَّتي أَنْ نتصوّرَ حالةَ رسولنا وصاحِبِه في الغارِ ، فقَبْلَ أَنْ يَصِلا بَذَلا جهْدَهُما وسْطَ المصاعِبِ والمخاوِفِ لينجُوا بنفسَيْهما ، وإنّهما الآنَ لتُحيطُ بهما تلكَ المخاوفُ مجسَّدَةً بالكفّارِ من القومِ ، فالغارُ قَدْ حُوصِرَ وأفرادُ قريشٍ فوقَهُ ، ومعَ ما كانَ مِنَ الأَمْرِ العصيبِ ، فإنَّ رَسُولَ اللهِ ظَلَّ ثابتَ الجأشِ ، تغمُرُه السَّكينَةُ والطمأنينةُ ، فقدْ وعَدَهُ اللهُ بالنَّصرِ ، وبأنَّ اللهَ سَيحميهِ دوماً مِنْ بطشِ العدوِّ ، ولكنَّ أبا بكرٍ صاحبَ النَّفسِ الحانيةِ الرَّقيقةِ يَسْمعُ دبيبَ أَقْدامِ الكُفَّارِ ، فيشتدُّ خَوفُه على حياةِ الرّسولِ ويَبْكي ، وهُوَ يقُولُ : يا رسولَ اللهِ لو أَنَّ أحدَهُم نظرَ إلى موضِعِ قدميهِ لأبصرَنا ، فيردُّ عليهِ الرَّسولُ ﷺ مُهدِّئاً : (لا تحزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنا ، ما ظنُّكَ باثنينِ اللهُ ثالِثُهما)؟

يَأْسُ قُرَيْشٍ

اللهُ مَعَ محمّدٍ الذي قامَ بكُلِّ ما يُناسبُ ويلزَمُ من الحذَرِ والحيطَةِ ، ففيمَ الخَوفُ يا أبا بكْرٍ ؟ ومَعَ دمعَتَيْ فرَحٍ يبتسمُ أَبُو بكرٍ في وجْهِ الرّسولِ ﷺ أخيراً عنْدَما يَسْمعُ المشْرِكِين وهُمْ يَقولونَ : ما كانَ لمحمّدٍ أَنْ يدخُلَ هذا الغارَ وتَبْقى خيوطُ العنكبوتِ منسوجَةً على بابهِ ؟ ! ! ويتحقق لأبي بكرٍ مِنْ هذا القول أَنَّ اللهَ قَدْ أرسَلَ العنكبوتَ لتنسجَ خيُوطَها بتِلْكَ السُّرعةِ على بابِ الغارِ ، ممَّا سهَّلَ دُخولَ اليأْسِ إلى قلوبِ المشركينَ الكفَرةِ ، وهَذِهِ أقدامُ أبي جهلٍ ومَنْ مَعَهُ تقفلُ راجعَةً خائبَةً نحوَ مكّةَ ، بَعْدَ أَنْ صعَدُوا جَبلاً ما صَعدوهُ طوالَ عُمرِهِم لصعوبتِهِ وصعوبةِ السَّيرِ فيه ، ولَمْ يبْقَ لهمْ لاكتشافِ الحقيقةِ إلا خطوةٌ واحدةٌ مَنَعهم اليأْسُ الذي قدْ أطبَقَ عليهم مِنْ تنفيذِها ، وأيقَنَ الجميعُ أَنَّ محمّداً قَدْ هاجَرَ لا محالَةَ ، وأنَّهُ قَدْ أفلَتَ مِنْ أيديهم . . ونحنُ نقُولُ : إنَّها لمعجزةٌ . .

اللّهمَّ رِعايَتَكَ

ما أَكرمَكَ يا ربِّ ! . اللهمَّ كَما أَلهمْتَ محمّداً ﷺ أَنْ يرسُمَ هذِهِ الخُطّةَ الحكيمةَ ، فإنّا نسأَلُكَ أَنْ تَمْنحَهُ العَوْنَ والمساعدةَ والصَّبرَ ليتابعَ رحْلَتَهُ مَعَ صاحِبِه بسلامٍ وأَمانٍ .

اللَّهمَّ رعايَتَك لَهُما ، فإنَّ يأْسَ قريشٍ لَنْ يَسْتمرَّ ، بَلْ سَيُفكِّرُ أفرادُها بأيَّـةِ وسيلةٍ كانـتْ للقَضاء على رسولِ الدَّعـوةِ حَتَّىٰ ولو صـارَ خارِجَ مكَّـةَ أَوْ وسْطَ المدينـةِ . . اللهمَّ رعـايَتَكَ لِمَنْ وثـقَ بنَصْرِكَ وآمَنَ بـكَ ، وتوكَّلَ عليكَ . . إنَّهما سَيُهاجران بدِينِهما الصَّحيح ، ولَيْسَ لَهُما إلا أَنْتَ يـا ربِّ ، بعْدَ أَنْ وَقَفَـتْ لَهُما مَكَّـةُ بأَسْرِهـا تُقـاوِمُهما وتُطاردهما ، وإنَّنـا لَنُحِسُّ ونَشْعرُ كَمْ يُلاقيْ رسُولُنا الطَّريدُ ﷺ مِنْ عَنَتِ الفرارِ ومَخاوفِهِ ، فاحْمِهِ اللهمَّ إذا ما خَرَجَ مِنَ الغارِ كَما حَمَيْتَه داخِلَ الغارِ .

ماذا سَيَعْمَلُونَ ؟

اطْمَئِنُّوا يا أحبَّتي الآنَ ، واعْلَموا أنَّ محمّداً ﷺ سيخرجُ مِنْ غارِ ثَوْرٍ مَعَ صاحِبِه ، ومـا عليكم إلا أَنْ تُتابعوا القِراءةَ ، وسنرى معـاً ما العملُ الذي سينفِّـذُه الرّسولُ ؟ وبا لمقـابِلِ ماذا سَيُلاقـي مِنْ قريشٍ التـي لَنْ تكفَّ عَنْ مُطاردَتِـهِ على طريقِ مكَّةَ مِنْ حَوْلها . . فهَـلْ سَيُلاحِقُونه إلى المدينةِ ليَقْتلـوه ؟ وهَلْ سيَمشي الرّسولُ في الطَّـريقِ المألوفةِ العـاديَّة إلى المدينةِ ؟ وهَلْ سَيختبئُ مرَّةً ثانيةً في جبـلٍ مِنَ الجبالِ ؟ ومَنْ سَيُؤمِّنُ لَهُ السَّيرَ في مـأْمَنٍ عَـنْ أعينِ قـريشٍ ؟ كُـلُّ هذِهِ الأسئلـةِ ومَـا شابَهَـها ، سنعرفُ جَـوابَها في صَفحاتٍ أُخْـرىٰ إنْ شَاءَ اللهُ تعـالىٰ . . ولكمْ ألـفُ شكرٍ على حُسْنِ قِراءَتِكُم.

قِصَصُ
السِّيرةِ النَّبَوِيَّةِ
٢٨

الهجرةُ المنوّرة

هُدُوءُ العاصِفَةِ

نَحنُ الآنَ مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ نعيشُ وسْطَ الحديثِ عَنْ رحلةِ هجرتِهِ مِنْ مكَّةَ إلى المدينةِ . . وكنَّا قد بدأْنا هذا الحديثَ عندَما دَخَلَ رسولُنا مَعَ صاحِبِهِ أبي بكرٍ إلى الغارِ ، ومكثا هُناكَ ثلاثَ ليالٍ . .

إنَّ اللَّيالِيَ الثَّلاثَ قَدْ مَضَتْ ، وتأكَّدَ الرَّسولُ أَنَّ قُرَيْشاً قَدْ يَئِسَتْ مِنَ العُثورِ عليه في مكَّةَ ، فلمَّا أيقَنَ أَنْ قَدْ هدأَتِ العاصِفَةُ ، وسكنَتِ الثَّورةُ قليلاً ، بَدَأَ في تَنْفيذِ باقي خطَّتِه . .

إنَّها لتلوحُ أمامَهُ فرصةٌ للخروجِ ، فقريشٌ كفَّتِ الآنَ عَنِ البحثِ الدَّائبِ الخائبِ ، هيَّا يا أبا بكرٍ ، ستخرجُ بعونِ اللهِ مِنْ هذا الغارِ الذي سيكونُ آخِرَ مكانٍ جلسْنا فيهِ قبْلَ رحيلنا عَنْ مكَّةَ .

وإنَّ اللهَ الذي خَلَقَ محمَّداً بشراً ، وجعلَهُ رسولاً ، سَيَحْميهِ حتَّى يَسْمُوَ ويَنْتَصِرَ قائداً . .

ذاتُ النِّطاقَيْنِ

ويَخرجانِ مِنَ الغارِ ، ويُلاقيهما أَوَّلَ ما يلاقيهما بنتٌ مؤمنةٌ لأبي بكرٍ في مُقْتَبلِ شَبابِها اسمُها (أسماءُ) . لقدْ جاءَتْ تحملُ لوالدِها طعاماً يتزوَّدُ بِهِ مَعَ الرَّسولِ أثناءَ السَّفرِ والهجرةِ ، ورآها الرَّسولُ ﷺ وقدْ شقَّتْ

نِطاقَها الذي تشدُّ بِهِ وسطَها إلى نصفينِ ، فعلَّقَتِ الطَّعامَ بشقٍّ منْهُما ، وجعَلَتِ النِّصفَ الآخَرَ نطاقاً مِنْ جديدٍ ، ويتَبَسَّمُ أَبُوها ، ويضحَكُ الرَّسولُ مِنْ عَملِها ، فقَدْ أصبحَتْ بذاتِ النِّطاقَيْنِ ، وسيكونُ نِطاقُها ذكْرىٰ يحملُها المُسافرانِ مِنْ زهْرةٍ مؤمنةٍ مُتفتِّحةٍ ، حَمَلَتْ لَقَباً جَميلاً مُناسباً لِعَملِها ، وأَراكُمْ تتذكَّرونَ تَحَمُّلَها لِلَّطْمةِ الفاحشَةِ التي نالتْها مِنَ الفاحِشِ أبي جهلٍ قَبْلَ أيَّامٍ ثلاثةٍ . إنَّ ما قامَتْ بِهِ أسماءُ لَيَدُلُّ على ذكاءٍ ، إذْ أنَّها لمْ تَجِدْ ما تعصِمُ بِهِ زادَ الطَّعامِ ، وإنَّهُ ليزيدُ لَها الأجْرَ والثَّوابَ عِنْدَ اللهِ ، ويجعلُها مِنْ أعلامِ الفتياتِ المُسْلماتِ في تاريخِ الهجرةِ والدَّعوةِ ، وصاحبةَ جائزةِ النطاقيْنِ في الجنةِ .

نَظْرَةٌ وَدَمْعَةٌ

ويَركَبُ الرَّسولُ ﷺ على راحلَتِهِ ، وأبو بكرٍ على راحلةٍ أُخرىٰ يحملُ إلى جانبِهِ سُفْرَةَ الطَّعامِ ، وينطلقُ الركْبُ يسيرُ باسْمِ اللهِ ، بَعْدَ أنْ أرخىٰ الليلُ سُدُولَهُ على مكَّةَ ، وكانَ القمرُ هِلالاً في مُسْتَهَلِّ ربيعِ الأوَّلِ ، لا يُغني في هٰذا الظَّلامِ شيئاً فيما لَوْ لَحِقَ المُشْرِكونَ بالرَّكبِ . . وما أنْ وصَلَ الرَّاكِبانِ إلى خارجِ مكَّةَ مِنْ جنوبِها ، حتَّى وقفَ الرَّسولُ وهُوَ يَبْكي . . وانْهَمَرَتْ دَمْعَتانِ ساخنتانِ مِنْ عينَيْهِ ، والتفتَ إلى مكَّةَ يودِّعُها بنظراتٍ حارَّةٍ . . وبكلامٍ يكادُ يخنقُهُ البكاءُ يقولُ فيهِ : (واللهِ إنَّكِ لأَحبُّ أرْضِ اللهِ إليَّ ، وأحبُّ أرضِ اللهِ إلى اللهِ ، ولَوْلا أنَّ أهلَكِ أخرجُوني منكِ قَهْراً

ما خَرجْتُ ، اللَّهمَّ أَسْكِنّي أَحبَّ البلادِ إليْكَ . .) إنَّهُ لَوَداعٌ يقطرُ حُبّاً وحَناناً ممّا جعلَ قَلْبَ أبي بكرٍ يغمُرُهُ الحزْنُ الشَّديدُ على بكاءِ رسولِ اللهِ ﷺ .

الدَّليلُ الْوَاعي

ثُمَّ يتابعانِ المسيرَ ، ويَتْبعُهما دليلٌ استأْجرهُ أبو بكرٍ لكيْ يدلَّهُما على طريقٍ مأمونةٍ لا يَعْرفُها القرشيُّون كثيراً ، وحَقّاً إنَّهُ لدليلٌ واعٍ ، جعَلَ يتحرَّى مواضعَ الأمانِ ، ويبتعدُ عَنْ مسالكِ الخوفِ ، ومِنْ ذلكَ أنَّهُ لَمْ يسلُكْ بهما طَريقاً مألوفَةً مِنْ شماليّ مكَّةَ ، بَلْ سارَ مُنْحَدِراً إلى الجنوبِ أَسْفلَ مكَّةَ ، ثُمَّ توجَّهَ غَرْباً باتِّجاهِ البحرِ الأحمرِ ، وفي خطَّتِه إذا ما وَصَلَ إلى شاطئِ البحرِ ، سارَ شمالاً في مُحاذاتِه إلى المدينةِ ، وهُوَ حريصٌ أَشَدَّ الحرصِ على أَنْ يبتعدَ عَنِ العُيونِ ما استطاعَ ، واسْمُ هذا الدَّليلِ الواعي : (عَبدُاللهِ بْنُ أُرَيْقط) ، وهُوَ ممَّنْ يعرفُونَ صِدْقَ رسولِ اللهِ وغايتَهُ . . وممَّا فعلَهُ أيضاً للتَّمويهِ أَنَّهُ أَخذَ يرْتجز (أيْ يقولُ شِعراً جميلاً اسْمُهُ الرَّجَزُ) ليدلَّ الآخرينَ على أَنَّهُ مطمئنٌّ في سفرِهِ .

أَكْبَرُ جائِزَةٍ

ونعودُ إلى قريْشٍ قليلاً ، لنسمَعَ زُعماءَها يعلنُونَ في أَنْحاءِ مكَّةَ عَنْ أكبرِ جائزةٍ سَمِعَها العربُ . . (مائةُ ناقةٍ يا قَوْم . . مائةُ ناقةٍ يا قَوْم . . مائةُ ناقةٍ لمنْ يَأْتينا بمحمَّدٍ حَيّاً أَوْ برأْسِ محمدٍ بعدَ قتْلِهِ . .) . . إنَّها

جائزةٌ لَمْ ينلْها أَحَدٌ حتَّى الآنَ ، ممَّا يدلُّ على أَنَّ مُصابها في هروبِ محمّدٍ كبيرٌ وكبيرٌ . .

إنَّ قريْشاً لتَعْلَمُ أَنَّ مُحمّداً ﷺ قدْ غادرَ مكَّةَ ، ولا بُدَّ أنَّهُ في طريقهِ إلى المدينةِ ، لذلكَ أَرْسلتِ الطَّامعينَ في الجائِزَةِ إلى أَنْحاءٍ عديدةٍ حوْلَ مكَّةَ ، وأَخبَرُوا القبائِلَ وأَهْلَ السَّاحِلِ بما يطلبُونهُ وبما سيدفعُونَهُ مِنْ جائزةٍ كبيرةٍ . فَمَنْ يا تُرى ستُغْريه الجائزةُ ، وينالُ برسولِ اللهِ ﷺ ؟ إنَّ أَهْلَ الباديةِ لَيأْخذُهُم الطَّمعُ أَكْثرَ مِنْ غيرِهم ، ويغريهمُ المالُ والثَّروة .

الطَّمَعُ يا سُراقَةُ ! !

ها هُوَذا واحدٌ مِنْ أَهْلِ هذهِ الباديةِ ، اسْمُهُ : (سُرَاقَةُ بْنُ مالِكٍ) ، قَدْ وصلَ إلى سَمْعِهِ أَنَّ ثلاثةَ نفرٍ يسيرونَ بالقُربِ مِنْ شاطئِ البحرِ بينهمْ واحدٌ يقولُ الرَّجزَ ، فاعتقدَ سراقةُ جازماً بأنَّهم لا بُدَّ وأَنْ يكُونوا ركْبَ محمّدٍ ، وسرعانَ ما أَخذَ رمحَهُ ، وركِبَ فرسَهُ ، وسارَ بها مُنْطلقاً إلى حَيْثُ حدَّثوهُ . . إنَّهُ الشَّاطئُ يَبْدو مِنْ بعيدٍ لعينيْهِ ، وثلاثةُ أَخيلةٍ سوداءُ تكادُ تَبِينُ على ذلكَ البعْدِ ، بعْدَ قليلٍ ستنقَشِعُ الغمامَةُ ، ويظهَرُ الأَمْرُ بوضوحٍ .

رُحْماكَ يا ربَّنا ، فالشرُّ يلوحُ ويتطايَرُ من عينيْ سراقَةَ ، وإنَّ رُمْحَهُ لموَجَّهٌ إلى الرَّكْبِ الطَّاهرِ الشَّريفِ ، فماذا سَيَكُونُ مِنْ أَمْرِ سُراقَةَ مَعَ رسولِنا الكريمِ ﷺ وصاحبِهِ رضيَ اللهُ عنْهُ ؟ .

لا سَبِيلَ لَكَ

ويقتربُ سُراقَةُ بفرسِهِ مِنَ الثَّلاثةِ ، ويتَّضحُ لَهُ مِنَ النُّورِ المُشرقِ على الوجوهِ أَنَّ محمَّداً مِنْ بينهِمْ ، ويتأكَّدُ مِنْ ذلكَ إذْ أَنَّ أَبا بكرٍ قَدْ أَظْهَرَ مِنَ الخوْفِ الكثيرَ على رسولِ اللهِ ﷺ وصاحَ : فِداكَ أَبي وأُمِّي يا رسولَ اللهِ ، إنَّهُ قَدْ لحِقَنا العدُوُّ ، ودَنا مِنَّا على مقربَةٍ .

ونزَلَ النَّصرُ مِنَ السَّماءِ ! ! قِفي يا فَرَسَ سُراقَةَ ! وتتجمَّدُ الفرسُ في مكانِها ! وسُراقَةُ لم يعرفْ لَها عصْياناً مِنْ قَبْلُ ، والأدهىٰ مِنْ ذلكَ أَنَّ قوائِمَها أَخذَتْ تَسيخُ في الأرضِ حَتَّى بلغَتِ الرُّكبَ ، ويَسْتَقْسِمُ سُراقَةُ بالأزْلامِ ، وينادِي بالأمانِ علىٰ موْكبِ النُّورِ ، ويَصلُ إليهِمْ ماشِياً وهُوَ يلهثُ ، وعرفَ أَنْ لا سبيلَ لَهُ للقَبْضِ علىٰ محمَّدٍ أوْ صاحِبِهِ ، لأَنَّ اللهَ قَدْ حماهُما ، ومَنَعَ وصولَ ضررِ المطارِدينَ إليهما .

تَلْبَسُ سِوارَيْ كِسْرىٰ

ويَضحكُ رسولُ اللهِ في وجْهِ سراقَةَ ، ويقرأُ له آياتٍ مِنَ القرآنِ ، ليطمئنَّ لَها قلبُهُ ، وتَسْرِي بَيْنَ جوانِحهِ روحُ الهدوءِ . . وما هيَ إلا دقيقةٌ حتَّى غَيَّرَ سراقَةُ غايَتَهُ ، وأَدركَ مِنَ الأَعماقِ أَنَّ محمَّداً لا بُدَّ وسيَظْهرُ أَمْرُهُ على العربِ كُلِّهم ، لذلكَ راحَ يطلبُ منهُ الجائزَةَ الحقيقيَّةَ : (أَنْ يَكْتُبَ لَهُ كِتابَ أَمانٍ) أَيْ : لا ينتقِمُ منْهُ في المستقبلِ ، فتبسَّمَ لَهُ الرسولُ ﷺ ، وبشَّرَهُ (بأَنَّ اللهَ سيَفْتَحُ للمسلمينَ بلادَ فارِسَ وكنوزَ كسرىٰ ، وأَنَّ سُراقَةَ سَيَلْبَسُ سِوارَيْ كِسْرىٰ ، زيادةً على عَهْدِ الأَمانِ مِنَ القَتْلِ . .) ،

ويرضىٰ سُراقَةُ بهذا الوعْدِ مِنْ رسولِ اللهِ ، ويعودُ إلى حيثُ خَرَجَ ، بغَيرِ الوجْهِ الذي انطَلَقَ بِهِ ، قائلاً لقَوْمِهِ : (لَنْ آتِيكُمْ بِرَأْسِ محمّدٍ . . وسَوْفَ أَنالُ مِنْهُ سِوارَيْ كسرىٰ ، وإنِّي لَمُصَدِّقُهُ . .) . وحقّاً . . لقد لبسَهُما فيما بعْدُ .

شَاةُ أُمِّ مَعْبَدٍ

وينطلقُ رَكْبُ محمّدٍ مِنْ جديدٍ وسْطَ البراري المترامِيةِ ، يصْبِرِ علىٰ الحرِّ المحرِقِ ، والقيظِ الملْتهبِ ، واثقاً بأَنَّ اللهَ سيمنعُ أَذىٰ قريشٍ ومَنْ وَالاها عَنْ رسولِهِ وصَاحبِه . وفي الطَّريقِ . . مرَّ المهاجِرانِ على امْرأةٍ كريمةٍ تُدْعى (أُمِّ مَعْبَدِ الخزاعيَّةِ) مِنْ أَعْرابياتِ الصَّحراءِ ، تجلسُ أمامَ خَيْمَتِها ، وقدِ اشتهرتْ بأَنَّها تَسْقِي المسافرينَ ، فتوقَّفَ الموكبُ يَسْأَلونَها عن تمرٍ أو لحمٍ يشترونَهُ ، فأبدَتْ أُمُّ معبدٍ أسفَها حيثُ أَنَّ السَّنةَ مجدِبَةٌ ، والباديةَ في قحطٍ شديدٍ ، فاقتربَ الرسولُ ﷺ مِنْ شاةٍ لَها مُتْعَبَةٍ قَدْ جَفَّ ضِرْعُها ، واستأْذَنَ مِنْ أُمِّ معبدٍ ، فسمحَتْ لَهُ أَنْ يَحْلبَها ، فمَسَحَ ضِرْعَها ، وذكرَ اسْمَ اللهِ وقالَ : (اللَّهمَّ باركْ لَها في شاتِها) . وبقدرةِ اللهِ نَزلَ الحليبُ غَزيراً يَسْقي الجميعَ ، فلَمْ تتمالَكْ أُمُّ معبدٍ نَفْسَها أَنْ سَأَلَتْهُ عَنْ أَمرِه ، فحدَّثَها ، وهي تسْمَعُ . .

رَجُلٌ مُبارَكٌ

وشَرِبَ كُلُّ العطْشىٰ في ذلكَ المكانِ ، وتابعَ الرَّكْبُ رحلتَهُ المباركَةَ ، وما هيَ إلا ساعةٌ حتَّى عادَ أَبُو معبدٍ إلى خيمَتِهِ ، ليَرىٰ حَليباً لَمْ يذقْهُ

منذُ أيّامٍ ، فسأَلَ أمَّ معبدٍ عنِ الخبرِ مُستغرباً أنْ تحلُبَ الشّاةُ بهذا القَدْرِ!! فقالتْ : إنّهُ واللهِ مَرَّ بنا رجُلٌ مباركٌ لَهُ مِن كمالِ الطّلعةِ وجمالِ الهيئَةِ وسلامَةِ المنطقِ وعُذوبَةِ الحديثِ ما جَعَلَني أتعجَّبُ مِنْ أَمْرِه ، وإنّي لأرىٰ البركةَ والخيرَ يقْطرانِ مِنْ وجهِهِ وهيبتِهِ وجلالِ مظهرِهِ ، فقالَ لها أبُو مَعْبد : (هٰذا واللهِ محمّدٌ الذي تطلبُهُ قريْشٌ ، لَنْ نَدُلَّها عليْهِ، وكَمْ كُنتُ أتمنّىٰ لو كنْتُ وقْتَ مرورِهِ منْ هُنا حتّى أصْحبَهُ ، وسأفعَلُ إنْ شاءَ اللهُ متىٰ وجدْتُ إلى ذلكَ سَبيلاً).

في قُباءَ

وقُبيلَ المدينةِ المنوَّرةِ ، يمرُّ رسولُنا الكريمُ على ضاحيةٍ تُسمّى (قُباءَ)، فينزلُ مَعَ الرّكبِ إلى هذهِ البلدةِ الطّيّبةِ ، وتستقبلُهُ أهْلُها بالتّرحيبِ والكرامةِ ، إنّهُمْ قَدْ سَمِعوا باسْمِهِ وبدعوتِهِ ، ووصلَ إليهِمْ خبرُهُ مِنَ المدينةِ المنوّرةِ التي انْتشرَ فيها الإسلامُ وكثُرَ المسلمونَ . . ويقْدمُ الرجالُ والنّساءُ والأطفالُ ليرَوْا رسولَ اللهِ ﷺ يلتمِسُون عندَهُ سماعَ القرآنِ الكريمِ، ويحملونَ لَهُ هديّةَ الضّيافةِ .

وأقامَ الرسولُ ﷺ في بلدةِ الكُرماءِ أربعةَ أيّامٍ متتاليةٍ ، أحبَّ فيها البَلْدةَ وأهْلَها وعرفَ فيهِمْ جماعةً يفهمونَ الحقَّ ، ويرغبونَ في التزامِ شريعتِهِ . . وقَدْ نزَلَ رسولُ اللهِ عندَ رجلٍ اسْمُهُ (كُلْثومُ بْنُ الهِدْمِ) ، وهُوَ شيخُ بني عَمْرو بْنِ عَوْفٍ ومشهورٌ في قباءَ مِنْ بَيْنِ الشُّيوخِ والكبارِ .

مَسْجِدٌ علَى التَّقْوىٰ

وفي بيْتِ هٰذا الشّيخِ الكريمِ فكَّرَ الرسولُ الكريمُ في عملٍ كريمٍ . . ونفَّذَهُ أحْسَنَ تنفيذٍ ، فكانَ عملُهُ أهَمَّ عملٍ قامَ بِهِ حبيبُنا في قُباءَ . . لَقَدْ أسَّسَ يا أحبّتي مسْجِداً ، فكانَ ذاكَ المسْجِدُ أوّلَ مسجِدٍ يُبْنىٰ في دَعْوةِ رسولِ اللهِ ، وقَدْ عملَ فيه ﷺ بيدَيْهِ ، وشارَكَ أصحابُهُ في حَمْلِ الحجارةِ والصُّخورِ ، حتّى كانَ يَبْدو عليه الجهْدُ . .

ونزلَ جبريلُ ليزفَّ البُشْرىٰ إلى عُمّارِ المسجدِ قائلاً : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ . .

وإذا ما زرتُمْ هٰذا المسجِدَ في المُسْتقبلِ ، فتذكَّروا أنَّ رسولَ اللهِ قَدْ شاركَ في بنائِهِ ليؤسِّسَ فيهِ رسوخَ بدايةِ مرحلةِ الاستقرارِ والدّعوةِ إلى اللهِ . . وأنَّ المسجِدَ في الإسلامِ هُوَ منبعُ التّقوىٰ والخيرِ .

وَوَصَلَ بسَلام

ويودِّعُ الرّسولُ ﷺ أهْلَ قُباءَ ، ويسْتأذِنُهم في الرَّحيلِ ، فها هيَ ذي المدينةُ قَدِ انتظرتْ قدومَهُ طويلاً ، وقلْبُ الرّسولِ قَدْ غمرَهُ الشّوقُ لرؤيةِ المهاجرينَ والأنصارِ . . ويخرجُ أهْلُ قُباءَ في وداعِهِ ، ويشكرُ لهُمُ الرّسولُ كرمَهُمُ الذي لقيَهُ منْهُم ، ويُتابعُ مسيرَهُ باتّجاهِ بلْدةِ النّورِ مَعَ أبي بكرٍ ، ويَصلانِ أخيراً بعوْنِ اللهِ ، في الثّاني عشرَ مِنْ ربيعِ الأوّلِ

للسَّنةِ الرَّابعةِ عَشَرَةَ مِنَ البِعْثَةِ ، (أَيْ بَعْدَ ١٣ سنة مضَتْ مِنْ بَدْءِ الدَّعْوةِ) . وصلَ رسولُ السَّلامِ إلى دارِ السَّلامِ بحمايةِ الربِّ السَّلامِ لينشُرَ رسالةَ السَّلامِ ، ومعَ القلوبِ الطاهرةِ وفي الأرضِ الطّاهرةِ ، سيؤسّسُ المدينةَ الطَّاهرةَ والمجتمعَ الطَّاهرَ . .

ولا تَسْأَلُوا عَنِ الفرحةِ الكبيرةِ التي عمَّتْ أَهْلَ المدينةِ إِثْرَ قُدومِ الرسولِ ﷺ عليهمْ . .

دُعاءُ الشَّاكِرينَ

أَراكُمْ فرحْتُمْ مَعَهم كثيراً لنجاةِ موكبِ النُّورِ . . فارْفعوا أَيديَكُمْ الآنَ إلىٰ ربِّ السَّماءِ والأَرْضِ . . وقولُوا مَعي يا أَحِبَّتي شاكِرِينَ : الحمدُ لَكَ يا أَكْرم الأكرمينَ ، لا نُحْصِي ثَناءً عليكَ ، أَنْتَ الذي حَمَيْتَ رسولَكَ إلينا وإلىٰ العالمينَ ، فالشُّكْرُ لَكَ يا ربَّ العالمينَ على هذهِ النعمةِ الكُبرىٰ ، وهٰذا الفَضْلِ العَظيمِ ، ولَنْ نَنْسىٰ يا رَبِّ أَنَّكَ تَرْعىٰ المؤمنينَ دَوْماً ، وأَنَّكَ قَدْ وعدْتَ رَسُولَكَ وعبادَكَ المُسلمين بالنَّصرِ ، وأَنْ لا خَوْفٌ عليهمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ . . وإنَّنا يا ربِّ قَدْ لَمَسْنا مِنْ خلالِ هجرةِ رسولِكَ أَنَّكَ مَعَنا كما كُنْتَ مَعَ حامِلِ رسالتِكَ ، وأَنَّكَ تحْمي كلَّ مَنْ يتوكَّلُ عليكَ بَعْدَ أَنْ يُعِدَّ العِدَّةَ ويهيِّئَ الأَسْبابَ ، ويأْخذَ حيطتَهُ وحذرَهُ . اللهمَّ أَنْتَ مَعَنا وسنحفظُ قَوْلَ نبيِّكَ في الغارِ لأَبي بكرٍ حَتَّى تَبْقىٰ مَعَنا : (لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنا ، ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُما ؟) .

ابتسامة الشاكرين

وُصولٌ مُباركٌ

كلُّ المدينةِ بأَهْلِها وبُيوتاتِها مشتاقةٌ لوُصولِ الرّسولِ إليْها مُهاجراً مِنْ مكّةَ ، وقَدْ حَمِدْنا اللهَ في نهايةِ الحلقةِ السّابقةِ ، وشكرنا لَهُ أَنْ أَوْصَلَ رسولَهُ محمّداً مَعَ صاحبِهِ بِأمانٍ إلى المدينةِ ، وكانَ وُصولاً مُباركاً حقّاً ، كلّلَتْهُ يَدُ العنايةِ الرّبانيّةِ بالسّكينةِ والطُّمأْنينةِ ، وأَحاطَتْهُ حِراسَةُ الرّحمٰنِ مِنْ جوانبِهِ ، فازْدادَتْ هيبةُ الموكبِ جلالاً ظاهراً مُبيناً .

ونَحْنُ الآنَ يا أحبّتي سندرُسُ مَعاً بسرورٍ فرحةَ الأَنْصارِ الذينَ ترقّبوا مقْدمَ النبيِّ ﷺ ، وانْتظروا كثيراً هٰذا المقْدمَ الطّيِّبَ ، وسنفرحُ معهُم كثيراً لأنَّ فرحَهم طيِّبٌ ، ما عَهِدَ التّاريخُ مثلَهُ ، أَوْ شبيهاً لَهُ ، وإنّنا لنتصوَّرُهم قَبْلَ مَقْدَمِ حَبيبِهم يخرجونَ إلى مشارفِ المدينةِ متلهّفينَ ، ويبقَوْن حتّى يؤْذيَهُم الحرُّ ، وتلفحَهم الشّمسُ ، وعندها يعودون إلى منازِلهم .

جاءَ رسولُ اللهِ

وصادَفَ وصولُهُ بعدَ رجوعِهم ذاتَ مَرّةٍ مِنْ شِدّةِ الحرِّ ، وكانَ أوّلَ مَنْ رآهُ رجُلٌ مِنَ اليهودِ ، وقَدْ رأَى مِنْ قبْلُ خروجَ الأنصارِ منتظرين قُدومَ الرّسولِ عليهِمْ ، فصرخَ بأعْلى صوتِهِ : (قَدْ جاءَ حظُّكم

وطالعُكم أيُّها العربُ ، هَلُمُّوا لرؤْيتِهِ) ، فخرجَ الجميعُ ، فرأَوا اليهوديَّ يدلُّهم إلى ظِلِّ نَخلةٍ ، حيثُ يجلسُ رسولُ اللهِ وأَبو بكرٍ ، وأكْثرهم لَمْ يكُن قَدْ رأَى رسولَ اللهِ مِنْ قبْلُ ، فما عَرَفوا أيُّهما رسولُ اللهِ وأيُّهما أبُو بكرٍ ؟ حتّى زالَ الظِّلُّ عَنْ رسولِ اللهِ ، فقامَ أبو بكرٍ فأظَلَّهُ بردائِهِ ، فعرفَهُ الجميعُ عِنْدَ ذلكَ ، وهلّلتِ البَسْمَةُ ، وارتسمَتْ على شفاهِهِم قائلينَ : (جاءَ رسولُ اللهِ ، أَهْلاً برسولِ اللهِ ، صَلّى اللهُ عليْكَ وسَلّمَ يا رسولَنا الكريمَ يا رسولَ الأنصارِ والمهاجرينَ ، وأَهْلاً بالصّدّيقِ الذي مَعَكَ ، أَهْلاً بأوّلِ رَجُلٍ صدّقَ رِسالتَكَ ودعوتَكَ)

انْطَلِقا آمنَيْنِ

الحشْدُ كبيرٌ ، والعددُ يزيدُ على خمسمائةٍ مِنَ الأنصارِ ، والكلُّ في أجملِ ثيابٍ لهمْ ، وكأنّهم في يومِ عيدٍ ، وسارَ الحشْدُ مَعَ موكبِ الرّسولِ باتّجاهِ قلبِ المدينةِ ، ودخلَها رسولُ اللهِ وصاحبُهُ ، وهما يسمعانِ عباراتِ التّرحيبِ والفرحِ ، فمِنَ الجهاتِ جميعها تَنْطلقُ الألسنةُ لتُحيّيَ الضيفَيْنِ الكريمَيْنِ في محبّةٍ واحترامٍ وهي تُردّدُ : (انطلقا آمنين مُطاعَيْنِ ، انْطلقا آمنَيْنِ مُطاعَيْنِ) ، أيْ : لَنْ نَعصيَ الرّسولَ في أمرٍ ، ولَنْ نَدّخرَ قوّةً في الحفاظِ على حياةِ الموكبِ . . أمانٌ وطاعةٌ ، أمانٌ على الرّسولِ ، وطاعةٌ لكلامِ الرّسولِ ، وأيُّ أمانٍ أحقُّ مِنْ هٰذا الأمانِ على المؤمنينَ ؟ وأيُّ طاعةٍ أوْجبُ لرسولِ اللهِ مِنْ طاعةِ المؤمنينَ لَهُ ؟

نَشِيدُ البَدْرِ المُنيرِ

لقدْ خَـرَجَ مَنْ بقـيَ مِنْ أَهْـلِ المدينةِ مِـنَ الغِلْمانِ والشَّبابِ فـرحينَ قـائلينَ : (اللهُ أَكْبر جاءَ رسولُ اللهِ ، اللهُ أَكْبر جـاءَ محمّـدٌ) ، ثم أَخَـذَ الصِّبيانُ مع النساءِ والولائِدِ يهلِّلْنَ ، وينشدْنَ نشيـدَ البدْرِ ، ويضربْنَ بالدُّفوفِ :

طَلَـعَ البَـدْرُ عَلَيْنَـا ... مِـنْ ثَنِيَّـاتِ الـوَدَاعْ
وَجَـبَ الشُّكْـرُ عَلَيْنَـا ... مَـا دعـا للهِ داعْ
أَيُّها المبْعُـوثُ فِينـا ... جِئْتَ بـالأَمْـرِ المُطَاعْ
جِئْـتَ شَرَّفْـتَ المدينَـهْ ... مَـرْحَبـاً يـا خَيْرَ دَاعْ
قَـدْ لَبِسْنـا ثَـوْبَ عِـزٍّ ... بَعْـدَ تَمْزِيـقِ الـرِّقَـاعْ

. . وأحبُّ مِنكُم أيُّها الأعزاءُ أنْ تحفظوهُ مثلي ، لكـيْ نشعُرَ حقّاً بأنَّنا مَـعَ الحشْـدِ نقولُ للرَّسـولِ وصاحِبِه : (انْطلقا آمنَيْنِ مُطاعَيْنِ) . . وطاعتُنا لرسولِ اللهِ ﷺ أحْلى هديةٍ نُقدمُها لهُ ولصاحِبِه معاً .

زِينَةٌ وبهجَةٌ

وازدانَـتِ المدينـةُ ، وأَشْرقـتْ جَـوانبُها بـالبهجَـةِ والسُّرورِ ، وأَخَـذَ الأَحْباشُ يلعَبُون بحرابِهم فرحِينَ بقـدومِ رسولِ اللهِ ، وعَلا وجوهُ القَوْمِ زهْـوٌ وبشْرٌ وابتِهاجٌ ، وأَحـاطُوا بـالمَوْكبِ مُشاةً ورُكْباناً ، وقَدْ تقلَّـدوا سيوفَهـم ، وتَحلَّوْا بـأحْسنِ زينـةٍ لهمْ حَسـبَ عـاداتِهم في أَفْراحِهم

وأَعْيادِهـم ، وإنَّهم لَيَشْعرونَ أَنَّ كُـلَّ ما يقـومونَ بِـهِ الآنَ قليلٌ بـالنسبةِ لـرسـولِ اللهِ الـذي أخرجَهُـم إلى النُّـورِ والصِّراطِ المستقيـمِ . . وهٰـذا صَحيحٌ يـا أحبَّتي ، فـرسولُ اللهِ ﷺ يَستحقُّ أَكْثَـرَ مِنْ هٰـذا الاستقبالِ وهذا السُّرورِ ، ولَو اسْتَطاعوا أَنْ يَفْعلوا أَكْثَرَ لَفَعَلوا وهُمْ فرِحُونَ .

ثمَّ تابعتِ العيونُ سَيْرَ الموكبِ وسْطَ الفرْحةِ العامرةِ والتَّهليلِ والتَّكبيرِ ، وكأَنَّ المدينَةَ كُلَّها قلبٌ واحدٌ ، ووجهٌ واحدٌ ، وابتسامَةٌ واحدةٌ .

ابْتِسامَةُ الشَّاكِرِين

ومقابِلَ هٰـذا . . ماذا تتصوَّرُونَ رسولَ اللهِ ﷺ فاعِلاً أَمامَ هٰذا الحفلِ العظيـمِ بقدومِـهِ ؟ إنَّ لَهُ قَلْباً يشعرُ ، ونفساً تحسُّ ، فلَمْ يقفْ أمامَ الاستقبالِ صامتاً ، بَـلْ كانَ يبتسمُ أَحْلى ابتسامةٍ ، ألا وهيَ ابتِسامَةُ الشَّاكرين ، يشكرُهُم بها على معروفِهِم الكبيرِ ، ويدْعـو لهمْ بالخيرِ ، وإنَّهم ليستحقُّونَ حَقّاً أَجملَ شكرٍ . . ورسولُ اللهِ قدْ علَّمنا يـا أَحبَّائي أَنَّهُ إذا لَمْ يكُنْ في اسْتِطاعتِنا رَدُّ المعروفِ بمثْلِهِ فإنَّنا لَنْ نضعُفَ عَنْ ردِّهِ بابتسامةٍ حلوةٍ ودُعاءٍ كريـمٍ . وإنَّ الابْتسامةَ النبويَّةَ الطَّاهرةَ لهِيَ الخيْرُ كلُّهُ ، قَبِلَها منْهُ الأنصارُ راضيـنَ ، وألسنَتُهم ما تزالُ تلهجُ بذكْرِ اللهِ : (اللهُ أكْبَرُ جاءَ رسولُ اللهِ . . جاءَ محمَّدٌ) . وإنَّ ثُغورَنا الآنَ لَتَبْتَسِمُ لابْتِسامةِ رسولِنا ، وإنَّ قلُوبَنا لَترْضىٰ مَعَ رِضا الأَنْصارِ الكِرامِ .

كُلُّ دارٍ لَكَ

وجعَلَ رسولُ اللهِ لا يمرُّ بدارٍ مِنْ دُورِ الأنصارِ إلا اعْتَرَضوا طريقَهُ وقالُوا : (هلُمَّ يـا رسولَ اللهِ . . كُلُّ دارٍ لَنا هِيَ لَكَ يـا رسولَنا العظيمَ ، هلُمَّ إلى القوَّةِ ، هلمَّ إلى المنعَةِ ، هلمَّ إلى الثَّرْوَةِ) . . وإنَّ الدُّورَ في المدينةِ يا أحِبَّائي لكثيرةٌ في عَدَدِها ، عظيمةٌ في اتِّساعِها ، رائعةٌ في نَخيلِها ، حلوةٌ في زَرْعِها وأَهْلِها ، مَنْ ينظُرْ إليها مِنَ الأعْلى يجدْ أنَّ كلَّ جماعةٍ قَدِ اجتمعَتْ في بيوتِها في قسمٍ مِنَ المدينةِ ، تؤلِّفُ قريةً صغيرةً تلاصِقُ أُخْتاً لها ، بِرِباطِ النُّورِ الإلهيِّ والعِطْرِ النبويِّ ، ممَّا يجعلُ النَّفْسَ تَتُوقُ لدُخُولِها كُلِّها . . لكنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أشارَ إلى ناقتِهِ وقال : (خَلُّوا سَبِيلَها ، فإنَّها مأمورةٌ) أيْ : إنَّ ناقتَهُ ستحطُّ في مكانٍ يختارُهُ اللهُ لَها ، وكلُّ بيوتِكُمْ أيُّها الأنصارُ لتعمُرُ واللهِ بالخيرِ والبركةِ والسَّعادةِ . .

عِنْدَ أَبي أَيُّوب

وأخيراً . . توقَّفَتِ النَّاقةُ في مكانٍ مِنَ المدينةِ ، ويقْرُبُ مِنْ هٰذا المكانِ بيْتُ أبي أيوب الأنصاريّ ، فقالَ رسولُ اللهِ فَوْرَ وقُوفِ النَّاقةِ : ﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ، قالَها أَرْبعَ مرَّاتٍ ، وتابعَ يقولُ: (أيُّ بيوتِ أَهْلِنا أَقْرَبُ ؟) فقالَ أبُو أيوبَ : أنا يا نبيَّ اللهِ ، هَذِهِ داري ، وهٰذا بابي ، فأَهْلاً وسَهْلاً ، سأُهيِّئُ لكَ أجْمَلَ مكانٍ في بيتي تسْكُنُ فيهِ . . وهكذا نزلَ رسولُنا الكريمُ عَنْ ناقتِهِ ، ودخَلَ بابَ الدارِ

القريبةِ بعدَ أنِ اختارَ اللهُ لَهُ هَذِهِ الدَّارَ . . منزلَ خيرٍ وبركةٍ ، رَيْثَما يتمُّ بناءُ مسكنٍ لرسولِ اللهِ ﷺ .

هَنيئاً لكَ يا أبا أيوب ، يا خَيْرَ مُضيفٍ لخيرِ البشَرِ أجْمعين . .

سَنَةٌ هانِئَةٌ

وأقامَ رسولُ اللهِ ﷺ في دارِ أبي أيوبَ نَحْوَ سَنةٍ ، حتَّى تَمَّ بناءُ مسجدٍ للمسلمينَ ، ومسكنٍ لَهُ ، وفي هَذِهِ السَّنةِ كانَ الأنصارُ لا يبخلونَ على رسولِ اللهِ مِنْ طعامٍ شهيٍّ ، وشرابٍ لذيذٍ . إنَّها سَنَةٌ هانئةٌ، لَمْ يشْكُ فيها رسولُنا مِنْ أذىً أَوْ عذابٍ مِنَ الكُفَّارِ كما كانَتِ الحالُ عِنْدَ أهلِ مكَّةَ ، وكُلَّما رآهُ أصحابُهُ في المدينةِ سُرُّوا وفَرِحُوا ، ودخلتِ البهْجَةُ أفئدتَهُم ، وقالُوا فيما بينَهُم : الحمدُ للهِ الذي آوَى رسولَنا العظيمَ عِندنا ، وأنجاهُ مِنْ شرِّ الكفرةِ المشركينَ ، الحمدُ للهِ الذي نصَرَهُ، فبارِكْ لَنا اللَّهُمَّ فيهِ ، واجْعَلْنا حُماةَ دعوتِهِ ، وأكثِرْ من أنصارِهِ ، وأَثْلِجْ صدْرَهُ ، واجْعَلْ مَنْ هاجَرَ مَعَهُ في سرورٍ دائمٍ يا ربَّ الأنصارِ والمهاجرين .

وُصُولُ عليٍّ

وفي مَطْلَعِ السَّنةِ الهانِئة ، لحقَ برسولِ اللهِ ابْنُ العَمِّ (عليُّ بْنُ أبي طالبٍ)، الذي كُنَّا قدْ عرفناهُ أخيراً يجلسُ بشجاعةٍ في بيتِ رسولِ اللهِ

المكّيِّ حَتَّى يؤدِّيَ الودائعَ والأماناتِ إلى أَصْحابِها . . إنَّهُ يا أحبَّتي قَدْ فَعَلَ ما أَمَرهُ بِهِ رسُولُهُ الكريمُ ، ثُمَّ قَدِمَ مِنْ مَكَّةَ على النبيِّ وهُوَ لا يزالُ بِقباءِ (البلدةِ التي نزَلَ بها رسولُ اللهِ ﷺ قبلَ الوصولِ إلى المدينةِ المنورةِ) ، ولمَّا وصَلَ رآهُ الرّسولُ متورِّمَةً قدماهُ ، فاعْتَنقهُ وبكى رحْمَةً لِما بِقَدَميْهِ مِنَ الورمِ ، ثُمَّ دَعا لَهُ اللهَ أَنْ يشفيَهُ ، فشفيَ بِإذْنِ اللهِ . . ونزلَ مَعَ رسولِ اللهِ بَيْتَ أبي أَيُّوبٍ ، وأَصْبحَ مشهوراً بيْنَ الأنصارِ يحِبُّونَهُ لأنَّهُ أوَّلُ مَنْ أَسْلمَ مِنْ أَقاربِ رسولِ اللهِ مِنْ بني هاشمٍ ، وشاعَ بيْنَ أَهْلِ المدينةِ عَنْ شجاعتِهِ وجُرأتِهِ وبطولتِهِ ، وهُوَ ما يزالُ في أوّلِ شبابِهِ صغيرَ السِّنِّ .

وأَهْلُ الرَّسُولِ

ثُمَّ بَعثَ رسولُ اللهِ إلى مكَّةَ مولاهُ زَيْدَ بْنَ حارِثَةَ وأَبا رافعٍ ، وأَعطاهُما جملَيْنِ ، وخمسمائةِ دِرْهمٍ ، وطلَبَ مِنْهُما أَنْ يأتياهُ بأهْلِهِ ، ففعلا ، وعادا بابنتي رسولِ اللهِ (فاطمةَ وأُمِّ كلثومٍ) ، أمَّا رُقيَّةُ فهيَ عِنْدَ زوجِها عثمانَ ابْنِ عفَّانَ . . وأمَّا البنتُ الكُبْرى (زينبُ) فقد بقيَتْ في مكَّةَ عِندَ زَوجِها أبي العاصِ بْنِ الربيعِ وهيَ تأمُلُ في إسْلامِهِ وهجْرتِها معاً . .

وذَهبَ مَعَ زيدٍ إلى المدينةِ ابنُهُ أسامَةُ ، وأُمُّ أُسامَةَ (وهيَ أمُّ أيمنَ نفسُها) ، وتبعَهمْ عيالُ أبي بكرٍ وفيهمْ عائِشَةُ الصّغيرةُ وأَسْماءُ ذاتُ النِّطاقيْنِ . . ولا تَنسوا يا أحبَّتي أَنَّ الرسولَ ﷺ سيَفرحُ بقدومِهم ، وأَنَّ

عائِشَةَ ستَكُونُ في مَسْكنِ الرَّسُولِ عمَّا قريبٍ ، فهيَ زَوْجتُهُ المنتظرةُ ، بعْدَ أربعِ سنواتٍ مِنْ فقْدِ خديجَةَ رحمَها اللهُ .

اكْتِمالُ الفَرْحَةِ

وستكْتَمِلُ الفرحةُ يا أحبَّتي ، فالمؤمنونَ كُلَّما رَأَوا رسولَهُمْ فَرِحاً فرحُوا لفرحِهِ ، واليومَ يروْنَ أَهْلَ الرّسولِ وأبي بكرٍ وزَيْدِ بْنِ حارثَةَ قَدْ قَدِموا مِنْ مكَّةَ .

ويُقْبِلُ الصَّحابَةُ على رسولِهِم يهنِّئونَهُ على سلامَةِ أَهْلِهِ ، ويهنِّئونَ أبا بكرٍ على سَلامَةِ عيالِهِ وبناتِهِ ، ويهنِّئونَ زَيْداً على سَلامَةِ ابْنِهِ وزوْجتِهِ ، وعاشَ الجميعُ بَعْدَ اكتمالِ الفَرْحَةِ أيَّاماً سعيدةً ، وبدَأَ الرّسولُ بعدَها يُفكِّرُ في المجتمعِ الإسْلاميِّ ، وكيفَ يحْمِيهِ ؟ وكيفَ يَبْنيهِ ؟ ويدعمُ ترْسيخَهُ ؟ وهذا ما سنرى جوابَهُ واضحاً يا أيُّها الأعِزّاءُ في الصّفحاتِ القادمةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى .

وسنبْقى فرحينَ كُلَّما قرأْنا عَنْ أمرٍ كانَ سبباً في إدْخالِ السُّرورِ إلى قلبِ رسولِ اللهِ ﷺ وصَحابتِهِ الكرامِ رضيَ اللهُ تعالى عنهم أجمعينَ .

وزَغْردَتِ السَّماءُ

ولَوْ حاولْتُم أنْ تبْحثوا عَنْ مخلوقاتٍ أُخْرى فرِحَتْ معَنا ومَعَ الأنصارِ لوجدْتُمْ أنَّ جبريلَ وملائكَةَ السَّماءِ قَدْ حَمِدُوا اللهَ فرِحِينَ أيْضاً لِسَلامَةِ

النبيِّ الكـريمِ ﷺ ووصولِهِ أخيراً مَعَ أَهلِهِ إلى المدينةِ سـالماً . السَّماءُ يا أحبَّتي قَدْ زَغردَتْ مَعَ الأرْضِ ، وهي تَزفُّ البُشْرىٰ والتَّهاني إليها قائِلَةً : بُشْراكِ يا أُخْتاهُ ، لَقَدْ بَدأ فيكِ عهْدٌ جديدٌ مِنْ عهودِ الدّعوةِ الإِسْلاميَّةِ، وإنَّنا لنَلْمَحُ مِنَ الأعْلَى أَنَّ البناءَ الجماعيَّ قَدْ دَخَلَ التَّاريخَ الإِسلاميَّ . وكَمْ نحنُ في شوقٍ لنَرىٰ المجتمعَ المثاليَّ الفاضِلَ قَدْ تأسَّسَ على قَواعِدَ مِنَ الحبِّ والإيثارِ ، وعَلىٰ كـلِّ المبادِئِ التي وضَعَها الإسـلامُ للمُجتمعِ الصَّالحِ ليعيشَ النَّاسُ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ في ظلِّ الأَمْنِ والسَّلامِ .

المجْتَمَعُ السَّعيدُ

لَقَدْ بدأَتِ الآياتُ تَنْزِلُ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وهيَ تنهَجُ نَهْجاً آخَرَ غيرَ النَّهجِ الـذي كـانَ في السَّنواتِ الثَّلاثَ عشرَةَ الماضيَـةِ ، وقَـدْ يَتبـادرُ السَّببُ إلى أَذْهـانِكُـم ، حيثُ تعْلَمـونَ أنَّ اللهَ أذِنَ لـدِينِـهِ أَنْ يَنتَصِرَ ، ولعقيدةِ محمّـدٍ أَنْ تُؤْتِيَ ثِمارَهـا . . وصحيحٌ أنَّ رسـولَ اللهِ قَدْ بَـدَأَها في أَفْرادٍ وأَنْفسٍ مِنْ هُنا وهُناك ، إلا أَنَّهُ اليومَ سَيَظْهرُ أَثَرُ دَعْوتِهِ في الجماعةِ لتكونَ فكرةً تُهَيْمِنُ على المجتمعِ الجديدِ . . وبما أَنَّ الرِّسالَـةَ المحمديَّةَ للبشَرِ فـلا قيمـةَ لها قـطُّ إنْ بقيتْ في مُسْتوى أفـرادٍ قـلائلَ . . فَمِنَ الضَّروريِّ إذاً يا أحِبَّتي أَنْ تُتَرْجَمَ العقيدةُ بواقعيَّةٍ على نِطاقِ مجتمعٍ تُخَيِّمُ عليهِ السَّعادَةُ ، فقدِ انْتهى عهْدُ الاضطرابِ والخَوْفِ وآنَ وقْتُ الانْدفاعِ إلى العملِ الجماعيِّ . .

قِصَصُ
السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
٣٠

المجتمع السّعيد

مَنْزِلُ التَّكْرِيمِ

لقدْ فهِمَ المؤمنينَ جميعاً مِنَ الأَنْصارِ والمهاجِرِين أَنَّ اللهَ قَدْ كرَّمَ بَنِي آدَمَ وفَضَّلَهُمْ على كثيرٍ ممَّنْ خلقَ، وجعلَهُم خلفاءَ في الأرضِ، وسخَّرَ لهُمْ كُلَّ ما فيها ليَعْمروها بالخيْرِ والصَّلاحِ. ولقَدْ أَرادَ اللهُ تعالىٰ أَنْ يستلمَ زِمامَ البناءِ رسولٌ كريمٌ هُوَ مُحمّدٌ ﷺ لغايةِ الإِسلامِ الكُبْرىٰ، أَلا وهيَ الحياةُ الصَّالحةُ وتكريمُ العاملينَ على هَدْيِ ربِّ العالمينَ. وأَيُّ تكريمٍ أكرَم مِنْ أَنْ يمتلئَ قلْبُ الإِنْسانِ بالإِيمانِ تحْتَ قيادَةِ نبيٍّ مؤمنٍ حكيمٍ مثْل محمّدٍ ﷺ..؟!

إنَّ الجماعَةَ المسلمةَ الآنَ بحاجةٍ إلى مَنْ يُعْلِنُ عَنْها، وسوفَ ينصُرُها اللهُ، ويُمَهِّدُ لَها النَّجاحَ، ليتحقَّقَ قولُهُ تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

كُلُّ الاخْتِلافِ

أَيْنَ أَنْتَ الآنَ يا أَبا جَهْلٍ.. لِترَىٰ نَصْرَ اللهِ، وتأْسيسَ هَذا المجتمعِ السَّعيدِ؟ بَلْ أَيْنَ أَنْتُمْ يا زُعَماءَ قريشٍ؟ يا مَنْ كنتُم تذيقونَ المؤمنينَ أَلوانَ العذابِ وصنُوفَ الأَذىٰ والهَوانِ..

أَيْنَ أَنْتِ يا مكَّةُ، يا مَنْ وَدَّعَكِ محمّدٌ الرسولُ حزيناً، لِتُشاهِدَ جبالُكِ العاليةُ سهولَ المدينةِ ووِدْيانَها، وقَدْ غَمَرتْها زَغْرَدةُ الفرحِ؟ وأَيْنَ أَهلُوكِ ليروا بيوتَ الأَنْصارِ عامرةً بالإِيمانِ والحبِّ والتَّقوىٰ؟ لا

تَحْزني.. فَسيأْتي يَوْمُ العودَةِ إِليْكِ لتفرحي.. أَيْنَ الذينَ دَفَعوا الكثيرَ ليقتُلوا رسولَ اللهِ؟ وحاصَروا بيتَهُ ليفْتِكوا بِهِ؟ هَلا وصلَتْ إليهِم الأَخْبارُ عَنْ أَمْنِه واستقرارِهِ ونجاتِهِ؟ وهلا تأَكَّدوا مِنْ حمايةِ اللهِ لَهُ في حِلِّهِ وترْحالِهِ.

اِسْتِقْرارُ المؤْمنِينَ

لَقَدِ استقرَّ مَعَ صَحْبِهِ بَعْدَ الهجْرةِ ليُعْلِنَ للجميعِ عَنْ بَدءِ عَهْدِ الاستقرارِ والأَمْنِ، وأَنَّهُ قَدْ وَجَبَ على أَتْباعِ الحَقِّ السَّيْرُ على منهجٍ جماعيٍّ ليحفَظُوا هَذا الاستقرارَ، وأَنْ يَرْسموا لَهُ خطوةَ الشُّموخِ في الطَّريقِ السَّويِّ، حَتَّى يأْمَنُوا الزَّلاتِ، ويَتَّقُوا العَثَراتِ، وَيَصلوا بِهِ إِلى العيشَةِ الفَاضلةِ التي تلائمُ كرامَتهم وإِيمانَهم بخالِقِهم.

الجميعُ الآنَ يتمسَّكُونَ ويعتصِمُونَ بحَبْلِ اللهِ دُونَ تفرُّقٍ، ويتذكَّرونَ مِنْ قبلُ كَيْفَ كانُوا أعداءً فألَّفَ اللهُ بَيْنَ قلُوبِهِم وأَصْبَحوا بنعْمتِه إِخواناً، وكَيْفَ كانُوا على شَفا حُفْرةٍ مِنَ النَّارِ، فأَنْقذَهُم اللهُ مِنْها إِلى نورِ الهدايةِ. فهنيئاً لكُمْ أَيُّها المسلمونَ استقرارَكُم ووحدَتَكم، وكَمْ نَحْنُ في شَوْقٍ إِلى مجتمعٍ مستقرٍ سَعيدٍ مِثل مجتمعِكُمُ النَّاعمِ بالعَدْلِ والسَّلامِ.

كَالجَسَدِ الْواحِدِ

وإِنَّنا يا رسولَ اللهِ لنَلْمَسُ أَثَرَ يَدَيْكَ الطَّاهرتَيْنِ في بناءِ هَذا المجتمعِ العظيمِ، فأَنْتَ عَلى أَساسِ الوحْدَةِ قَدْ بنيتَهُ، وإِنَّنا لنتذكَّرُ كَيْفَ كُنْتَ

تطلبُ مِنْ صحابتِكَ وأَتْباعِكَ أَنْ يَكُونوا (في تَوادِّهم وتَراحمِهم كمثلِ الجَسَدِ الواحِدِ إذا اشْتَكىٰ منهُ عُضْوٌ تداعىٰ لهُ سائِرِ الجَسَدِ بالسَّهرِ والحمَّىٰ . .) . لقَدْ كُنْتَ تريدُها حياةً فاضلةً وكريمةً . . يَحْميها التَّآخي ، ويظهرُها التَّراحُم ، ويخيِّمُ عليها السَّلامُ . .

وسَنرىٰ الآنَ ما كنْتَ تُقيمُهُ بينَهُمْ مِنْ دعائمَ تَرْكَزَ عَلَيها بناؤُكَ ، وسنعرفُ يا رسولَنا الكريمَ ما كُنْتَ تنظِّمُهُ مِنْ صِلاتٍ تحيطُ المسلمَ مِن الجهاتِ جميعها ، مَعَ اللهِ ، ومَعَ أَخيهِ المُسْلم ، ومَعَ الإنسانِ الآخرِ ، ليعيشَ المؤمنُ مَعَ الكَوْنِ كلِّه ومَعَ خالقِ الكونِ في اتصالٍ دائمٍ .

بِالْعُبُودِيَّةِ الخَالِصَةِ

وأوَّلُ أمرٍ يا أحبَّتي المؤمنينَ هُوَ أَنْ يُخْلِصَ الإنسانُ عبادَتَهُ الصحيحةَ للهِ وَحْدَهُ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ فإذا ما فعلْنا هذا فإنّنا قد أعتقدنا حقّاً بأنّهُ لا إلهَ إلا اللهُ ربُّ العالمينَ . وحدَهُ يخلُقُ ويرزُقُ ، ويُحْيي ويُميت ، وينفعُ ويضرُّ ، ويأمُرُ فيُطاعُ ، ولا سُلطانَ لأحدٍ عليهِ ، ولا وساطةَ لأحدٍ لديْهِ إذا شَفَعَ لنا إلا بإذْنِهِ ، وإنَّ كُلَّ إنسانٍ يذلُّ نفسَهُ لإنسانٍ مثله فقدْ نفى عبوديَّتَهُ للهِ ، وأنكرَ طاعتَهُ الخالصَةَ لهُ ، ولو زَعَمَ أنّهُ يحبُّ اللهَ كثيراً . .

فإيّاكُمْ أنْ تخضعوا إلا للهِ الواحدِ القهّارِ فهُوَ وَحْدَهُ الذي يستحقُّ أنْ نخْضَعَ لهُ ، ونستعينَ بهِ ، ونتوكّلَ عليهِ ، ونؤمنَ بوحدانيّتِهِ ، ونبتغي

رِضْوانَهُ لِننالَ رحمتَهُ وغفرانَهُ دَوْماً .

. . والصِّلَةِ الرَّبَّانيَّةِ

ومِنْ أَجْلِ أَنْ نَبْقىٰ عَلى هٰذا المستوىٰ مِن العبوديَّةِ الخالصةِ جَعَل اللهُ لَنا ركيزةً يرتكِزُ عليْها مجتمعُنا الذي بَناهُ الرَّسولُ ﷺ في المدينةِ ، ألا وهي (الصَّلاةُ) . . نَعمْ يا أَعِزّائي ، الصَّلاةُ أَقْوىٰ صلةٍ تَربطُنا باللهِ وبالمسلمينَ أَيْضاً ، والعَبْدُ أَقْربُ ما يكونُ مِنْ رَبِّهِ وهُوَ يصلِّي ساجداً خاشِعاً متذلِّلاً ، يدعوهُ ويناجيه ، مُوقناً أَنَّ اللهَ وحْدَهُ هُوَ مَصْدَرُ النِّعمِ ، وواهِبُ الحياةِ ، ومالكُ الأَمْرِ في الدُّنيا والآخرةِ .

ولَقَدْ صدقَ رسولُنا عنْدما نبَّهنا ونبَّهَهُمْ إلى هٰذا الأَمْرِ العظيمِ ، وأَنَّ الصَّلاةَ عمودُ الإسلامِ ، وحذَّرنا مِنْ تَرْكِها لأنَّ مَنْ تركَها فقد كَفَرَ . ولَقَدْ نفَّذَ الرَّسولُ الالتزامَ بِها مَعَ صحابتِه خمسَ مرّاتٍ في اليومِ واللَّيْلة ، فلَمْ يَتْركوها أَبداً ، لا في سفرِهم أَوْ في إقامتِهم ، ولا في أَمْنِهم أَوْ حَرْبِهم ، ولا في صِحَّتِهم أَوْ مرضِهمْ .

. . وَالمَسْجِدِ الجامِعِ

والصَّلاةُ يا أحبَّتي تمحُو الخَطايا ، وتُبْعِدُنا عَنْ مَسِّ الشَّيطانِ ومُغْرياتِ الدُّنْيا ، وتُزكّي أَنْفُسَنا وتُطَهِّرُها باسْتمرارٍ كما لَوْ أنَّ أحدَنا يغتسِلُ كُلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ فإنَّهُ لَنْ يَبْقى على جسمِهِ شيءٌ مِن الأوساخِ . ولكيْ يبقىٰ المجتمعُ متكاملاً نشيطاً أمرَنا الرسولُ أنْ نصلّيَ

جماعةً ، وبَنىٰ لذلِكَ مسجدَهُ في المدينةِ حَتَّى يلتقيَ فيهِ المسلمُ مَعَ المسلمِ ، ومعَ اللهِ في آنٍ واحدٍ في لقاءِ محبةٍ وأُنسٍ . . وما أَحْلىٰ قَوْلَ حبيبِنا محمّدٍ ﷺ عندما قالَ : (وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلاةِ) . ولهٰذا كانَ أَوَّلَ ما اهتَّم بهِ في مجتمعِهِ الجديدِ هُوَ بناءُ هٰذا المسجدِ كمكانٍ للصَّلاةِ بشكلٍ رئيسٍ ، وإنَّهُ يا أحبَّتي قَدْ بناهُ علىٰ أبسطِ الأوضاعِ والأشكالِ ، ثم إنَّهُ قد حَمَلَ مَعَ صحابتِهِ الحجارَةَ واللَّبناتِ مُشارِكاً في بِنائه بتواضُعٍ وهمَّةٍ عاليةٍ .

القائِدُ منْهُمْ

ولقَدْ صَعُبَ على بعضِ الصَّحابةِ أَنْ يَرىٰ رسولَ اللهِ يعملُ مَعَهم ، فَأَخَذُوا يقولُونَ :

لِئِنْ قَعَدْنا والنَّبيُّ يَعْمَلُ ... لَذاكَ مِنّا العَمَلُ المُضَلِّلُ

. . وجعلَ آخرونَ يُنْشِدونها ويتغنَّونَ بها وهُمْ يَعْمَلُونَ ، وحدثَ أَنْ لَقِيَ أحدُهُم رسولَ اللهِ وهُوَ يحملُ لبنةً ثقيلةَ الوزنِ ، فطلَبَ مِنْ رسولِهِ أَنْ يأخُذَها منه قائلاً : أَعْطِنيها يا رسولَ اللهِ ، فقالَ لَهُ رسولُ الله ﷺ : (اذْهَبْ فَخُذْ غَيْرَها فَلَسْتَ بأَفْقَرَ إلى اللهِ مِنّي) كأَنَّهُ يعبِّرُ بذلكَ عَنْ روحِهِ المتواضِعةِ ومشاعِرِهِ الطَّيبةِ ، فالقائدُ واحدٌ مِنَ الأمَّةِ ، إنْ عَمِلَ مَعَ أفرادِ أمَّتِه ، فالجميعُ سيَعْملونَ دونَ مللٍ ، بَلْ بنشاطٍ واغْتباطٍ ، ولا سيّما إذا كانَ العملُ مِنْ أجْلِ مشروعٍ عظيمٍ هُوَ بناءُ مسجدٍ كمسجدِ

رسولِنا العظيمِ ﷺ .

مُجتمعٌ مُتكامِلٌ

وتَمَّ بناءُ المسْجِدِ ، وجعَلَ المسلِمُونَ يصلُّونَ فيهِ وراءَ نبيِّهم الكريمِ ﷺ ، وبهذا أخَذَ المجتمعُ يتكاملُ مِنْ كُلِّ جوانبِهِ ، فاجتماعُهم للصَّلاةِ هُوَ تشاوُرٌ أيْضاً فيما بَيْنَهم ، إذا عَرَضَ لهُمْ أَمْرٌ تحدَّثُوا بِهِ ، وإنْ نَزَلَ مِنَ السَّماءِ قرآنٌ تلاهُ الرسولُ عليهمْ ، وإنْ وجَدَ أحدُهُم ضِيقاً على أخيهِ فرَّجَ عنْهُ كُرْبَتَهُ ، وساعدَهُ فيما يلزمُهُ ، كلُّ هٰذا كفيلٌ بأَنْ يُظْهِرَ المجتمعَ في ثيابٍ جديدةٍ وإطارٍ جديدٍ ، يَنْعَمُ بالمحبَّةِ والإخاءِ والتَّكافلِ . . الكلُّ مُتواضِعون فيما بَيْنَهم ، ومتراحمونَ ، لا يبخَلُونَ في أَنْ يَبْذُلوا الغالي والنَّفيسَ وكُلَّ ما بوسعهِم لترسيخِ الدَّعائِمِ المتينَةِ لهٰذا المجتمعِ ليصبحَ كلمةً طيِّبةً كشجرةٍ طيِّبةٍ أَصْلُها ثابتٌ ، وفرعُها في السَّماء .

وَحياةٌ صالِحَةٌ

وأيُّهما أَصْلَحُ الآن . . حياةٌ تقومُ على هٰذِهِ الأسسِ التي عَرَفْناها ، أمْ حياةٌ لا تَعْرفُ للخير ركيزةً ، ولا للمعْرُوفِ سَبيلاً ؟ إنَّنا بلا شكٍّ سننضمُّ للنَّوعِ الأَوَّلِ ، إلى حياةِ الرَّسولِ ﷺ وصحابتِهِ الكرامِ ، فهيَ الحياةُ الصَّالحةُ ولا صالح غَيْرها ، وأيُّ صلاحٍ أفْضلُ وأحْسنُ ممَّنْ أسَّس بُنيانَهُ على تَقْوىٰ اللهِ وعبادتهِ ؟

إنَّ المجتمعَ المتكامِلَ يا أحبّائي لا تتناسَبُ معهُ إلا الحياةُ الصالحةُ ، بلْ ولا تنتشرُ وتحيا فيهِ إلا هـذهِ الحياةُ . ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ عنوانـاً للصَّلاحِ والحبِّ والوِئامِ والسَّلامِ.

والآنَ سأَدرُس معَكُم شيئَيْنِ هامَّيْنِ كانـا ممَّا يُـزيِّنُ مرحلَـةَ المجتمعِ السَّعيدِ وهُما (القرآنُ المدنيُّ) و (الأذانُ) .

القُرآنُ المدنيُّ

عنْدَما نُمْسِكُ المصحفَ الشَّريفَ بَيْنَ أيْدِينا ، نجـدُ على كُلِّ سورةٍ منْهُ اسْمَ السُّورةِ وتصْنيفَها المكـانيَّ ، فإمَّـا أنَّها مكيَّةُ النُّزولِ أوْ مـدنيَّةُ التَّنزيلِ . والقرآنُ المدنيُّ يَعني كُلَّ آيـةٍ نزلَتْ بعدَ الهجرة ، ولهذهِ الآياتِ المدنيَّةِ جَـوٌّ خاصٌّ يـا أحِبَّتي ، فبَعْدَ أنْ كـانَ المجتمعُ المكِّـيُّ يستلزِمُ آياتٍ تتحدَّثُ عَنِ الوحدانيَّـةِ واليومِ الآخِرِ وقصصِ السَّابقينَ وتحذيرِ المشركينَ مِـنَ الكفرِ ، أَصْبحْنـا الآنَ في مجتمـعٍ يتطلَّـبُ آياتِ تشريـعٍ وأحكامٍ بـأوامرَ جماعيَّةٍ ، وتنفيذٍ جماعـيٍّ ، والنتائجُ جماعيَّةٌ بعْـدَ ذلك ، ومثـالُنا تشريـعُ اللهِ في قـولِه تعـالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ . فهـذهِ آيةٌ تـأمُـرُ بأمْـرٍ يُنظِّـمُ العلاقـاتِ الجماعيَّة ، ويُساعد على التَّماسُكِ وحفْـظِ الجماعَةِ وترْسيخِ المجتمعِ على

أَساسِ العبوديَّةِ للهِ وَحْدَهُ .

الأَذانُ

وأَمَّا عَـنِ الأَمْرِ الثَّاني فقَـدْ كانَ المسْلمُـونَ إذا ما حانَ وقْـتُ الصَّلاةِ سَمعُـوا مناديـاً يقولُ : (الصَّلاةُ جامعة) ، إنَّـهُ مُنادي رسـولِ اللهِ ، فَيستجيبـونَ . . ورسولُ اللهِ ﷺ يهمُّهُ أَمرُ الأذانِ أيْ : (إعْلامُ النّـاسِ للصَّـلاةِ) ، واستَشارَ قـومَـهُ في صيغةٍ أُخْرىٰ ، فقـالَ أَحَـدُهـم : هَـلا نستعملُ النَّاقُوسَ كَما يفعَلُ النَّصـارىٰ ؟ وقالَ آخَرُ : أوْ ننفخُ في البوقِ كما يفعَلُ اليهـودُ ؟ وقالَ ثـالثٌ : أوْ نضربُ بـالدُّفِّ كَما يفعـلُ الرُّومُ ؟ وتحدَّثَ رابعٌ قائلاً : أَوْ نُوقِدُ ناراً كما يفعَلُ المجوسُ ؟ واقترحَ خامسٌ أنْ تُرفَعَ رايةٌ إذاحانَ الوقتُ ليَراهـا النَّاسُ ، فيجتمِعُوا للصَّلاةِ . . كُلُّ هذا سمعَهُ الرّسولُ ، ولكنَّهُ لمْ يرتَضِ شيئاً مِنْ ذلكَ . إنَّهُ يريدُ أذاناً يرسمُ شخصيَّةً مستقِلَّةً للمُسْلِمِ وللأمَّةِ الإسلاميَّةِ في المجتمعِ الجديدِ .

رؤْيا حَقٍّ

ويُقبِلُ عَبْدُاللهِ بْـنُ زيدٍ على رسولِ اللهِ ﷺ ، وهُوَ يقُـولُ : (يا رسولَ اللهِ ، لَقَدْ رأَيتُ هذهِ اللَّيْلَـةَ في نَومي رُؤْيا عَنْ رَجُلٍ مَرَّ بي يَحْمـلُ نَاقوساً فقُلْتُ لـهُ : يا عَبْـدَ اللهِ ألا تَبيعُ هـذا النَّاقـوسَ نَدْعُـو بِهِ إلى الصَّلاةِ ؟ فقال: أَفلا أَدُلُّكَ على خَيْرٍ منْ ذلِكَ ؟ قُلْتُ : وما هُوَ ؟ قالَ : تقولُ :

* اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ
* اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ

* أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله 　 * أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله .

* أَشْهَدُ أَنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ 　 * أَشْهد أَنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ .

* حيَّ على الصَّلاة 　 * حيَّ على الصَّلاة .

* حيَّ على الفَلاح 　 * حيَّ على الفَلاح .

* اللهُ أَكْبرُ اللهُ أَكْبرُ .

* لا إله إلا الله .

بِلالُ مُؤذِّنُنا

وما أَنْ سَمِعَ الرّسولُ ﷺ هٰذا الأذانَ الجديدَ حَتَّى قالَ مُبْتسماً : (إنها لرُؤْ يا حَقٌّ إنْ شاءَ اللهُ ، فقُمْ مَعَ بِلالٍ فألقِها عليْهِ ، فليُؤَذِّنْ بِها ، فإنَّهُ أَنْدى صَوْتاً منكَ) أَيْ إنَّهُ أَعْذَبُ وأَبعدُ مَدًى في صَوْتِهِ مِنْ صَوتِ عبْدِ اللهِ بنِ زَيْدٍ ، فَلَمَّا أَذَّنَ بِها بلالٌ بِصَوْتِهِ العذبِ الجميلِ ، سَمِعَها عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ وهُوَ في بَيْتِه ، فهرعَ إلى رسولِ اللهِ وهُوَ يجُرُّ رداءَهُ ، ويقولُ : يا نبيَّ اللهِ ، والذي بَعثَكَ بالحقِّ لقَدْ رأَيتُ مثلَ الذي رَأَى ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : (فلِلّهِ الحمْدُ على ذلكِ) . .

والمطلوبُ منَّا الآنَ أَنْ نَحْفَظَ هٰذا الأذانَ ، ونردِّدَهُ بعْدَ المؤذِّنِ ، ثُمَّ نُصَلِّي على رسولِ اللهِ ﷺ إذا انْتَهَينا ونسألُ اللهَ لهُ الوسيلةَ والمقامَ المحمودَ حَتَّى نَنالَ شفاعَتهُ يومَ القيامَةِ كما وَعَدَنا رسولُ اللهِ ﷺ .

قِصَصُ السِّيرةِ النَّبَوِيَّةِ

٣١

